نقولا زيَادة

صفحات مغربيـة

الأعمَالُ الكامِلة



نقولا زيَادة
صفحات مغربية
22

صفحات مغربية

نقولا زيادة

الأعمال الكاملة

صفحات مغربية

الأهلية للنشر والتوزيع

إصدار: **الأهلية للنشر والتوزيع**
بيروت ٢٠٠٢
بيروت، لبنان ـ الحمراء ـ بناية الدورادو
ص. ب.: ٥٤٣٣ ١١٣ ـ هاتف: ٣٥٤١٥٧

المحتويات

تصدير

هذه الصفحات التي أضعها بين أيدي القراء هي مجموعة من مقالات ومحاضرات وإذاعات أُعدت في مناسبات متفاوتة في الزمن، متباينة في الحاجة. فأولاها ترجع إلى أواخر سنة ١٩٥١، وآخرها وضع في سنة ١٩٦٥؛ بعضها نشر في دوريات علمية، والبعض الآخر نشر في الصحف والمجلات؛ ومنها ما لم ينشر وإنما أذيع. ومن ثم فهي مختلفة في الحجم. وبسبب تباعد الزمن في كتابتها، وتنوع الحاجة التي كتبت من أجلها، فقد تفاوت الأسلوب فيها بشكل واضح.

ولما جمعتها لأدفع بها إلى المطبعة، لم أُغير فيها الا ما كان من شأن تصحيح لغوي بسيط، أو تبديل لفظي عادي. وما عدا ذلك فقد بقيت على ما كانت عليه يوم كتبت. فأرجو ان يجد فيها القراء بعض المتعة أو شيئاً من الفائدة.

وأود ان اشكر للسادة يوسف قزما خوري وعدنان البخيت وابراهيم نمر، الطلاب في قسم التخصص في دائرة التاريخ بالجامعة الاميركية في بيروت، ما بذلوه من جهد في مساعدتي لإعداد هذه الصفحات للنشر.

ربيع ١٩٦٦

القسم الأول

من معارك العرب

١ ـ فتح طرابلس وسبيطلة

كانت برقة وطرابلس الغرب جزءاً من الدولة البزنطية بعد انقسام الامبراطورية الرومانية إلى شرقية وغربية. ومع أن الليبيين كثيراً ما ثاروا على البزنطيين، فانهم كانوا يقبلون سلطان القسطنطينية متى شعروا بأن ثمة قوة تدعم هذا السلطان. على اننا يجب ان نذكر اننا نتحدث عن أزمنة كانت فيها المواصلات بطيئة ووسائلها تكاد تكون بدائية. لذلك لما أعاد موريق (٥٩٢ ـ ٦٠٢م) تنظيم امبراطوريته جعل ليبيا (برقة وطرابلس) تابعتين لمصر. لكن الواقع ان هذه البلاد ظلت معلقة بين مصر شرقاً وافريقية غرباً، فلا تلك ضبطت أمورها، ولا هذه (بزعامة غريغوريوس) استولت عليها. انما الذي يمكن قوله عن ليبيا وأهلها في هذه الفترة السابقة للفتح العربي لتلك البلاد، هو ان برقة كانت تتمتع بكثير من الثروة في جبلها الأخضر وساحلها. وان طرابلس «كانت العلاقات متصلة بينها وبين غيرها من بلاد الدولة «البزنطية».

فانصرف اهلها إلى المتاجرة بسفنهم مع بلاد البحر الأبيض. ومصداق ذلك اننا نجد ان العرب يصيبون منهم كثيراً من المال والغنائم دون ان نسمع عن أية مقاومة، مما يدل على ان أهلها كانوا تجاراً، وانه لم تكن فيها حامية من لدن غريغوريوس أو الدولة البزنطية.

وثمة أمر آخر يجب أن نذكره عن قبائل ليبيا البربرية. فالظاهرة التي لفتت المؤرخين هي ان البربر لم يقاوموا الفاتحين العرب. وقد تكون لذلك اسباب متباينة من مثل إدراكهم ان هؤلاء الفاتحين الجدد يمكن ان يكونوا عوناً لهم على البزنطيين. ولكن يمكن القول ان البربر (قبائل لواته ونفوسه وهوّارة)، الذين كانوا يقومون بالثورة تلو الثورة ضد الحكم البزنطي، كانوا قد تعبوا وضعفوا، فلم يقاوموا المحتلين الذين تنقلوا خلال البلاد من مكان إلى آخر. واذن فهذه القبائل كان قد أدركها الضعف، فلجأت إلى العافية. وقد لخص الدكتور حسين مؤنس هذا الوضع بقوله: «إن هذه القبائل كلها لم تبد مقاومة، ولم تتحرك للدفاع عن النواحي التي تسكنها، على الرغم من ان المسلمين جاسوا خلالها ولم يتركوا ناحية الا وطئوها وغزوها. وذلك السكون إن هو الا نتيجة طبيعية للحكم البزنطي. فلم يكن ينتظر من هذه القبائل التي لبثت طوال هذا العصر تناهض الروم وتدافعهم الا ان يدركها الخمود والسكون في أواخر ذلك العصر. ومصداق ذلك ان هذه القبائل بدأت تتحرك للدفاع والمقاومة مرة أخرى

بعد انقضاء سبع وثلاثين سنة من بدء الفتوح العربية، أي بعد أن نالت قسطاً من الراحة عوضت فيه بعض ما اصابها في حكم الروم، سواء في ذلك قبائل الساحل التي كانت خاضعة لهم تماماً، او قبائل الداخل التي خرجت عن سلطانهم، اذ كانت الأولى هدفاً لمطالبهم وضحية لمساءاتهم، وكانت الأخرى موقع اذاهم وعدوانهم».

وفتح برقة راود عمر بن العاص وهو بعد على ابواب الاسكندرية. ولم يكد ينتهي منه حتى استأذن عمر بن الخطاب بالسير غرباً. فلماذا فكر بذلك؟ لعلّ الدافع الأول هو ما كان في نفس عمر بن العاص من حب للسير المستمر والفتح والغزو. فالرجل كان جم النشاط، عظيمه، كبير المطامح، لذلك لم يكن يحب الوقوف. ولكن هناك ايضاً أمر آخر. وهو ان عمراً كان يدرك أهمية برقة في المحافظة على مصر فيما اذا فكر حكام افريقية في مهاجمتها. يضاف إلى ذلك ان جند عمرو كانوا يميلون إلى استمرار الفتح «اذ كان الفراغ من فتح مصر معناه وقوف حركة الغزو وانقطاع الغنم بعد معاهدة الاسكندرية. فلم يجد هؤلاء الجنود منفرجاً لنشاطهم ـــ الذي اتصل من جزيرة العرب حتى الاسكندرية ـ الا القيام بغارات قصيرة يصيبون فيها من أهل الواحات وسكان الصحراء ما يقدرون عليه، ثم يعودون إلى مصر».

هذه هي جماع الاحوال التي احاطت باحتلال العرب لبرقة وطرابلس. وها نحن أولاً ننقل رواية ابن عبد الحكم عن فتح تلك الجهات. قال:

«سار عمرو بن العاص في الخيل حتى قدم برقة فصالح أهلها على ثلاثة عشر الف دينار، يؤدونها إليه جزية. ولم يدخل برقة يومئذ جابي خراج، انما كانوا يبعثون بالجزية اذا جاء وقتها. ووجه عمرو بن العاص عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة، وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين.

«ثم سار عمرو بن العاص حتى نزل طرابلس في سنة اثنتين وعشرين فنزل على القبة التي على الشرف من شرقيها فحاصرها شهراً لا يقدر منهم على شيء. فخرج رجل من بني مدلج ذات يوم من عسكر عمرو متصيداً في سبعة نفر. فمضوا غربي المدينة حتى أمعنوا عن العسكر، ثم رجعوا فأصابهم الحر فأخذوا على ضفة البحر وكان البحر لاصقاً بسور المدينة، «ولم يكن فيما بين المدينة والبحر سور. وكانت سفن الروم شارعة في مرساها إلى بيوتهم فنظر المدلجي واصحابه فاذا البحر فدخلوا منه حتى اتوا من ناحية الكنيسة وكبروا فلم يكن للروم مفزع الا سفنهم. وابصر عمرو واصحابه الشلة في جوف المدينة فأقبل بجيشه حتى دخل عليهم فلم تفلت الروم إلا بما خف لهم في مراكبهم، وغنم عمرو ما كان في المدينة».

والظاهر ان احتلال طرابلس وقع في اواخر سنة ٦٤٣/٢٢ أو اوائل سنة ٦٤٤/٢٣.

على ان هذا الفتح لم يعدُ كونه مقدمة. فان عمروا رجع إلى مصر بعد ذلك، وخلف على برقة عقبة بن نافع.

وولي عبدالله بن ابي سرح عمالة مصر بعد ابن العاص. ورغب الوالي الجديد في فتح افريقية ايضاً. فأذن له عثمان بن عفان فتقدم في سنة ٦٤٧/٢٧ وقاد حملة وصلت إلى اواسط تونس، ودامت نحو ١٤ شهراً (٢٧ ـ ٦٤٧/٢٨ ـ ٦٤٨).

ويمكن القول اجمالاً ان هذه الحملة حققت ما يلي:

أولاً: إنها احتلت سبيطلة (في أواسط تونس) وهو الحصن الذي لجأ إليه غريغوريوس حاكم افريقية، ليتحصن ضد حملة ابن ابي سرح لما بلغه خبرها.

ثانياً: يبدو ان غريغوريوس قتل في هذه الأثناء، سواء أكان ذلك اثناء الحصار على سبيطلة أم في مناسبة أخرى. وفي هذا الأمر ما ضعضع المقاومة الافريقية.

ثالثاً: غنم العرب كثيراً في هذه الحملات. فقد وصلوا إلى نواحي المنطقة بأجمعها، ونالوا من أهلها الكثير من الخير. وقد كان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل الف دينار، هذا بعد ان خمست الثروة.

رابعاً: عقد عبدالله صلحاً مع الروم على أن ينصرف عن بلادهم لقاء مبلغ روي أنه كان نحو ميلونين ونصف المليون من الدنانير. وبذلك حملت أخبار النصر إلى المدينة أخبار ثروة كبيرة ضمت إلى بيت المال.

وقد علق الدكتور حسين مؤنس على هذه الحملة بقوله: «لم يوفق عبدالله بن سعد فيما قصد إليه من فتح إفريقية، ولم تزد حملته على غارة طال أمدها وكثرت أحداثها، ولكنها انتهت دون أن تخلف وراءها أثراً كبيراً. ولعل الرجل أحس بعد سبيطلة أنه غير مستطيع فعل شيء بعد ذلك الا اذا وصلته امدادات جديدة يستطيع تثبيت الفتح بها. فلما تأكد أن عثمان لم يستطع أن يمده بما يريد بعد أن سكت عنه هذا الزمن الطويل، أحب ان يتراجع بانتظام، وكان يخشى الخشية كلها أن يقوم انسحابه حجة عليه وعلى عثمان في نظر العرب، فاشتط في طلب المبلغ الذي يدفع إليه لكي يحمل إلى المدينة مبلغاً طائلاً من المال يدل به على أن الحملة وفقت أعظم توفيق، فلما أجابه الأفارقة إلى ما طلب عجّل بالعودة وهو آمن نقد الناس، واثق من ان جنده سيرضون عنه ويلقون في روع العرب ـ بعد عودتهم ـ أن حملة أفريقية كانت من أعظم الحملات وأوفرها غلة».

٢ ـ عقبة بن نافع في شمال افريقية

في سنة ٦٦٥/٤٤ أنتدب معاوية بن أبي سفيان (وكان قد تولى الخلافة، واستقرت له الأمور) معاوية بن حديج لقيادة الفتوح في أفريقية. وفي السنة التالية قاد الرجل جنده من برقة إلى تونس، وكانوا عشرة آلاف، ثم اتجه إلى بنزرت، فاحتل حصنها. لكن حملة ابن حديج لم تكن ذات قيمة خاصة. فالرجل أراد أن يعيد الحرب في أفريقية جذعة في سبيل احتلال البلاد والتوسع فيها، لكن الواقع أن الحملة «لم يكن لها نتائج تذكر، ولم تكن خطوة لاتمام الفتح الاسلامي للبلاد، وانما كانت غارة طالت بعض الطول، استولى العرب فيها على مدينتين قليلتي الأهمية ثم تخلو عنهما وعادوا... كان معاوية يؤثر السهل من الفتوح، فيتجنب كبار المسالح والمعاقل ليهاجم صغارها، ولهذا لا يبعد ان يكون اكتفى بذلك ثم عاد، دون سبب معقول من غير أن يخلف في البلاد اثراً يذكر».

والواقع أن كل هذا الذي حدث من فتح منذ أن جاء عمرو بن العاص برقة وطرابلس، حتى عودة معاوية بن حديج من تونس، انما كان مقدمة للفتح العربي لشمال أفريقية، الأمر الذي قام به عقبة بن نافع في نهاية الأمر.

وعقبة بن نافع كان قد تركه عمرو بن العاص على برقة، وظل هناك وقتاً طويلاً. والراجح انه رجع مع عبدالله بن ابي سرح. لكن عمرو بن العاص، وقد ولي مصر للأمويين، وكان يعرف عقبة وجهاده ومقدرته وبلاءه، ارسله في بعث سنة ٦٦٢/٤١، فاستولى على لواته للمرة الثانية، وأحتل كوراً من كور السودان.

وكانت وفاة عمرو بن العاص سنة ٦٦٥/٤٤، وعندما اراد الخليفة الأموي الأول (معاوية) أن يكافىء رجاله وأنصاره، فتجاوز عقبة بن نافع إلى معاوية بن حديج. لكن لما فشلت محاولة ابن حديج في القيام بعمل حاسم في سبيل الفتح، عاد الخليفة إلى عقبة فبعث إليه يأمره بالمسير إلى أفريقية ويمده بالجند، ويبدو ان عقبة ضم إلى الجيش المسلمين من البربر.

ولنؤكد على القارىء هنا أن عقبة بن نافع كانت له حملتان كبيرتان في شمال افريقية: الأولى وقعت سنة ٦٦٩/٤٩ والثانية جاءت بين سنتي ٦٠ و٦٧٩/٦٣ و٦٨٢.

الحملة الأولى (٤٩ ٦٦٩) ـ خرج عقبة في شتاء ذلك العام إلى المغرب واتجه نحو ودان وجرمه (في فزان) فأخضعهما وافتتح قصور فزان. ولكنه لم يأخذ معه جيشه

كاملاً. وبعد خمسة شهور من هذا الغزو المستمر عاد إلى حيث كان الجيش مقيماً، يستريح ويستجم. ومن هناك قاد الجند غرباً، وبعث البعوث إلى جهات مختلفة، فافتتح قفصه وقسطيلية وغدامس ثم اتجه نحو القيروان.

وقد «اتخذ عقبة طريقه في داخل البلاد مباعداً الساحل، وقد لزم هذه الخطة في كل أعماله ـ سواء في هذه الغزوة أو فيما بعدها ـ وربما كان دافعه إلى ذلك ايثاره الابتعاد عن الأقليم الساحلي المليء بالحصون والمحارس وتفضيله الطريق الداخلي المقفر الذي لا تكون فيه الا مقاومة ضئيلة من القبائل البربرية وسكان الواحات. ولا نزاع في أن عقبة لم يكن على الصواب دائماً في التزام هذه الخطة وتجنب غيرها، لأنها جعلت من غزواته مغامرات قليلة الجدوى، لقلة ما فتح أثناءها من مدائن البلاد الكبرى وحصونها المهمة، وذلك على الرغم مما كان جنوده يلقون من متاعب المسير في هذه النواحي القاحلة».

سار عقبة متنقلاً بين أقاليم الواحات التي لقيها في طريقه مثل غدامس وقسطيلية ومن ثم أفضى إلى أفريقية فاتجه رأساً إلى موضع قمونية الذي كان معاوية ابن حديج قد عسكر فيه قبله، فوقع اختياره عليه ليقيم فيه المدينة التي كان قد عقد العزم على بنائها...

«لم يكن أهل أفريقية يتوقعون مجيء العرب اذ ذاك، فلم يتخذوا الحذر ولم يلجأوا إلى حصونهم كما عهدناهم في الغزوات السابقة، فدهمهم عقبة، وأصاب منهم كثيراً».

وقد توج عقبة بن نافع هذه الحملة الأولى بأن اختط القيروان وبناها.

وكان عقبة بن نافع يعرف المنطقة معرفة جيدة. فقد عاش وقاتل وتنقل وقاد البعوث، واتصل بالناس، الأصدقاء منهم والخصوم. كان يدرك ان القتال في شمال أفريقية لا يمكن أن يعتمد على قاعدة أساسها مصر أو حتى برقة. اذ تصبح عندها خطوط المواصلات طويلة، ويتعذر على عقبة أو غيره من القواد ان يزودوا بحاجتهم من الرجال والمال والمؤن. وأدرك عقبة بثاقب بصره أن قاعدة القتال يجب ان تنقل إلى الأراضي التونسية. لكن عقبة كان يعرف ان الدولة الجديدة لم تكن دولة بحرية، وأن الروم، وهم أصحاب اسطول، كانوا يستطيعون دوماً إزعاج البحرية. ومن هنا نجد أن عقبة بن نافع يختار مكان مدينة القيروان ليقيم فيه قاعدة حربية ويمصر فيه مدينة لا تزال قائمة إلى الآن.

ونحن عندما ندرس موقع هذه المدينة حالياً، ونعود إلى شيء من تاريخ اسلافها قبل انشاء عقبة لها، يمكننا أن نلاحظ الأمور التالية بشأنها:

(١) انها تقوم في مركز تقاطع خطوط وطرق من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب.

(٢) انها تقع في مكان خصب فيه ماء. حتى لقد جاء في ابن الحكم عند ذكرها انها كانت «وادياً كثير الشجر والعطف تأوي إليه السباع والوحوش والهوام». ولعلّ هذا كان على مقربة منها.

(٣) ان هذه المنطقة، على ما يحدثنا الجغرافيون العرب، كانت كثيرة الأمصار والقلاع والحصون أيام البزنطيين. ولعل حصن قمونية أُهمل فتخرب، لكن قيمة هذا المكان لم يغفل عنها عقبة. فبنى قيروانه هناك.

(٤) يبدو ان معاوية بن حديج كان قد اختط شيئاً من ذلك هناك، ولكن عقبة لم يقتنع بذلك. ولعلّ المكان الأول لم تتوفر فيه شروط القاعدة العسكرية لخط الدفاع والمواصلات على ما اراده عقبة.

اختط عقبة المسجد ثم دار الامارة ثم بيوت الجند. وتطورت القيروان ونمت فيما بعد. لكن عقبة أنفق الكثير من المال والوقت. فقد أرادها أن يكون فيها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم في مـأمن من ثورة أو انقضاض. يضاف إلى ذلك أن كل المحاولات السابقة في الفتوح إنتهت إلى لا شيء، لأن الفاتحين لم يتخذوا لهم في تلك البلاد داراً. ويروى عن عقبة أنه قال لجماعته عن أهل أفريقية انهم يتحرمون بالأسلام اذا دخل بلادهم الإمام، فاذا خرج منها رجع من كان أسلم. أما بعد بناء القيرون، فلم يحدث مثل هذا.

ونود أن ننقل هنا رأي أحد كبار المؤرخين الغربيين في اختيار القيروان. قال «وكان اختيار المكان موفقاً بل بلغ من التوفيق في اختياره ان ولاة المغرب ومن خلفهم من الحكام المستقلين أقاموا بها زماناً طويلاً، ولم ينتقلوا عنها الا حينما اضطرتهم ظروف سياسية جديدة إلى ذلك. كما كان موقعها الحربي معروفاً ملحوظ الأهمية، اذ كان الحاكم الذي يتخذ هذا الموضع مركزاً لأعماله يستطيع ان يرى العدو من بعيد ويتحرز من الغارات المفاجئة الكثيرة الحدوث عند البربر. واذا اراد أن يطاردهم إلى هضابهم وجد الطريق مفتحة أمامه، اذ كان يستطيع بعد مسير بضع ساعات الوصول إلى أعالي الهضاب... ومن أعالي الهضاب كان يستطيع الاشراف على ما يجاورها، فيتيسر له حكمها اذا كانت لديه القوة الكافية لذلك. كذلك كان فرسانه الخفاف قديرين على أن يقوموا بهذا النوع من أعمال الاستطلاع وبالغارات السريعة والحراسة الدائمة».

وتلا انشاء القيروان فترة لم يكن فيها عقبة فاتحاً ولا غازياً. وقد زار دمشق اثناء ذلك. ثم عاد إلى عملية الفتح في تلك الحملة التي أوصلته إلى المغرب الأقصى وكان ذلك بين ٦٠ و٦٣/٦٧٩ و٦٨٢. على أننا يجب أن نذكر أن أبا المهاجر عمل قبيل ذلك على فتح المغرب الأوسط.

حملة عقبة الثانية (٦٠ ـ ٦٣/ ٦٨٠ ـ ٦٨٢): أُعيد عقبة إلى ولايته على أفريقية

في خلافة يزيد بن معاوية. فعاد إلى القيروان فأصلحها وأعاد الناس إليها، بعد أن كان كثيرون منهم قد هجروها. ثم أسرع في نحو خمسة عشر الف محارب متجهاً نحو المغرب الأقصى.

كان عقبة متحمساً مندفعاً وكان متعجلاً الفتح، ومن هنا يرى بعض المؤرخين أن الرجل ارتكب اخطاء تكتيكية وإستراتيجية كبيرة أدت إلى تنفير بعض السكان من الفاتحين. لكن الذي يشفع لعقبة صفاء نيته واخلاصه للايمان والدين. فان كان قد اخطأ، فقد اجتهد اجتهاداً خالصاً لوجه الله.

خرج من القيروان إلى باغاية، فأشرف عليها، ولكنه لم يرد أن ينفق فيها قوة رجاله، فتركها واتجه نحو بليش (لمبيزة) متخذاً طريق السهل، حتى وصل إلى الزاب. والزاب منطقة كثيرة الزروع والعمران، كثيرة القرى التي قدرت بنحو ثلاثمئة. يقول ابن الأثير «فسار [عقبة] إلى بلاد الزاب وهي بلاد واسعة فيها عدة مدن وقرى كثيرة. فقصد مدينتها العظمى واسمها أرية فامتنع بها من هناك من الروم والنصارى، وهرب بعضهم إلى الجبال. فأقتتل المسلمون وممن في المدينة من النصارى عدة دفعات. ثم انهزم النصارى، وقتل من فرسانهم، ورحل إلى تاهرت».

ويبدو من دراسات المؤرخين الذين تابعوا الفتوح في المغرب أن الروم عادوا في ذلك الوقت إلى الاهتمام جدياً بالمنطقة، كما ان النصارى من البربر اشتد ساعدهم. لذلك كانت المقاومة أكبر مما ظن عقبة. ولعلّ هذا ما كان يحمل عقبة على تجنب المدن المحصنة. وهذا ما يفسر ايضاً قيام أهل البلاد بأعمال منظمة لاحباط حملة عقبة من مثل ردم مناهل الماء خلف جيشه، لقطع طريق العودة عليه.

ولما وصل عقبة إلى تاهرت وجد مقاومة عنيفة هناك، لكنه فرَّق جموع الروم عن المدينة وقتل من المقاومين جماعة كبيرة، ثم رحل إلى طنجة. وكانت طريقه تحاذي جبال الريف إلى جنوبها، وبذلك تجنب المناطق المحصنة.

وتقدم صاحب طنجة من عقبة بهدية حسنة ونزل على حكمه، فتركه القائد وشأنه، واتجه جنوباً ماراً بزرهون، أو على أطرافها، متجنباً منطقة الغرب الساحلية، حتى انتهى إلى أراضي درع، ثم اتجه إلى السوس، حيث «أشرف بجنده على المحيط الأطلسي، بل أوقف فرسه في مياهه وأسف لعجزه عن اجتيازه، ثم انقلب بعد ذلك عائداً أدراجه ليعود إلى القيروان».

عاد عقبة، على ما يرى المؤرخون، بطريق السهل ماراً بوادي ملوية، فلما أدرك الهضبة بدا له ان البربر قد أجمعوا أمرهم على قتاله، وكانوا بقيادة كسيلة. وكانت الغالبة من جيش عقبة قد تفرقوا في جهات أخرى. والتقى الجمعان أخيراً عند حصن تهودة القديم. وهذه الواقعة الأخيرة صفحة جليلة من صفحات الاستشهاد، خلَّد المحاربون والتاريخ ذكرها.

«ودارت الموقعة الأخيرة على مقربة من تهودة، وأدرك عقبة وأصحابه انهم هالكون لا محالة، واحتاط بهم الاعداء ولم يبق لهم مهرب، فرحب عقبة وأصحابه بالموت واستقبلوه في شجاعة جديرة بالذكر والإعجاب، وجعلوا يتنازعون فخر الاستشهاد، فلما رأى المهاجر ذلك تمثل بقول أبي محجن الثقفي:

كفى حزناً أن ترتدي الخيل بالقنا واترك مشدوداً على وثاقيه
اذا قمت عناني الجديد وأغلت مصارع من دوني تصم المنادية

فبلغ عقبة ذلك فأطلقه فقال له: «الحق بالمسلمين وقم بأمرهم. وأنا اغتنم الشهادة»، فلم يفعل وقال: «وأنا آيضاً أريد الشهادة»! فكسر عقبة والمسلمون اجفان سيوفهم وتقدموا إلى البربر وقاتلوهم، فقتل المسلمون جميعهم ولم يفلت منهم أحد وأسر محمد بن أوس الانصاري، فخلصهم صاحب قفصه وبعث بهم إلى القيروان، وهكذا كانت خاتمة عقبة وأصحابه استشهاداً جليلاً خلد ذكرهم.

وجاء بعد عقبة حسان بن النعمان الذي أتم العمل. وهكذا فإن العمل الذي قام به عمرو بن العاص ومعاوية بن حديج وعقبة بن نافع وأبو المهاجر وحسان بن النعمان هو الذي أدى إلى فتح القسم الأكبر من تلك الديار. وان كان الأمر لم يستتب يومها، بل احتاج إلى كثير من الوقت.

القسم الثاني

تراجِم مغربيَّة

ابن رشيق (٣٨٥ ـ ٩٩٥/٤٥٦ ـ ١٠٦٤)

شاعر تونس الصدّاح، وناقد العرب الأول، وكاتب فذ من كتابهم. قال عن نفسه، في آخر كتابه المسمى بالانموذج «صاحب الكتاب هو حسن بن رشيق، مولى من موالي الازد، ولد بالمحمدية سنة تسعين وثلاثمائة، وتأدب بها يسيراً، وقدم إلى الحضرة [أي القيروان] سنة ست واربعمائة، وامتدح سيدنا، خلد الله دولته». واضاف ياقوت الحموي، وهو ناقل هذه الرواية، معرفاً بابن رشيق قوله: «كان شاعراً اديباً نحوياً لغوياً حاذقاً عروضياً كثير التصنيف حسن التأليف».

هبط ابن رشيق القيروان، وكانت يومها دار علم وأدب وثقافة، وكان فيها بلاط المعز بن باديس، فاختلط الشاعر الشاب بأهلها وتتلمذ على أهل العلم والأدب فيها. فعرف هناك الحصري القيرواني الذي قال عنه ابن خلكان «وكان شباب القيروان يجتمعون عنده ويأخذون عنه ورأس عندهم وشرف لديهم. وسارت تأليفاته وانثالت عليه الصلات من جميع الجهات».

وكان ممن صاحبه ابن رشيق القزاز الذي أثر فيه لغوياً وعروضياً. وقد ذكر ابن رشيق شيخه القزاز في انموذجه فقال عنه: «ان القزاز فضح المتقدمين وقطع ألسنة المتأخرين. وكان مهيباً عند الملوك والعلماء وخاصة الناس، محبوباً عند العامة، قليل الخوض إلا في علم دين أو دنيا، يملك لسانه ملكاً شديداً. وكان له شعر مطبوع مصنوع، ربما جاء به مفاكهة وممالحة من غير تحفز ولا تحفل. يبلغ بالرفق والدعة، على الرحب والسعة، اقصى ما يحاول أهل القدرة على الشعر من توليد المعاني وتوكيد المباني، علما بتفاصيل الكلام وفواصل النظام... وكانت وفاته بالحضرة سنة اثني عشر واربعمائة، وقد قارب السبعين، رحمه الله تعالى».

وثمة أديب آخر تتلمذ له ابن رشيق في القيروان هو عبد الكريم بن ابراهيم النهشلي الذي أثر في شاعرنا ادباً ونقداً. وما اكثر ما يرد اسم النهشلي في العمدة لابن رشيق اذ كان كثيراً ما يرجع إلى آرائه في النقد. وقد روى ابن رشيق في باب عمل الشعر وشحذ القريحة عن عبد الكريم النهشلي قال: «وحدثني بعض اصحابنا من أهل المهدية، وقد مررنا بموضع بها يعرف بالكدية وهو اشرفها أرضاً وهواء، قال؟ جئت هذا الموضع مرة فاذا عبد الكريم على سطح برج هنالك قد كشف الدنيا فقلت: أبا محمد ما تصنع هنا؟ قال: ألقح خاطري وأجلو ناظري. فقلت: هل نتج لك شيء؟ قال:

ما تقر به عيني وعينك إن شاء الله، وأنشدني شعراً يدخل مسام القلوب رقة. قلت: أهذا اختبار منك اخترعته؟ قال: بل برأي الأصمعي، أي الرأي القائل ما استدعي شارد يمثل الماء الجارف والشرف العالي والمكان الخالي».

وقد عرفت القيروان كثيرين ممن تلقى ابن رشيق عنهم علمه وذوقه، ولن نستطيع تعدادهم جميعاً. ولكن لا بد من الاشارة إلى ابن أبي الرجال الكاتب. وقد قال ابن رشيق عنه: «زعيم الكرم وواحد الفهم، الذي نال الرياسة وحاز السياسة، وانفرد بالبسط والقبض واتحد في الابرام والنقض، عن سعي مشكور وفضل مشهور، وعلم بالموارد والمصادر، ونظر في الأوائل والأواخر، وتتبع لآثار من سلف من أهل القدر والشرف وتقلب في مجالس الحكم بين ذوي الاقدار والهمم، الى أن صار نسيج وحده وقريع دهره، غير مدافع عن ذلك ولا منازع فيه».

وابن أبي الرجال كان كاتب المعز بن باديس وصاحب الحول والطول في الدولة، ولذلك تقرب منه ابن رشيق، على أن ما قاله عنه يتفق وما نقله إلينا أصحاب التراجم عن مقام ابن أبي الرجال العلمي والأدبي.

أما القيروان التي جاءها ابن رشيق، وعب من مناهلها، فقد وصفها فيما بعد بقصيدة جاء فيها:

كم كان فيها من كرام سادة ... بيض الوجوه شوامخ الايمان
متعاونين على الديانة والتقى ... لله في الاسرار والإعلان
ومهذّب جمّ الفضائل باذل ... لنواله ولعرضه صوّان
وأئمّة جمعوا العلوم وهذّبوا ... سنن الحديث ومشكل القرآن
علماء ان ساءلتهم كشفوا العمى ... بفقاهة وفصاحة وبيان
واذا الأمور استبهمت واستغلقت ... أبوابها وتنازع الخصمان
حلوا غوامض كلّ مشكل ... بدليل حقّ واضح البرهان
هجروا المضاجع قانتين لربّهم ... طلباً لخير معرّس ومغان
واذا دجا الليل البهيم رأيتهم ... متبتلين تبتّل الرّهبان
كانت تعد القيروان بهم اذا ... عدّ المنابر زهرة البلدان
وزهت على مصر وحق لها كما ... تزهو بهم وغدت على بغدان
حسنت فلما أن تكامل حسنها ... وسما اليها كل طرف ران
وتجمّعت فيها الفضائل كلها ... وغدت محلّ الأمن والايمان

وفي بلاط المعز بن باديس لقي ابن رشيق ما كان يؤمل فيه ويطمع اليه من رعاية واطمئنان وعطف. فاخلص لصاحب السلطان، فتغنى بمديحه، وانصرف إلى الشعر يتطارحه ويقوله؛ ويدرسه ويعين له مذاهبه وينظمه ويبين أساليبه ويوضح قواعد نقده،

فوضع «العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده»، و«قراضة الذهب وانموذج الزمان في شعراء القيروان».

والعمدة عرض فيه صاحبه إلى ما قاله من قبله في الشعر وما له وما عليه، ورأى الناس يقدمون فيه ويؤخرون ويقلون ويكثرون، فعمق النظر في الأمر، ووضع كتاباً تناول فيه نقد الشعر عموداً ولفظاً وأسلوباً ومعنى ومبنى. وقد وصف ابن رشيق كتابه بقوله «فجمعت أحسن ما قاله كلّ واحد منهم في كتابه، ليكون (العمدة، في محاسن الشعر وآدابه)، ان شاء الله تعالى. وعولت في أكثره على قريحة نفسي، ونتيجة خاطري، خوف التكرار، ورجاء الاختصار، إلا ما تعلق بالخبر، وضبطه الرواية، فإنه لا سبيل الى تغيير شيء من لفظه ولا معناه، ليؤتى بالأمر على وجهه، فكل ما لم أسنده إلى رجل معروف باسمه، ولا أحلت فيه على كتاب بعينه، فهو من ذلك، إلا ان يكون متداولاً بين العلماء، لا يختص به واحد منهم دون الآخر، وربما نحلته أحد العرب، وبعض أهل الأدب، تستراً بينهم، ووقوعاً دونهم، بعد أن قرنت كل شكل بشكله، ورددت كل فرع إلى أصله، وبينت للناشىء المبتدىء وجه الصواب فيه، وكشفت عنه لبس الارتياب به، حتى أعرف باطله من حقه، وأميز كذبه من صدقه».

ولعلنا لا نعدو جادة الصواب ان نحن نقلنا رأي المؤلف في اللفظ والمعنى وارتباط الواحد منهما بالآخر من حيث علاقتهما بالشعر. يقول ابن رشيق: «اللفظ جسم وروحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم: يضعف بضعفه، ويقوى بقوته، فإذا سلم المعنى واختلّ بعض اللفظ كان نقصاً للشعر وهجنة عليه، كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشلّل والعور وما أشبه ذلك، من غير أن تذهب الروح، وكذلك ان ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ، كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح، ولا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ، وجريه فيه على غير الواجب، قياساً على ما قدمت من أدواء الجسوم والأرواح، فإن اختل المعنى كله وفسد بقي اللفظ وأتى لا فائدة فيه، وان كان حسن الطلاوة في السمع، كما أن الميت لم ينقص من شخصه شيء في رأي العين، الا أنه لا ينتفع به ولا يفيد فائدة، وكذلك ان اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى، لأنا لا نجد روحاً في غير جسم البتة».

وشاعرنا مدح المعز بن باديس في القيروان، فمن ذلك قصيدة يصف فيها منظرة أنيقة بناها المعز في منزله بصبرة جاء فيها قوله:

ذمّت لعينك أعين الغزلان	قمر أقر لحسنها القمران
ومشت فلا والله ما حقف النقا	مما أرتك ولا قضيب البان
وثن الملاحة غير ان ديانتي	تأبى عليَّ عبادة الأوثان
يا ابن الأعزة من أكابر حمير	وسلالة الاملاك من قحطان
من كل ابلج آمر بلسانه	يضع السيوف مواضع التيجان

ومن قوله في رثاء المعز:

أمـا لئن صح مـا جـاء البـريد به ... ليكثـرّن من البـاكـين اشـيـاعي
مـا زلت أفـزع من يأس ومن طمع ... حـتى ترفّع يأسي فـوق اطمـاعي
فـاليـوم انفق كنز العـمـر أجـمـعـه ... لمـا مـضى واحـد الدنيـا باجـمـاع

وكانت لابن رشيق، وهو الشاعر الرقيق، مجالس أنس وطرب قال فيها شاعرنا الكثير الكثير من الشعر الانيس. فمن ذلك وصفه ليلة من العمر:

ومن حـسنات الدهر عندي ليلة ... من العـمـر لم تتـرك لأيامـهـا ذنبـا
خلونا بهـا ننقي القـذا عن عيـوننا ... بلؤلـؤة مـمـلوءة ذهبـاً سكبـا
وملنا لتـقـبـيل الثـغـور ولثـمـهـا ... كـمـيل جناح الطيـر يلتـقط الحـبـا

واجتاحت العربان ـ بنو هلال واحلافهم ـ تونس، ودمرت القيروان فيما دمرت، ورحل المعز عن القيروان إلى المهدية، ولحق به ابن رشيق فيمن لحق. يقول شاعرنا في ذلك «ومن قصيدة صنعتها بديهة ساعة وصولي إليه ـ ادام الله عزه ـ عن اقتراح بعض شعراء وقتنا هذا:

وذيـال لـه رجـل طـحـون ... لمـا نـزلت بـه ويـد زجـوج
يطيـر بأربع لا عـيـب فـيـهـا ... لظهـران الصـفـا منهـا عـجـيـج
خـرجت به الاوهام سـبـقـا ... وقـل لـه عـن الـوهـم الـخـروج
إلى الملك المـعـز أبي تمـيـم ... أمـر بمن سـواه فـلا أعـيـج

وأصاب القيروان الكثير من النوازل والمصائب، فدكت فيها العروش، وغربت عنها الشموس، وازهقت فيها النفوس، وحز المصاب في نفس ابن رشيق وآلمه، فسجل ذلك في قصيدة طويلة منها:

حـتى اذا الأقـدار حمّ وقـوعـهـا ... ودنـا القـضـاء لمـدّة واوان
أهدت لهـا فـتـا كليل مظلم ... وأرادهـا كـالنّـاطح لعـيـدان
بمـصـائب من فـادع وأشـائب ... مـمّن تجـمّع مـن بني دهمـان
يستصرخون فلا يغاث صريخهم ... حـتّى اذا سـئـمـوا من الارنان
بادوا نفـوسـهم فلمّـا أنفـذوا ... مـا جـمّـعـوا من صـامت وصـوان
واستـخلصـوا من جوهر ومـلابس ... وطـرائـف وذخـائـر وأوان
خـرجـوا حـفـاة عـائذين بربّهم ... من خـوفـهـم ومـصـائب الالوان
هـربوا بكلّ وليـدة وفطيـمـة ... وبـكـلّ أرملـة وكلّ حـصـان
وبكل بكر كـالمـهـاة عـزيزة ... تسـبـي العـقـول بطرفـهـا الفـتـان

خود مبتلّة الوشاح كأنها قمر يلوح على قضيب البان
والمسجد المعمور جامع عقبة خرب المعاطن مظلم الأركان
قفر فما تغشاه بعد جماعة لصلاة خمس لا ولا لأذان
بيت به عبد الإله وبطلّت بعد الغلوّ عبادة الأوثان
بيت بوحي الله كان بناؤه نعم البنا والمبتنى والباني
أعظم بتلك مصيبة ما تنجلي حسراتها أو ينقضي الملوان

قام شاعرنا في المهدية، في ظل المعز بن باديس لكن على بعد، فالملك لا يتسع وقته للشعر والشعراء والمصائب تحل بالبلاد تترى. ولعلّ أجمل ما قاله الشاعر ابن رشيق رثاءه للمعز ومدحه لابنه تميم. لكن ابن رشيق ادرك ان ايامه هناك آلت إلى نهاية، وان القصر لم يعد له فيه مطمع، بل ان أمر الدولة كله إلى زوال. فعبر البحر، وهو يكره عبور البحر، إلى صقلية، حيث احتضنه ابن مطكود صاحب مازر. وكان خدن ابن رشيق وصديقه ابن شرف قد سبقه إلى بلاط المازري. وهناك عادت بين الشاعرين الصديقين مساجلات عرفت القيروان من قبل اصداءها، وامتدت بينهما منافرات كان يثيرها من قبل من يحب ان يرى بين الشاعرين ابراماً ونقضاً. إلا ان بعض الاخوان عز عليهم ان تنجح السعاية بين الصديقين، فجاؤوهما وقالوا لهما «انتما علما الاحسان وشيخا أهل القيروان، وقد اصبحتما بحال جلاء وبين الاعداء، والاشبه بكما إلا تقرباً اديمكما، ولا تطعما الاعداء لحومكما». وهكذا عاد الصفاء والسماح بينهما. لكن ابن شرف لم يلبث ان انتقل إلى الاندلس، وحاول ان يغري ابن رشيق باللحاق به، فأبى هذا، وظل في مأزق حتى توفي سنة ثلاث وستين واربعمائة.

وفي المهدية وضع ابن رشيق «قراضة الذهب» وهو كتاب في السرقات والمفارقات الشعرية. كما وضع كتابه «انموذج الزمان في شعراء القيروان». والذي يبدو لنا ان ابن رشيق اشفق على اولئك الذين عرفهم في بلده شيوخاً وزملاء وطلاباً ان تضيع اخبارهم بعد ان دمرت المدينة، فوضع لهم سجلاً مقتضباً لحياتهم ونماذج لشعرهم، واشترط على نفسه إلا يضمن الكتاب الا ما رواه عنهم شخصياً. والكتاب لم يصل إلينا كاملاً. لكن الرواة من بعده، كابن فضل الله العمري وغيره حفظوا اجزاء منه واخباراً، وبذلك استطعنا ان نتعرف إلى ناحية أخرى من نواحي تفكير هذا الشاعر.

وها نحن نقدم واحداً من فصول الانموذج، وهو ابن أبي حديدة. قال ابن رشيق:

«احمد بن القاسم بن ابي الليث المعروف بابن ابي حديدة التميمي.

«شاعر فكه الشعر. رائق التشبيه. مولع به. قليل التكلف قوي المنهج والظرف. رفض المدح والهجاء. يحبر التصنيع تحبيراً جيداً. ولا يركبه إلا في الأماكن التي تصلح له. كما شرط بحذاق المتقدمين.

«وتذاكرت معه فيما قيل عن دنو السحاب. فعرض لنا قول محمود ابن الحسين

كشاجم في وصف سحابة:

دنت من الأرض على كـــلالهـــا كـــأنهـــا تســـألهـــا عن حـــالهـــا

«فقلت لو أشار إلى العناق لكان أوصف. فأنشدني في الغد من قصيدة:

يا رب مـــثـــقلة تنوء بحـــملهـــا تســـقي البـــلاد بوابل غـــيـــداق
مـرت فـويق الأرض تسـحب ذيلهـا والـريـح تحـــملهـــا على الأعـناق
ودنت فكاد التـرب ينهض نحـوها كنهـوض مـشـتـاق إلى مـشـتـاق
فكأنمـــا جـــاءت تقـــبل أرضـــه أو حـــــاولت مـنـه لطـيـف عـنـاق

ابن دِحْية ومطربه

من الظواهر الطريفة التي يلاحظها المتتبع للصلات الأدبية بين المغرب والمشرق هو رغبة المشارقة في التعرف إلى ما عند المغاربة، لذلك كان كثيرون من أهل الأدب الذين يزورون المشرق يطلب منهم اولو الأمر ان يدونوا أخبار بلادهم. فالحُميدي المؤرخ يزور بغداد فيكتب فيها« جذوة المقتبس في أخبار ولاة الاندلس»، ومعاصره ابن دِحْية يدون وهو في مصر «المطرب من أشعار أهل المغرب»، وعبد الواحد المراكشي يُطلب منه الكتابة عن بلده وهو في بغداد فيضع كتابه «المعجب في أخبار المغرب»، وأخيراً فإن «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» وضعه أبو العباس المقري في دمشق. ويمكن أن نعدد الكثيرين غير هؤلاء. وغايتنا في هذه المقالة هي هؤلاء الرسل الغيارى وهو ابن دحية الكلبي صاحب «المطرب من أشعار أهل المغرب».

ولد ابن دحية في أواسط القرن السادس للهجرة في سبتة على الراجح، أو في دانية في الأندلس على الاحتمال. وقد سمع في هذه الأخيرة وهو شاب ثم ولي قضاءها ولكنه ترك المدينة وترك الأندلس معها، وانتقل إلى مراكش فتلمسان فتونس ثم حج وكتب بالمشرق وبأصبهان وبالعراق وبنيسابور وعاد إلى مصر، حيث استقر إلى وفاته وقد بلغ السابعة والثمانين من عمره. واثناء إقامته بالقاهرة انضم إلى بلاط الملك الكامل الذي عهد اليه برياسة المدرسة الكاملية. وكان الرجل بصيراً بالحديث معتنياً بتقييده، كما كان حافظاً ماهراً حسن الكلام فيه، وله معرفة حسنة بالنسبة للفقه على مذهب مالك. وكان له من أسفاره وسمعاته وممارسته القضاء وتجاربه واختباره ثروة كبيرة نفعته في الأعمال التي تصدرها. إلى هذا كله كان له حظ كبير من اللغة والأدب. قال عنه العمري في «مسالك الأبصار» «وقف للاطلاع على كل ثنية، وهتف للاستطلاع بكل قضية، وقاد نافر اللغة حتى جعل الغريب قريباً، والحوشي ربيباً، وأتى بها إلى الحاضرة قسراً من باديتها، وقهراً لها في تأديتها، فعادت إلى الحسنى ورق كلامها، ودق حتى خفي إلمامها». وله رسائل حوشية كتبها لتدلّ على غزارة مادته، وانارة جادته، وقد اضربت عن ذكرها صفحاً، ولم اسمع لها صدحاً، لثقل وطأتها على الاسماع، وشدة منافرتها للطباع، كأنها كلام النائم، ونقيق الضفادع في الليالي العواتم، تظن انها ليست مركّبة من الحروف، ولا دالة على معنى معروف، على

ان له في آخر ما يخفّ، ولكنه مما لا يشف، ولا يندي رقه ولا يرفّ فلذلك ايضاً ألغيتها، وأعرضت عنها فما أردتها ولا ابتغيتها».

خلف لنا ابن دحية عدداً كبيراً من الكتب في الحديث والفقه والتاريخ والحديث. وكتاب «المطرب من أشعار أهل المغرب» وضعه ابن دحية استجابة لطلب الملك الكامل. وقد وصفه المؤلف بقوله: «فقد نثلث في هذا المجموع كنانة محفوظاتي في المعارف الأدبية... الا اني لم اقصد جمع ذلك على الترتيب، ولا سلكت فيه مسلكي المعهود في التبويب والتهذيب، بل استرسلت فيه مع الخاطر على ما يجود به ويسمح ويعن له ويسنح. فالناظر فيه يسرح في بساتين ويمرح في ميادين ويخرج من فن إلى فنون، والحديث ذو شجون».

هذا هو ابن دحية وهذا مطربه. فما الذي نقع عليه في المطرب؟

اخبار مقتضبة وسند مطول وشعر مروي مختار جميل وتعليق اخباري قد يكون في كلمات. والسند يشغل، في كثير من الاحيان، فسحة كبيرة، وقد يثقل علينا.

ولعلّ تدقيق ابن دحية في اسناده يرجع إلى رغبته في اظهار معرفة المغاربة ودقتهم وحرصهم على تسلسل الاخبار. كما يرجع إلى اهتمام ابن دحية في دفع التهمة عنه، وهي تهمة شاعت ضده في مصر، ولعلها كانت من نوع التهم التي كثيراً ما تعرض لها المغاربة الكبار اثناء اقامتهم في مصر. والراجح ان مثل هذه التهم كانت نتيجة غيرة وحسد.

فمن هذا الشعر الذي نقله ابن دحية في «المطرب» ابيات للسلطان المعتصم بالله يصف بركة ماء بناها. قال:

كأن انسياب الماء في صفحاتها ... حسام ثقيل المتن سلّ من الغمد
تقور بها فوّارة مستديرة ... لها مقلة زرقاء موصولة السهد
ادرنا بها كأساً كأن حبابها ... حباب سقيط الطّلّ في ورق الورد
لها في غدير الماء لالآء جمرة ... حكت نار ابراهيم في اللون والبرد

ومن لطيف ما نعثر عليه بيتان لأمة العزيز وهي اخت جده هما:

لحاظكم تجرحنا في الحشى ... ولحظنا يجرحكم في الخدود
جرح يجرح فاجعلوا ذا بذا ... فما الذي اوجب جرح الصدود

وكان ابن دِحيَة يتقص في جمعه الشعر المطرب فقط، فلم ينقل لنا شعر حزن أو مضض أو هم، وحتى شعر الوعظ قليل في مجموعته. اما شعراؤه وأدباؤه الذين يروي لهم فهم من جميع الطبقات الاجتماعية. كما أنه لم يتقيد من حيث اختياره للشعر، إلا بأن يكون فصيحاً جزلاً فيه دفقة.

يتحدث عن وزير اشبيلية وشاعرها المشهور أبي بكر محمد فيقول عنه، وقد كان

شيخاً من شيوخ ابن دحية، «والذي انفرد شيخنا به وانقادت طباعه، وأثارت النبهاء حوله واتباعه: الموشحات، وهي من الفنون التي أغريت بها أهل المغرب على أهل المشرق، وظهروا فيها كالشمس الطالعة والضياء المشرق»، فمن ذلك قوله:

سدلن ظلام الشعور على أوجه كالبدر

سفرن فلاح الصباح
هززن قدود الرماح
ضحكن ابتسام الاقاح
كأن الذي في النحور تخيّرن منه الثغور
سلوا مقلتي ساحر
عن السحر والساحر
وعن نظر حائر
يريش سهام الفتور ويرمي خبايا الصدور
لقد همت ويحي بها
وذلّل قلبي لها
أما والهوى أنها
لظبي كناس نفور تفار عليه الخدور
حرمت لذيذ الكرى
سهرت ونام الورى
ترى ليت شعري ترى
اساعات ليلي شهور ام حولي يدور
ظفرت بصّب كئيب
فنكّد وعذب وجور اسرف علامك صبور

وممن روى إبن دحيَة اخباره بشيء من التطويل يحيى بن حكم الغزال. فقد قال عنه إنه «القاعد على كيوان، شاعر ذلك الاوان، وقد اثبت له ما يشهد بإبداعه وحسن تصرفه في المعاني واختراعه، وطول يده في الأدب وامتداد باعه».

ويروي ابن دحية انه لما وفد على السلطان عبد الرحمن رسل ملك المجوس تطلب الصلح بعد خروجهم من اشبيلية، وإيقاعهم بجهاتها ثم هزيمتهم بها، وقتل قائد الأسطول فيها، رأى أن يراجعهم بقبول ذلك، فأمر الغزال أن يمشي في رسالته مع رسل ملكهم، لما كان الغزال عليه من حدة الخاطر، وبديهة الرأي، وحسن الجواب والنجدة والاقدام والدخول والخروج من كل باب، وصحبته يحيى بن حبيب، فنهض إلى مدينة شلب، وقد أنشىء لهما مركب حسن كامل الآلة، وروجع ملك المجوس على رسالته وكوفىء على هديته، ومشى رسول ملكهم في مركبهم الذي جاءوا فيه مع مركب

الغزال، فلما حاذوا الطرف الأعظم الداخل في البحر الذي هو حد الأندلس في آخر الغرب، وهو الجبل المعروف بألوية، هاج عليهم البحر، وعصفت بهم ريح شديدة وحصلوا في الحدّ الذي وصف الغزال في قوله:

قال لي يحيي وصرنا	بين موج كالجبال
وتولتنا رياح	من دبور وشمال
شقّت القلعين وانـ	بتت عرا تلك الحبال
وتمطى ملك المو	ت الينا عن حيال
فرأينا الموت رأي العيـ	ـن حالاً بعد حال
لم يكن للقوم فينا	يا رفيقي رأس مال

وهذا القصيد يجول عليه رونق الانطباع، وهو القريب غير المستطاع. ونقل ابن دِحية للغزال قصيدة فيها مديح:

من مبلغ عنّي إمام الهدى	الوارث المجد أباً عن أب
أنّي اذا أطنب مدّاحه	قصدت في القول فلم أطنب
لا فكّ عني الله ان لم تكن	أذكرتنا عن عمر الطيب
وأصبح المشرق من شوقه	اليك قد حن للمغرب
منبره يهتف من وجده	اليك بالسهل وبالمرحب
أطربه الوقت الذي قد دنا	وكان من قبلك لم يطرب
هفا به الوجد فلو منبر	طار لوافي خطفة الكوكب
إلى جميل الوجه ذي هيبة	ليست لحامي الغابة المغضب
لا يمكن الناظر من رؤية	الا التماح الخائف المذنب

ومن شعراء الاندلس الذين يروي ابن دحية لهم ابن عبدون شاعر بني عباد باشبيلية. فالرجل ظل مخلصاً للمعتمد بن عباد بعد نفيه من اشبيلية إلى اغمات قرب مدينة مراكش. فمن ذلك قصيدة طويلة لابن عبدون نجتزىء منها بعضها:

الدّهر يفجع بعد العين بالأثر	فما البكاء على الأشباح والصوّر
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة	عن نومة بين ناب الليث والظفر
فالدّهر حرب وإن أبدى مسالمة	والبيض والسود مثل البيض والسمر
فلا يغرّنك من دنياك نومتها	فما صناعة عينيها سوى السهر
كم دولة وليت بالنصر خدمتها	لم تبق منها وسل دنياك عن خبر
من للأسرة أو من للأعنة أو	من للأسنة يهديها إلى الثغر

من للظبا عوالي الخط قد عقدت أطراف ألسنها بالعيّ والحصر
من لليراعة أو من للبراعة أو من للسّماحة أو للنفع والضرر
أو دفع كارثة أو ردع رادفة أو قمع حادثة تعيى على القدر
أين الجلال الذي عضّت مهابته قلوبنا وعيون الأنجم الزّهر
أين الاباء الذي أرسوا قواعده على دعائم من عزّ ومن ظفر
أين الوفاء الذي أصفوا شرائعه فلم يرد أحد منها على كدر
كانوا رواسي ارض الله مند نأوا عنها استطارت بمن فيها ولم تقر
كانوا شجى الدهر فاستهوتهم خدع هوى الخليفة يا لله في شرر

السلطان ابو حمو الزياني

بين الدول الاسلامية الهامة التي عرفها المغرب العربي دولة بني عبد الواد والدولة الزيانية التي قامت في تلمسان اوائل القرن العاشر. وكانت هذه الدولة بين حجري الرحى، يهاجمها الحفصيون ملوك تونس من الشرق ويطبق عليها بنو مرين من الغرب، وهي بينهما تدافع وتقاوم.

من ملوك هذه الدولة الكبار السلطان ابو حمو الثاني الذي تولى الحكم سنة ١٣٥٨/٧٦٠. وكان في تلمسان ايامه للملوك قصور زاهرة اشتملت على المصانع الفائقة، والصروح الشاهقة، والبساتين الرائقة مما زخرفت عروشه ونمقت غروسه وتناسبت اطواله وعروضه.

كان من عادة ملوك الزيانيين ان يحتفلوا بعيد المولد النبوي، حيث كان الاحتفال عيداً للأدب والشعر وإحياءً لذكرى النبي الكريم على أيدي هؤلاء الملوك. وقد وصل الينا وصف لأحد هذه الاحتفالات جاء فيه:

«وأطلت ليلة الميلاد النبوي على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم فأقام [أبو حمو الزياني] لها بمشور داره العلية مدعى كريماً وعرساً حافلة احتشدت لها الأم وحشر بها الاشراف والسوقة. فما شئت من نمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة ومشامع كأنها الاسطوانات القائمة على مراكز الصقر المموهة، والخليفة أيده الله صدر مجلسها ممتطئاً سرير ملكه. يسر الناظرين رواؤه ويثلج الصدور عزة، وتحار في كمالات خلاله النهى خفا فيه ملأ التجلة من قومه وأعيان الطبقات من أهل حضرة خلافته على مقاعد عينيها الاختصاص، ورتب بعضها فوق بعض المناصب تخالهم قطع الرياض النضرات قد اغضى الجلال من أبصارهم وخفضت المهابة من اصواتهم فلا تبصر الا جمالاً [ولا] تسمع إلا همساً. يطوف عليهم ولدان اشعروا اقبية الخز الملون، وبأيديهم مباخر ومرشات يغيم دخان عنبر تلك، المفغم للاناف، الجو فتمطر هذه الحفل وابلاً من ماء الورد المنسوب إلى نصيبين».

وقد نظم السلطان أبو حمو قصيدة لتلك المناسبة جاء فيها قوله:

والدار تغـــر بســـاكنهـــا	ويح المـــغـــرور بهـــا النهم
يا نفس خـــدعت بزخــرفــهـــا	كم ذا تغـــتـــر بهـــا وكم

يا رب ذنوبي قد عظمت   فأمنن بالعفو لمجترم
فالعفو إلا هي منك وان   الذنب وحقكن من شيمي
شأن المملوك الذنب   وشأن المولى العفو عن الخدم
اني بذنوبي معترف   والخوف اشد من الألم
يا رب اذا لم تعصمني   ما لي بذنوبي من عصم
كم اجني الذنب وتمهلني   وتقابل ذلك بالنعم
ولكم اعصيك وتسترني   يا ذا الافضال وذا الكرم
ما زلت بفضلك ترحمني   وتجود علي على القدم

كانت المدن المختلفة التي وقعت تحت نفوذ بني زيان تزخر بالصناعات والمتاجر. فتلمسان كانت ميناء تستقبل السفن الصغيرة، ولكن المدن القريبة منها، مثل وهران وهنين، كانت تصل إليها السفن الكبيرة. فكانت اسواق هذه الموانىء أماكن تتبادل فيها السلع وتتناقلها الايدي. وكان ثمة اشياء دقيقة الصنع كتلك الشجرة التي كانت بقصر احد الملوك الزيانيين وهي عجيبة مصنوعة من الفضة الواقعة على اغصانها تماثيل طيور مختلفة الاشكال والالوان تحاكي اشباهها الطيور الطبيعية. وكلها مصنوعة بحيل ميكانيكية لطيفة يعلوها صقر، فإذا نفخ في اصل الشجرة صوتت تلك الطيور كلها بأصوات على غرر نظرائها من الطيور حتى اذا تموج الهواء وبلغ إلى الصقر صوت فتتقطع لصوته جميع الأصوات. كما نقل الامام القرافي عمن شاهد هذه الشجرة بنفسه وسمع تغريد طيورها بحضرة السلطان بتلمسان.

ابو حمو الذي حكم في اواخر القرن الثامن للهجرة كان شاعراً أديباً، قلب القول على وجوهه وتفنن فيه شعراً، كما أتقنه نثراً. وقد حفظ لنا ابو زكريا يحيى بن خلدون، وهو اخو المؤرخ المشهور، كثيراً من شعر ابي حمو هذا لأن يحيى عاش في كنفه وتمتع بعطفه، وأرّخ للزيانيين، وخص ابا حمو بقسم من كتابه كبير طرزه بكثير من شعر السلطان، والشعر الذي قيل في السلطان. ولعلّ من ألطف ما قاله ابو حمو قصيدة طويلة وصف فيها ما كان عليه امره اذ كان مشرداً حتى عاد إلى عرش أبائه وبويع في ذلك. وها نحن اولاً نجتزىء مقطوعة من القصيدة التي اقل ما يقال فيها إنها قطعة من الشعر التجريبي التعبيري البليغ. قال السلطان:

قطعت الفيافي بالقلاص وانما   تجاب الفلى بالخف أو بالمناسم
وقد خلتها بين الرياح زوابعاً   تسابق في البيدا ظليم النعائم
مكحلة الاحقاد فيها هشاشة   مهملجة الاطراف سود المباسم
ومعها اسود الحرب تطوى بها الفلى   يرون المنايا بعض تلك المغانم
وخضت الفيافي فدفداً بعد فدفد   لنيل العلى والصبر اذ ذاك لازمى

وكم ليلة بتنا على الجـدب والطوى نـراقب نجم الصـبح في ليل عـاتم
على مـتن صـهـال اغـر مـحـجل مديد الخطى لم يخشْ صعب الصلادم
تسـربلت كـردوسـين من آل عـامـر ومن آل ادريس الشـريف بن قـاسم
رجـال اذا جـاش الوطيس تراهم اسـود الوغى من كل ليث ضـبـارم
وجـبت الفـيـافي بلدة بعـد بلدة وطوعت فـيـهـا كل باغ وباغم
وجـئت لارض الزاب تذرف ادمـعي لتـذكـار اطلال الربوع الطواسم
وشبكت شعـري فوق رأسي فلم أجد بهـا مـخـبـراً غـيـر الربى والمـعـالم
وجـاوزتهـا مـا بين هوج هجـائن رقـاق الهـوادي عـاليـات القـوائم
وجـزت بأرض ريغ راغت بأهلهـا ببلقـعـة قـفـر قـفـتـهـا عـزائمي
سـألت ربوع الدار فـيـهـا فلم اجـد بهـا مـعلمـا يأتي اليّ بعـالم
شـددت عـرى للنجع من كل جـانب وصـيـرتهـا مـثل الرياح الرواكم
تخـيلتـهـا مـثل القطا في مـسـيـرها وفـوق ذراها كل شـهـم وحـازم
وحـفت بنا الأبطال من كل جـانب يذكـرها عـهـد الهـوى بالصـمـاصم

كان ابو حمو يستعرض جيوشه بين الفينة والفينة. والجيش كان مهماً بالنسبة إلى ملك يهاجم من يمين وشمال. والجيش، كما يبدو من وصف احد هذه الاستعراضات، كـان منوع الكم والعـدد. يقـول احـد الكتّاب في اخبـار عـرض عـسكري جـرى سنة ١٣٦٥/٧٦٢:

«وفي شعبان من هذه السنة صدرت الاوامر العلية للقبيل الاعز وكافة القواد المذكورين بحشد العساكر إلى الحضرة الكريمة لتعرض بين يدي خليفة الله نصره الله. وفي اول شوال اجتمعت المحلات كافة بالبسيط الافيح من ظاهر الحضرة فجلس أمير المسلمين أيده الله تعالى لعرض جيوشه المظفرة في خباء مطل من أعلى هضبة على بسيط مستو اصطفت به الكتائب لا يحويها العد ولا تحيط بأقطارها الابصار من كل شاكي السلاح منحدب على قناة المنا، لا يعرف إلا سيفه ولا يستشير غير عزمه. قد أخذوا زينتهم تحسبهم الخمائل المزهرات من فوق الكثبان الهائلة وسط كل كتيبة فنيق جلد الوشي وخلخل اللجين يخطبه بسلسلة من الفضة غلمان لبسوا أقبية الخز الملون وعليه هودج مغشى بأنواع الحلل قدمنه برزت قينة يسبي جمالها وصقال ملبسها الناظرين فأمسكت بشجارة تغني بأشعار زناتية مما يهيج اريحيات الهم ويبعث حمايات النفوس. ثم زحفوا للسلام عليه دراكا من ضحى اليوم إلى غروب شمسه وحذاق الكتبة بين يديه الكريمتين يحصون جمل القبائل والشعوب وينوعون الرامح منها والنابل فكانت فذلكة حساب الجميع اثنا عشر الف فارس مرتزقة».

وكان في قصر ابي حمو ساعة ومنجانة وصفها احد المؤرخين بقوله:

«وخزانة المنجانة ذات تماثيل اللجين المحكمة، قائمة المصنع تجاهه [يعني السلطان]. بأعلاها أيكة تحمل طائراً فرخاه تحت جناحيه وبخاتله فيهما أرقم خارج من كوة بجذر الايكة صعداً، وبصدرها ابواب مجوفة عدد ساعات الليل الزمانية، يصاقب طرفيها بابان موجفان اطول من الأولى وأعرض فوق جميعها، ودوين رأس الخزانة قمر اكمل يسير على خط استواء سير نظيره في الفلك، ويسامت أول كل ساعة بابها المرتج، فينقض من البابين الكبيرين عقابان بفي كل واحد منهما صنجة صفر يلقيها إلى طست من الصفر مجوف بوسطه ثقب يفضي بها إلى داخل الخزانة فيرن. وينهش الأرقم احد الفرخين فيصفر له ابوه فهنالك يفتح باب الساعة الراهنة وتبرز منه جارية محتزمة كأظرف ما أنت راء، في يدها اليمنى اذبارة فيها اسم ساعتها منظوماً ويسراها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة لأمير المؤمنين، حيل احكمت يد الهندسة وضعها وأرض تدبير الخلافة أعلى الله مقامه شماسها».

ابن خلدون وتيمور

هذ ه قصة لقاء طريف: انه اجتماع بين اكبر مفكر في عصره وهو ابن خلدون، وأكبر فاتح في زمنه وهو تيمور. ولو كان تيمور فاتحاً فقط لما كان في الأمر غرابة، ولكنه كان إلى ذلك عنوان الهمجية في حروبه، فكم دمر ونهب وسلب وأزهق الأرواح.

في سنة ٨٠٣/١٤٠٠ وردت إلى مصر الاخبار بأن تيمور قد استولى على مدينة حلب فقتل من أهلها من قتل ودمر من بنيانها ما دمر وألقى الرعب في نفوس الذين لم يصلهم السيف، وانه متجه نحو دمشق. وعندها هرع السلطان فرج، سلطان المماليك، حكام ديار الشام ومصر، إلى دمشق للدفاع عنها، واصطحب معه من القضاة والفقهاء والصوفية عدداً كبيراً. وكان ابن خلدون قد جاء مصر قبل ذلك بنحو خمس عشرة سنة وعمل فيها مدرساً وقاضياً. لكن في ذلك الوقت كان معزولاً عن القضاء، ومع ذلك فقد أصر السلطان على أن يسير ابن خلدون معه إلى دمشق. ففعل تحت ضغط صاحب الأمر.

ولما وصلت الحملة إلى دمشق نزل ابن خلدون مع جماعة العلماء والفقهاء في المدرسة العادلية. وقد اشتبك الجند المملوكي مع جيش تيمور غير مرة، وبدأت مفاوضات الصلح بين الجيشين. لكن السلطان لم يلبث ان غادر دمشق اذ بلغه خبر مؤامرة ضده في مصر، وترك المدينة تحت رحمة تيمور.

وتحيَّر أهل دمشق في الذي يصنعونه في هذه القضية. فالعلماء والقضاة أرادوا تسليم المدينة اذ لا قبل لهم بالوقوف أمام تيمور وجيشه. أما نائب القلعة فلم يقبل بذلك. وخرج أخيراً القاضي الحنبلي ومعه جماعة من الفقراء إلى تيمور، فحصلوا منه على الأمان، على ان تسلم المدينة، ويسمح لنائبه بدخولها.

والظاهر أن بعض من في دمشق عاد فضلع مع الوالي، فحدث هرج في المدينة حول تسليمها. وهنا نترك لابن خلدون التحدث عما حدث بعد ذلك، فوصفه واضح، وروايته صريحة. قال: «وبلغني الخبر من جوف الليل. فخشيت البادرة على نفسي، وبكرت سحراً إلى جماعة القضاة عند الباب وطلبت الخروج أو التدلي من السور... فأبوا علي أولاً، ثم أصخوا لي، ودلوني من السور. فوجدت بطانة (تيمور) عند الباب... فحييتهم وحيوني... وقدموا لي مركوباً... أوصلني إليه. فلما وقفت بالباب خرج

الآذن... فاستدعاني؛ ودخلت عليه بخيمة جلوسه متكئاً على مرفقه... فلما دخلت عليه فاتحت بالسلام وأوميت ايماءة الخضوع، فرفع رأسه ومد يده إليّ فقبلتها، وأشار بالجلوس فجلست حيث انتهيت. ثم استدعى من بطانته الفقيه عبد الجبار بن النعمان من فقهاء الحنفية بخوارزم، فأقعده يترجم بيننا».

وبينما ابن خلدون عند تيمور جاء هذا الخبر بفتح المدينة وخروج القضاة وفاء بما زعموا من الطاعة. وكان بتيمور داء في ركبته يمنعه من المشي مسافة طويلة، فرفع إلى فرسه، وضربت الآلات وسار نحو دمشق فجلس عند باب الجابية ودخل اليه القضاة وأعيان البلد، فأقر كلا منهم في منصبه وأنعم عليهم. وظل نائب القلعة عاصياً فيها، فسلط تيمور عليها المجانيق والنفوط، فضاق الحصار بأهلها فطلبوا الأمان، فأمنهم. ثم انه خرب القلعة وطمس معالمها. لكن تيمور عاد فصادر أهل البلد. ويصف ابن خلدون ما فعله تيمور بالمدينة وأهلها فيقول: «ثم أطلق أيدي النهابة على بيوت المدينة، فاستوعبوا أناسيها وأمتعتها، واضرموا النار فيما بقي من سقط الأقمشة... فاتصلت النار بحيطان الدور المدعمة بالخشب، فلم تزل تتوقد إلى أن اتصلت بالجامع الاعظم، وارتفعت إلى سقفه، فسال رصاصه وتهدمت سقفه وحوائطه. وكان أمراً بلغ مبالغة في الشناعة والقبح».

وقد توالت زيارة ابن خلدون لتيمور في الشهرين اللذين قضاهما في دمشق، ودارت بين الرجلين أحاديث طريفة كثيرة نحن مضطرون إلى الاشارة اليها، دون تفصيلها.

لما عرف تيمور بأن ابن خلدون من المغرب، سأله عن بلاده وأخبارها، فقص عليه المؤرخ ما يعرف، فطلب منه تيمور ان يكتب ذلك، فكتبه له في كراسات. فلما رفع إلى تيمور أمر هذا بترجمته إلى اللغة المغولية. وفي احدى الزيارات عرض اسم بختنصر الملك الكلداني، فدارت حوله مناقشة بين المفكر والفاتح، قوامها ان الأول ذكر الحقيقة حوله اذ نسبه إلى الكلدان، لكن تيمور اراده أن يكون فارسياً. فلما لم يحصل على الموافقة سكت وفي نفسه بعض الغضب.

وجاء تيمور في ذلك الوقت رجل ادعى انه عباسي وأنه صاحب حق بالخلافة، فدعا تيمور العلماء والفقهاء وبينهم ابن خلدون ليسمعوا قضيته ويحكموا بها. وهنا اغتنم ابن خلدون الفرصة فتحدث عن قضية الخلافة والشيع والفرق حديثاً طويلاً كانت نتيجته مع حديث العلماء الآخرين، ان تيمور صرف المدعي على ان لا حق له بما ادعى.

وقد أراد ابن خلدون أن يأمن جانب تيمور، فمدحه في غير مناسبة واحدة، وأطرفه بهدية. وها نحن نترك ابن خلدون يصف ذلك، قال: «فدخلت عليه... فلما

رآني مقبلاً أشار عن يمينه... فجلست قليلاً ثم... أشرت إلى الهدية... وهي بيد خدامي فوضعتها... ففتحت المصحف فما رآه وعرفه قام مبادراً فوضعه على رأسه، ثم ناولته البردة [للبوصيري] فسألني عنها وعن ناظمها... ثم ناولته السجادة فتناولها وقبلها. ثم وضعت علب الحلوى بين يديه... فقسم هو ما فيها من الحلوى بين الحاضرين في مجلسه. وتقبل ذلك كله وأشعر بالرضى». وعندها اغتنم ابن خلدون الفرصة فطلب أماناً لنفسه ولبعض اصدقائه، فمنحه.

وهكذا تم هذا اللقاء التاريخي الطريف بين المفكر والفاتح.

المنصور الذهبي سلطان المغرب (٩٨٦ ـ ١٠١٢/١٥٧٨ ـ ١٦٠٣)

١

وليت الدولة السعدية شؤون المغرب قرناً ونصف القرن، من أوائل القرن العاشر إلى بعيد اواسط القرن الحادي عشر (من أوائل القرن السادس عشر إلى اواسط القرن السابع عشر). والأسرة عربية الأصل نزحت من ينبع النخل في الحجاز إلى المغرب واستقرت في منطقة درعة في جنوب المغرب، في القرن السادس الهجري. وهم إلى ذلك اشراف من ولد محمد ذي النفس الزكية.

كانت الدولة الوطاسية قد ضعف أمرها في المغرب في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي): ففي الجنوب فوضى لا ضابط لها، وفي بعض مدن المغرب الشمالي والأوسط من الوطاسيين امراء، والساحل اكثر مدنه كانت بأيدي البرتغاليين الذين تمكنوا في طنجة واصيلا وسبتة وأنفه ومزاغان وآسفي، وكانو قد أقاموا في فونتي (اغادير) ميناء وحصناً لهم. ويبدو أن السوس وأهله نالهم من الفوضى ومن تقدم البرتغاليين شر كثير. لذلك تنادى بعض من له كلمة مسموعة منهم إلى وجوب القيام بعمل يدفع عنهم الأذى. فعرضوا على الشيخ الصالح ابي عبدالله محمد بن مبارك الآقاوي أن يتولى أمرهم فيعقدوا له البيعة وتجتمع كلمتهم عليه. فامتنع لأنه لم يرد ان يخلط السياسة بأمور دينه، ودلهم على رجل فاضل من الاشراف هو محمد بن عبد الرحمن. فلما طلبوا ذلك منه قبل، وتولى أمرهم ٩١٦/١٥١١. فكان محمد، الذي تلقب بالقائم، أول السعديين. وظلت امارته فيهم إلى سنة ٩٢٣/١٥١٧.

ويبدو من أقوال بعض المؤرخين ان القائم وإبنيه كانوا يرقبون الأمور، ويرون ان الأمر يجب أن يعنوا به، اذ ان الهزال قد بلغ بالبلد درجة كبيرة، وقبل ان يقبل القائم بالرئاسة اجتمع إلى ابن مبارك الآقاوي طويلاً. وهكذا نرى ان هذه الدولة قامت، من أول الأمر بتأييد من زعيم صوفي كبير. فابن مبارك كان جزولياً. وهذه ظاهرة حرية بالاهتمام لمن يدرس تاريخ المغرب.

استقر القائم في تيدسي، وأخذ يجمع الشمل وينظم الأمور، ويقارع البرتغال، يساعده في ذلك ولداه أحمد الاعرج ومحمد الشيخ. فلما توفي القائم خلفه احمد، وكان ابوه قد جعله ولي عهده. واتخذ أحمد من أخيه محمد مشيراً ووزيراً. وكانت

للاثنين همة وقوة ونشاط، وكان اجتماع الرأي عندهما خيراً وبركة على البلاد. فاحتل الأعرج الجنوب المغربي وضم مراكش الحمراء، عاصمته، اليه (١٥٢٥/٩٣٩).

ولكن لم تلبث ان دخلت النفرة قلوب الاخوين، وفرَّق بينهما الوشاة، وانتهى الامر بينهما الى المصافة والمقاتلة، وانقسم الجند حزبين. واستفحل أمر محمد الشيخ بمساعدة أهل السوس، وانتصر على اخيه، فوضعه تحت الحراسة البيتية، واصبح محمد الشيخ ملكاً مستقلاً (٩٤٨ ـ ١٥٤١/٩٦٤ ـ ١٥٥٧).

وانصرف السلطان الجديد إلى مقارعة البرتغال من جديد، فاحتل حصني فونتي وآزتور وأقصى العدو عن تلك الجهات. وكان البرتغاليون قد أخذ اهتمامهم بتلك المنطقة يتناقص بعد أن صرفوا همهم إلى الهند والبرازيل، لذلك تخلوا هم عن بعض الموانىء المغربية الأخرى مثل آسفي واصيلا. فاعتبر ذلك «من سعد محمد الشيخ وبخته»، على ما يقول ابن القاضي. وخطط محمد الشيخ حصن أغادير، حيث كان حصن فونتي البرتغالي، وكان في نظرته إلى ذلك موفقاً.

ثم اهتم محمد الشيخ بفلول الوطاسيين ومؤيديهم. وكانت فاس مركز الثقل في حياتهم، حيث كان يقيم بو حسون الوطاسي. فقصدها السلطان محمد وحاصرها واحتلها، لكن الوطاسي فر إلى الجزائر، وظل هناك حتى حصل على نجدة تركية جاءت معه الى فاس وأعانته على احتلالها. لكن محمد الشيخ كان أقدر على الحصول على العون المحلي، فاسترد فاس من الوطاسيين نهائياً سنة ١٥٥٤/٩٦١. وكان الشيخ قد استولى على تلمسان أيضاً، فكان من نتيجة ذلك أن الاتراك أوغر صدرهم عليه، فاحتالوا عليه حتى قتلوه سنة ١٥٥٧/٩٦٤.

ومع ان محمد الشيخ احتل فاس، فقد احتفظ بمراكش عاصمة لدولته. ولعلّ السبب الأصلي في ذلك هو هذه الصلات الوثيقة التي أقامها محمد الشيخ مع أهل الجنوب المغربي طوال حياته، مع ان فاس كانت تعجبه حضارتها وتسره بما فيها من خفض عيش. فقد نقل الناصري عن قدامى المؤرخين قولهم «ولم يزل السلطان ابو عبدالله الشيخ يدور على مدن المغرب وأمصاره ويطيل الإقامة بفاس».

هذه الخصومة بين السعديين والاتراك استمرت مدة طويلة. وحري بالذكر ان الشاذلية كانت تؤيد السعديين في هذه الخصومة، كما كان المعسكر الوطاسي التركي يحصل على تأييد القادرية.

٢

فاذن، فقد تولى شؤون المغرب من الدولة السعدية إلى نهاية حكم محمد الشيخ ثلاثة: القائم واحمد الأعرج ومحمد الشيخ. وخلف الأخير ثلاثة الى ان ولي الأمر المنصور الذهبي. والثلاثة هم عبدالله الغالب بالله (٩٦٤ ـ ١٥٥٧/٩٨١ ـ ١٥٧٤) ومحمد ابن عبدالله المتوكل (٩٨١ ـ ١٥٧٤/٩٨٣ ـ ١٥٧٦) وأبو مروان عبد الملك

(٩٨٤ ـ ١٥٧٦/٩٨٦ ـ ١٥٧٨) ويمكن اجمال الاحداث والتطورات في عهد هؤلاء الثلاثة بما يلي:

(١) ظلت شواطىء المغرب الشمالية والشمالية الغربية موضع نزاع ومنافسة بين الاسبان والعثمانيين، كما كان للبرتغال، وقد تولى أمرهم سبستيان (١٥٥٧ ـ ١٥٧٨)، رغبة في استعادة نفوذهم هناك، بعد ان خابت آمالهم في الهند والبرازيل. وكان الغالب بالله يخشى الترك كثيراً، بعد استيلائهم على الجزائر وتدخلهم في شؤون المغرب الداخلية. وعملاً بسنة السياسة التي قد تجيز كل شيء، فقد استعدى الغالب الاسبان على الاتراك.

(٢) اهتم الغالب بتقوية التجارة الخارجية، خاصة مع انكلترا. فشجع ذلك تجار تلك البلاد على زيارة الموانىء المغربية.

(٣) حاول اخراج البرتغال من البريغة (الجديدة)، لكن الحصار لم ينته إلى شيء.

(٤) احتل الغالب بالله شفشاون في الشمال، وبذلك تقدم خطوة أخرى في سبيل توحيد المغرب.

(٥) زين مراكش العاصمة فبنى فيها جامع المواسين والمارستان الجديد وجدد بعض مدارسها. كما انه بنى قنطرتين الواحدة على نهر سبو والثانية على وادي ام الربيع.

(٦) سار الغالب بالله على خطة ابيه في مقاومة القادرية، مع انه كان يعظِّم العلماء ويحترم الصلحاء. لكن المقاومة كان أساسها سياسياً، لأن القادرية كانوا يؤيدون الدولة العثمانية. وقد ظهرت في أيامه فئة الشرّاقة، وهم فرع من اليوسفية، الا انهم اساءوا التصرف، واحدثوا فتنة في البلاد، فقاومهم حفاظاً على الأمن.

اما خليفته فقد كان ابنه محمد بن عبدالله المتوكل. وقد كانت أيامه قصيرة، وشغب عليه عماه (اخوا الغالب) احمد وابو مروان، وكانا قد ذهبا إلى القسطنطينية ودخلا في خدمة السلطان العثماني. وصحبا الحملة التركية إلى تونس، ورجوا السلطان ان يمدهما بالجند من الجزائر لاسترداد ملك ابيهما الذي غصبه، فيما قالا، ابن اخيهما. ولعلّ السلطان العثماني أحب أن يجرب فتح المغرب وضمه إلى بقية الشمال الافريقي فأعانهما. وتغلبا على المتوكل الذي شرد من مكان الى آخر، وتولى ابو مروان الأمر.

وكانت دولة البرتغال قد وسعت نطاق نشاطها في الخارج ـ في الهند والبرازيل ـ نتيجة اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح والعالم الجديد، بحيث ان يوحنا الثالث، ملك البرتغال (١٥٢١ ـ ١٥٥٧) تخلى عن المناطق التي كانت بلاده قد احتلتها على شاطىء المغرب لانصرافه الى العمل البعيد. لكن يوحنا أخفقت سياسته في تلك الانحاء النائية، وتوفي وفي نفسه حسرة.

وخلفه على العرش سبستيان (١٥٥٧ ـ ١٥٧٨)، الذي اراد أن يعيد امجاد اسلافه في المغرب، فكان يرنو بنظره الى تلك البلاد، دون ان يقوم بأي عمل.

وحدث في ذلك الوقت أن وقع الخصام على العرش المغربي بين محمد بن عبدالله، وبين عمه ابي مروان. فوقعت الحرب، واستنجد الثاني بجند من الاتراك نصروه على ابن اخيه وانتهى الأمر بهزيمة محمد بن عبدالله وتنقل هذا من مكان إلى آخر في المغرب، حتى انتهى به الأمر إلى طنجة ١٥٧٦/٩٨٤. ومن هناك خطر له ان يستعين بسبستيان على عمه. وصادفت الصرخة هوى في نفس ملك البرتغال فلبى النداء، رغبة منه في ان يحقق اطماعه، ويعيد بناء امجاد دولته.

فخرج في صيف ١٥٧٨/٩٨٦ من البرتغال واحتل طنجة واصيلة دون صعوبة، واقترب من القصر الكبير. والجيش الذي كان يقوده سبستيان اختلف المؤرخون في عدده. فقدَّره بعضهم بمئة وعشرين الفاً، وقدره البعض الآخر بثمانين الفاً، وروى آخر بأنه كان نحو عشرين الفاً فقط. ومهما يكن العدد، ولعله كان كثيراً بالنسبة لجيش المغرب، فان الجنود كانوا خليطاً من البرتغاليين والاسبان والايطاليين والالمان، اي ان الجيش كان فيه الكثير من المرتزقة. وكان معه فئة صغيرة من المغاربة الذين رافقوا السلطان ابن عبدالله، ولم يكن بين الجيش من الفرسان عدد يستحق الذكر. ثم ان الجيش لم يكن يعرف أرض المغرب، ولا كان ضباطه يعرفونها. والصيف حار. والقتال يقتضي الكثير من العدة، وكل ما كان مع الجيش ستة وثلاثون مدفعاً، وان كان لدى الجيش الكثير من البارود والسلاح.

اما جيش ابي مروان فقد جمعه السلطان من انحاء المغرب وقد استحث المدن والقبائل على نصرته دفاعاً عن الوطن والأهل والولد. فكانت الاستجابة كبيرة. فتقدم ابو مروان على رأس أربعين الفاً، عدتهم في الدرجة الأولى حماسة واندفاع في سبيل النصر. وكان معهم على ما يظهر نحو ٣٤ مدفعاً.

ولما وصل البرتغاليون الى القصر خاف سكان المدينة، وهمَّ بعضهم بالفرار، لكن الشيخ ابا المحاسن يوسف الفاسي شجع الناس على البقاء وقال لهم ان النصر للسلطان فليثبتوا في مكانهم. فكان لكلماته أثر كبير في ذلك، فانقادوا إلى نصحه وثبتوا في اماكنهم.

ودارت بين ابي مروان وسبستيان مراسلات. فقد كتب الأول إلى الثاني طالباً منه ان يثبت حتى يقدم عليه. ويبدو ان المؤن لم تكن تكفي جيش البرتغال، فاستشار سبستيان رجاله في الأمر، فأشار بعضهم بان يسارع إلى احتلال تطاوين والعرائش والقصر، فيتقوى جيشه بالعدة والذخائر والمؤن. ولكن الوقت فات. فان السلطان ابا مروان وصل إلى مكان قريب، وكانت المعركة على وشك الابتداء.

وتحدى السلطان سبستيان ان يتقدم بجنده، فوقع هذا في الشرك، اذ تقدم الى موضع يقال له تاهدارت ونزل إلى وادي المخازن بمقربة من قصر كتامة. ثم انه عبر الوادي، وكانت هذه غلطته الكبرى. اذ أصبح الوادي خلفه، وفيه ماء ووحل، وليس

يجتازه الناس الا على قنطرة هي التي عبرها سبستيان وجنده. فوجه السلطان عندئذ كتيبة من جيشه، دارت دورة بعيدة، حتى وصلت القنطرة فهدمتها. وكانت هذه أولى خطوات النصر.

زحف ابو مروان بجيوشه المغربية، وانضاف اليه من المتطوعين يومها كثيرون ممن رغبوا في الاجر، وطمعوا في الشهادة، وكان ممن ابلى بلاء حسناً ابو المحاسن يوسف الفاسي، الذي ترأس الميسرة؛ فثبت اقدام الناس هنا كما ثبت جأشهم في مدينة القصر الكبير. التقت الفئتان وزحف الناس بعضهم إلى بعض وحمي الوطيس واسود الجو بنقع الجياد ودخان المدافع وقامت الحرب على قدم وساق «ولم يزل الحال على ذلك، والناس في المناضلة والمقاتلة ومعانقة القواضب والاصطلاء بنار الطعان واحتساء كؤوس الحمام الى ان هبت على المغاربة ريح النصر، وساعدهم القدر، واثمرت اغصان رماحهم زهر الظفر، فولى البرتغاليون الادبار، ودارت عليهم دائرة البوار، وحكمت السيوف في رقابهم ففروا ولات حين فرار، وقتل الطاغية سبستيان غريقاً في الوادي، وقصد الجند القنطرة فلم يجدوا الا اثارها، فتهافتوا في النهر، فكان ذلك أكبر الأسباب فيّ انه لم ينج منهم الا عدد نزر وشرذمة قليلة».

وبحث في القتلى فكان بينهم ابن عبدالله، الذي استنجد بالبرتغال، اذ غرق في الوادي، فقد فر من المعركة ناجياً بنفسه، فتورط في غدير منه وغرق ومات. وممن قتل في هذه المعركة محمد بن عشر الشفشاوني صاحب الدوحة، وكان في جماعة ابن عبدالله.

وقد حدث ايضاً ان السلطان ابا مروان كان مريضاً يوم دخل المعركة، وكان يقاد به في محفة. فكان من قضاء الله السابق ان توفي السلطان ولم يطلع على وفاته الا حاجبه رضوان العلج واخوه وخليفته ابو العباس. فكتمها الاثنان، وصار رضوان يختلف إلى الاجناد ويقول «يأمر السلطان فلاناً ان يذهب إلى موضع كذا، وفلاناً ان يلزم الراية، وفلاناً يتقدم وفلاناً يتأخر».

وحصل المغاربة على غنيمة كبيرة. لكن وفاة السلطان قبل الهزيمة واشتغال أخيه وخليفته بجمع الكلمة، «حالا دون تقسيمها على الوجه المشروع فانتهبها الناس كما اتفق لهم بحسب القوة والبخث الدنيوي.»

كانت المعركة في يوم الاثنين منسلخ جمادي الأولى سنة ٩٨٥ (٤ آب ـ أغسطس ١٥٧٨).

وتعرف المعركة عند مؤرخي الافرنج باسم معركة الملوك الثلاثة ـ الذين توفاهم الله فيها وهم ابو مروان وابن اخيه ابن عبدالله وسبستيان.

وتولى عرش المغرب بعد ذلك ابو العباس احمد المنصور.

٣

بويع ابو العباس احمد المنصور بوادي المخازن، واجتمع عليه من حضر هناك من أهل الحل والعقد، ثم لما قفل من غزواته ودخل فاس جددت له البيعة بها ووافق عليها من لم يحضرها يوم وادي المخازن. ثم بعث الى مراكش وغيرها من حواضر المغرب وبواديه فأذعن الكل للطاعة، وسارعوا الى الدخول فيها. وقد كتب المنصور بخبر وادي المخازن والبيعة له الى «صاحب القسطنطينية العظمى»، السلطان مراد، والى سائر ممالك الاسلام وغيرها ممن كان له بالمغرب علاقة سياسية. ولم يلبث ان ورد عليه المهنئون بالهدايا من الجزائر والقسطنطينية. وكانت هدية السلطان مراد سيفاً محلى لم يرَ مثله مضاء وصفاء متن.

والرجل الذي تولى شؤون المغرب في تلك السنة، والذي ظل على ذلك ربع قرن من الزمان، هو ولا ريب واسطة عقد الدولة السعدية، والرجل الذى انتهى اليه مجدها. كان عالماً حفياً بالعلماء، حتى سماه المؤرخون عالم الخلفاء وخليفة العلماء. كما كان رجل دولة بالمعنى الصحيح، يطلع على شؤون بلاده اطلاعاً واسعاً، ويتعرف الى شؤونها تعرفاً دقيقاً. كان يهتم برعيته فاتخذ «يوم الاربعاء للمشورة، وسماه يوم الديوان، تجتمع فيه وجوه الدولة ويتطارحون فيه وجوه الرأي، فيما ينوب من جليل الأمور... وهناك يظهر شكايته من لم يجد سبيلاً للوصول إلى السلطان». كان متطلعاً إلى أخبار النواحي باحثاً عنها يقرأ ما يرد عليه من رسائل العمال ويجيب عنها حالاً. وكان كتّابه لا يفارقون مراكزهم الا قليلاً. وقد نقل الناصري في الاستقصا «انه اخترع اشكالاً من الخط على عدد حروف المعجم وكان يكتب بها فيما لا يريد ان يطلع عليه احد، يمزج فيها الخط المتعارف فيصير الكتاب مغلقاً، فإذا سقط ووقع في يد عدو أو غيره لا يدري ما فيه، ولا يعرف معنى ما اشتمل عليه. فكان اذا جهز أحد أولاده ناوله خطاً من تلك الخطوط يفك بها رسائله ويكتب بها كذلك». أي ان المنصور كانت له «شيفرة» خاصة به.

وكان شديداً شجاعاً فيه دهاء كثير فكان الجميع يهابه، لكنه عندما كان يعتقد ان الرأي يجب ان يأتي قبل شجاعة الشجعان، نجد انه كان يفعل ذلك، ويتم الأمر له بنجاح، على نحو ما فعل لما تغير قلب ابنه المأمون عليه وأراد الثورة، فقد احتال على الامر وأطال النظر فيه حتى استوثق من الظفر، فألقى القبض على ابنه ونفاه.

اهتم المنصور بجيشه، من حيث عدده وعدته وتنظيمه، وقد ذكر الفشتالي، وزير المنصور ومؤرخ عصره، ذلك قال: «كانت السيرة على عهد المهدي والغالب والمتوكل [أسلاف المنصور] سيرة العرب في الجيش والمآكل والملبس وغير ذلك. ولما ولي المعتصم حمل الناس على السيرة العجمية وجنح إليها في سائر شؤونه، لما رأى منها في بلاد الترك حيث كان بها، فكره الناس ذلك وأنفوا منه وقوفاً مع العوائد. فلما جاء

الله بالمنصـور آلف بين سيـرتي العـرب والعـجـم، واصطفى من العـجم مـوالـي رباهم بنعمته واشـملهم درور احسانه. منهم مصطفى باي، ومعناه بلغة الترك قائد القواد، ويختص به قائد الاصباحية [الفرسان] وكان برسم حراسة الباب العالي. ومنهم الباشا محمود، وهو صاحب خزائن الدار، وبيده مفاتيح بيوت الأموال. ومنـهم القـائد علوج، قائد جيش العلوج. والباشا جودر فاتح السودان، وهو قائد جيش الاندلس. وكان لأهل الاندلس جيش عظيم. وعمار قش السوس...». وقسَّم جيوش الاعجام اقساماً يختلف الواحد عن الآخر بثيابه وطرازه وموضعه من الخدمة. وكان اذا خرج يوم عيد او ملاقاة او تهنئة خرج الجند متزينين.

وكان المنصور قليل الاسفار، فقد زار فاس مرتين فقط. ولكنه اذا اعتزم الخروج مسافراً او زائراً، خرج على أعظم أهبة وتعبئة. وقد وصف الفشتالي سرادقه وسعته وزخرفته ورياشه وفرشه وصفاً مفصلاً، حتى ليكاد الواحد منا يتهم الكاتب بالمبالغة.

وكـان للمنصـور سلطان واسع في الجنوب. فكانت «كلمتـه نافذة فـيمـا بين بلاد النوبة إلى البحر المحيط من ناحية المغرب. وهذا ملك ضخم وسلطان فخم لم يكن لمن قبله... ولما فتح الله عليه ممالك البلاد السودانية حمل اليه من التبر ما يعيي الحـاسـبين، ويحيـر الناظرين، حتى كان المنصـور لا يعطي في الرواتب الا النضار الصـافي والدينار الوافي، وكان ببابه كل يوم أربع عـشـر مـئـة مطرقـة لضـرب الدينار الوافي دون مـا هو معد لغير ذلك من صوغ الاقـراط والحلي وشبـه ذلك. ولاجل هذا لقب بالذهبي لفيضان الذهب في ايامه».

وفتح الاقطار السودانية لم يكن بطريقة الحرب الا مع جزء حول غوا على نهر النيـجر. اما توات وتيكورارين وبورنو فقد كتب المنصـور إلى اصحابها، فقبلوا طاعته. لكن اسـحق سكيـة تمنع عليـه، فأرسل حملة بقـيادة جـودر، ثم اتبع بهـا اخرى بقـيادة محمود فأتمت فتح حوض النيجر الأعلى والأوسط، وخربّت كثيراً من تلك الجهات ١٥٨٩/٩٩٨. ومـمـا اخذه المؤرخـون على المنصـور أنه شتت شـمل آل اقـيت، علمـاء تنبكتو، ونقلهم إلى المغرب سنوات لإضعـاف نفـوذهم. وغنم المنصـور من هذه الحملة ذهباً كثيراً. ولما كثر السودان ممن ورد عليه ضمهم إلى جنده.

٤

ما كان ربع قرن من الزمان ليمر بسلطان من سـلاطين المغرب دون أن تثور عليه جهة أو ناحيـة أو قبيلة، أو دون أن يثيـر خصوم المغـرب جهـة من تلك الجهـات ضد السلطان. وقد نال المنصور حظه من ذلك. ففي سنة ١٥٨٥/٩٩٣ ثار عليه جماعة من جبـال غمـارة وبلاد الهبط (بالشمـال). ولكنه اخمد الثورة حـالاً اذ قبض على زعيمهـا الحاج قرقوش.

وبعد ذلك كان عليـه ان يؤدب جماعة من عرب الخلط في الجنوب، وقد عاثوا في

البلاد فساداً. فأمضى اليها قائده موسى العمري «فانتزع خيلهم، ثم حكم السيف في رقابهم واستأصل جمهورهم».

في سنة ٩٨٧هـ/١٥٧٩م ثار على المنصور ابن أخيه أبو سليمان «ودعا لنفسه، فانثالت عليه أوشاب من الناس... فبعث اليه المنصور بقائده محمد بن بجة فهزمه، فهرب إلى درعة حيث تضايق منه الناس، فضيق جند المنصور عليه الخناق فهرب إلى الصحراء، حيث توفي بعد سنة واحدة».

وكان ممن ثار على المنصور الناصر ابن الغالب بالله. ذلك ان الناصر، لما تولى المنصور، بعد وقعة وادي المخازن، فر الى اسبانية وأقام عند ملكها. ثم أرسله هذا الى المغرب (سنة ١٠٠٣/١٥٩٤) املاً منه في ان يمهد له فتح بعض تلك الديار. وقد وجد في الريف من يؤيده، ثم انتشرت دعوته جنوباً لأن المنصور كان شديداً على الرعية، فأمل البعض أن يكون الفرج على يد الناصر. وأرسل المنصور ولي عهده المأمون لقتال الناصر الثائر، فانتصر الأول على الثاني وقتل هذا بعد سنتين من قيامه. وبذلك انتهى أمره.

على ان الثورة التي حزت في نفس المنصور كثيراً كانت ثورة ابنه وولي عهده المأمون. كان المنصور قد مرض في أول عهده، ولذلك رأى، بعد ان شفي من مرضه الشديد، ان يعين ولي عهد له فاختار ابنه محمد المدعو بالمأمون وأتم البيعة على الطريقة الرسمية اي بحضور «أعيان حاضرة مراكش واعيان مدينة فاس وغيرهم من اشياخ القبائل ووجوه الناس من أهل الحواضر والبوادي». وكان ذلك سنة ١٥٧٩/٩٨٧، ثم جدد البيعة له بعد خمس سنوات واخذها له على اخوته خصوصاً لأنهم كانوا في البيعة الأولى قبل البلوغ. ويومها وزع أولاده أمراء على البلاد، حتى لا «تنطوي قلوبهم على ضغائن». وكان ولي العهد خليفة المنصور على فاس.

لكن المأمون خيب أمل ابيه فيه. فقد خرج عن محجة الصواب، وأساء السيرة، مما اثار نقمة الكثيرين عليه ونصحوه فما انتصح. وزجره المنصور فلم ينزجر. فهم المنصور بالسير اليه لتأديبه. لكن المأمون كان ذا ثراء، وكان عنده جيش كبير يأتمر بأمره. فخشي المنصور حرباً أهلية، فتردد ثم اعمل الحيلة حتى قطع الاخبار عن فاس، وقاد جيشه اليها، ففوجيء المأمون، وألقي القبض عليه، فأرسل إلى مكناسة فسجن فيها. وبذلك انتهى امره (سنة ١٦٠٢/١٠١١).

في سنة ١٠١٢هـ/١٦٠٣م توفي المنصور بالوباء الذي حلّ بالبلاد، وحصد الآلاف من سكانها. خلفه على العرش ابنه زيدان ابو المعالي. بويع له بفاس.

٥

كان الوقت الذي حكم فيه المنصور المغرب وقت مزاحمة شديدة بين الدول المعنية بغرب البحر المتوسط وشواطىء افريقية الاطلسية. وهذه الدول وهي الدولة

العثمانية ويمثلها هناك اسطولها، وبايات الجزائر، واسبانية، وكانت قد ضمت البرتغال اليها، وانكلترا وكانت الخصومة بينها وبين اسبانية شديدة: اليزابت الأولى هناك وفيليب الثاني هنا.

لما بويع للمنصور ارسل بالخبر إلى السلطان مراد، فبعث اليه هذا بهدية ورسل. ويبدو ان السلطان طالب المنصور بالخطبة له على المنابر، ومعنى ذلك ان المغرب يعتبر تابعاً للدولة العثمانية. وهذا ما لا يحبه المنصور ولا غيره من أهل المغرب. فتهاون المنصور في الرد علىَ إلسلطان؛ وكان في العاصمة التركية من يحب فتح المغرب وضمه الى الامبراطورية. فزين للسلطان العثماني الحملة. فهيئت السفن وسارت غرباً. وبلغ المنصور ذلك فهيأ نفسه للمقاومة، وبعث إلى مراد بهدية نفيسة ورسالة رقيقة، فأصدر السلطان أمره بالتوقف عن الحرب، وصفت العلاقات بين الاثنين، وكان ذلك سنة ٩٨٩/١٥٨١. وظل المنصور على موادعة ومدافعة ودية لآل عثمان. فكان يرسل اليهم الهدايا في كل عام وكانوا هم يرسلون له المكاتيب والخلع السنية. وفي مجموعة الرسائل السعدية التي كتبها الفشتالي، وزير المنصور، عدد من الرسائل وجهت إلى سلاطين آل عثمان وإلى اصحاب النفوذ من باشوات الاتراك هناك، مما يدل على هذا الود والصفاء. ولعلّ مما أراح المنصور هو انتهاء امر بايات الجزائر سنة ١٥٨٧ ووفاة علي علوج بك قبل ذلك بسنة واحدة.

كانت المنافسة والخصومة شديدتين بين انكلترا واسبانية ـ بين اليزابت الأولى وفيليب الثاني. ولم تقتصر هذه المنافسة على الحرب، ولكن، بطبيعة الحال، تعدت ذلك الى التجارة والاقتصاد. وكانت كسرة البرتغال (قبل اتحادها مع اسبانية) في وادي المخازن وفشلها في احتلال المغرب داعية لان يتقدم التجار البريطانيون الى المغرب للمتاجرة معه رغبة منهم في ان يحصلوا على الذهب والسكر والجلود ونترات الصودا. وكان المنصور قد أدخل قصب السكر وعصره الى البلاد، بحيث صار المغرب من البلاد التي تزود اقطاراً كثيرة بحاجتها من السكر. وكانت شركة شمال افريقية، التي انشئت سنة ١٥٨٥، هي التي تقوم بالاعمال التجارية مع المنطقة. اما ما كان الانكليزي يحمله الى المغرب فهو الاقمشة على اختلاف انواعها.

وكانت بريطانية تحب أن تحالف المغرب ضد اسبانية، لكن المنصور كان يعرف ان ملك اسبانية عنده الناصر، ابن اخي المنصور، يقيم في بلاطه، وانه كان باستطاعته ان يثير المغرب عليه بواسطة هذا الرجل (وقد فعل ذلك كما رأينا) لذلك كان يخشى ان يتحالف ضد اسبانية.

الى ان كانت سنة ١٥٨٨ اذ انكسر اسطول اسبانية الارمادا في مهاجمته لانكلترا، فأضعف ذلك نفوذ فيليب. وجرب فيليب حظه باطلاق الناصر ففشل امره. عندئذ قبل المنصور بان يهاجم اسبانية مع انكلترا على ان يقتسما الغنيمة. لكن الامر لم يعدُ كونه

استعداداً للبحث في الموضوع. فالملكة اليزابت فضلت أن توجه همتها الى الهند، ففعلت ذلك، وتخلت موقتاً عن اسبانية وجيرانها. وانتهت جميع المحاولات ومحاولات المحالفات سنة ١٦٠٣ اذ توفيت اليزابت وانتقل المنصور الى رحمة ربه.

وقد كانت معركة الارمادا وانكسار اسبانية من جهة، ووصول رسول من القسطنطينية يحمل كتاباً لطيفاً مشيراً إلى رغبة السلطان في استمرار السلام بين مراكش واستانبول، مدعاة سرور للمنصور نشره على رعيته في رسالة طويلة، جاء فيها عن الامرين ما يلي:

«ولما قضى الله بذلك من الدائرة السوء على الطاغية ما قضى عليه، وقص في جموعه المستأصلة جناحيه، وثب يديه، كان ذلك، والمنة لله لهذا الأمر العزيز، عنوان الاقبال والظفر، وعلامة على انجاز وعده المنتظر، في الاستيلاء بعون الله على بلاده واقطاره، ومنازلته بجنود الله المظفر في عقر داره، واستنقاذ النقد المتغلب عليهم في الاعصر السالفة والدول الماضية من بين انيابه واظافره، وبخاصة بلاد الاندلس التي هي بحول الله على سيوفنا أهون مطلوب وأيسر موهوب، فهي الوديعة المستردة بحول الله على أيدينا، والقلادة التي خبأتها الايام لجيدنا. وقد آذن بدنو زمان ذلك ان شاء الله وميقاته، وبلوغ ساعته البادية الاشراط واوقاته. واتفق أيضاً بهذا التاريخ ورود رسول صاحب القسطنطينية الذي انفذه الى حضرتنا الامامية، وعتبتنا المنيفة السامية، خاطباً لسلمنا وراغباً في عقد الصلح والمهادنة معنا، متبرعاً بطلب ذلك من عنده، وساعياً فيه جهده... وقد وعدنا رسوله الواصل بالملتقى ان شاء الله بحضرتنا الفاسية... ولعلّ في اجتماع كلمة الاسلام ان شاء الله بهذا الصلح الذي آن ان ينعقد بين المملكتين عوناً على صرف العناية بحول الله لمجاهدة العدو».

• نرى من هذا ان المنصور دغدغته آماله باسترداد الاندلس، ولعلّ ذلك كان بالاشارة إلى مساعي انكلترا. لكنه لم يشر إلى ذلك في رسالة وجهها الى رعيته.

اما فرنسة وايطالية وهولاندة فلم يكن بينها وبين المغرب سوى الاتجار. وقد كان المنصور يبتاع الرخام من ايطالية بوزنه من السكر.

٦

كان المنصور، شأن كبار الخلفاء والسلاطين في الاسلام، بنّاء مغرماً بذلك محباً للفن كثيراً.

بنى قصر البديع في مراكش. «ولما اراد الشروع فيه احضر اهل العلم والصلاح فتحينوا أوان الابتداء، فكان الشروع في شوال سنة ٩٨٦/١٥٧٨، واستمر العمل فيه ست عشرة سنة. وحشد له الصناع حتى من بلاد الافرنجة. فكان يجتمع كل يوم فيه من أرباب الصنائع ومهرة الحكماء خلق عظيم، حتى كان ببابه سوق عظيم يقصده التجار ببضائعهم ونفائس اعلاقهم. وجلب له الرخام من بلاد الروم... أما جبصه

وجيره وباقي انقاضه فإنها جمعت من كل جهة، وجمعت من كل ناحية... وكان المنصور يحسن الى الاجراء غاية الاحسان، ويجزل صلة العارفين بالبناء، ويوسع عليهم في العطاء ويقوم بمؤن اولادهم كي لا تتشوق نفوسهم وتتشعب افكارهم».

وكان البديع داراً مربعة الشكل في كل جهة منها قبة رائعة الهندسة، واتحف بها مصانع اخر قباب وقصور ودور فعظم بذلك بناؤه وطالت مساحته. ولا شك انه كان من احسن المباني. فيه الرخام المجزع والمرمر الابيض والاسود، طلي رأس الرخامة بالذهب، وموه بالنضار الصافي، وجعل في اضعاف ذلك الزليج (القيشاني) المتنوع يحيط به رخام عجيب النحت فرشت به الارض. وأما سقوفه فتجسم فيها الذهب، وطليت الجدران به مع بديع النقش ورائق الرقم بخالص الجبص. واجرى بين قبابه الماء. وما اكثر ما وصفه الشعراء الذين رأوه في ايام المنصور وبعده الى ان دُمر في ايام المولى اسماعيل. فقد نظم عبد العزيز الفشتالي قصيدة بلسان القبة الخمسينية، وهي اكبر قبب البديع، قصيدة طويلة جاء فيها قوله:

سموتُ فخرَّ البدر دونيَ وانحطا ... واصبح قرص الشمس في اذني قرطا
صنعت من الاكليل تاجاً لمفرقي ... ونيطت بي الجوزاء في عنقي سمطا
ولاحت بأطواقي الثريا كأنها ... نثير جمان قد تتبعته لقطا

وقد نقشت المقطوعات الشعرية على جهات مختلفة من البديع.

«ولما اكمل المنصور البديع وفرغ من تنميق بردته، وتطريز حلته، صنع مهرجاناً عظيماً ودعا الأعيان والأكابر فقدم لهم من ضروب الاطعمة وصنوف الموائد، وافرغ عليهم من العطايا ومنحهم من الجوائز ما لم يعهد من قبل ذلك».

ومما انشأه المنصور بستانين هما المسرة والمشتهى. وقد قال المنصور مشيراً الى المسرة والمشتهى:

بستان حسنك ابدعت زهراته ... ولكم نهيت القلب عنه فما انتهى
وقوام غصنك بالمسرة ينثني ... يا حسن رمان به للمشتهى

ويبدو أن بستان المسرة جدد وحسب في عهد المنصور، لكن بستان المشتهى من عمله. وكان في البستان كل ما يشتهى من الفواكه وحمل اليه الماء من اغمات واستنبطت له عيون كثيرة.

وقد بعث المنصور بخصة عظيمة إلى جامع القرويين في فاس مع كرسي من المرمر توضع عليه.

وأنشأ المنصور معقلين في حاضرة مراكش، ومعقلين في العرائش.

٧

كان المنصور يحتفل بعيد المولد النبوي احتفالاً عاماً يشارك فيه جميع الناس، فتُحمل الشموع، ويطوف الناس بها في شوارع مراكش وقد احتشدوا اليها من جميع أنحاء المملكة. وكان الشعراء ينظمون القصيد الخاص بهذه المناسبة الكريمة. وقد ترك لنا العلامة ابو الحسن علي بن محمد التامفروتي في كتاب النفحة المسكية وصفاً للاحتفال بالمولد الشريف قال: «حضرت المولد الشريف بعد القفول من بلاد الترك، فاستدعى المنصور الناس لإيوانه السعيد، واستدخلهم لقصره البديع المشيد، المحتوي على قباب عالية متقابلة، وقد مد فيها من فرش الحرير، وصفت النمارق وتدلت الاستار والكلل والحجال المخوصة بالذهب على كل باب قبة وحنية سرير. ودار على الحيطان حائطيات الحرير التي هي كازهار الخمائل، ما رئيت قط في عهد الاوائل. وتلك القباب مرفوعة الجوانب على قواعد وأساطين من رخام مجزوع مطلية الرؤوس بالذهب الذائب... فيدخل الناس على طبقاتهم ويأخذ كل مرتبته من قضاة وعلماء وصلحاء ووزراء وقواد وكتّاب واصناف الاجناد، فيخيل لكل منهم انه في جنة النعيم، والسلطان جالس في فاخر ملابسه تعلوه الهيبة والوقار، وترمقه الانظار بالتعظيم والإكبار. ويجلس من عادته الجلوس، ويقف على رأس السلطان الوصفان والعلوج، وعليهم الاقبية المخوصة والمناطق المرصعة والحزم المذهبة مما يدهش الناظر. وركز امامهم الشمع الملون، وأذن لعامة الناس فدخلوا من اصناف القبائل على اجناسها من الاجناد والطلبة، وسكنت بعد حين الجلبة. وأتى بانواع الطعام في القصاع المالقية والبلنسية المذهبة والاواني التركية والهندية، وأتى بالطوس والاباريق، وصب الماء على ايدي الناس، ونصبت مباخر العنبر والعود، وابرزت صحائف الفضة والذهب وأغصان الريحان الغض فرش بها البساط ورش من ماء الورد والزهر، وانشدوا القصائد وتكلم المنشدون، واحسن اليهم السلطان، ثم ختموا المجلس بالدعاء للامير».

وفي دواوين الشعراء المعاصرين للمنصور قصائد طويلة جميلة في وصف الاحتفال وفي التحدث عن صاحبه، لا يتسع المجال لنقل مختارات منها هنا.

على أن المولد الشريف لم يكن المناسبة الوحيدة لهذه الاحتفالات. بل كان يتم ذلك في رمضان أيضاً. فاذا «دخل رمضان سرد القاضي وأعيان الفقهاء كل يوم سفراً من نسخة البخاري، وهي عندهم مجزأة الى خمسة وثلاثين سفراً، في كل يوم سفر الا يوم العيد وتاليه. فاذا كان يوم سابع العيد ختم فيه صحيح البخاري وتهيأ له السلطان احسن تهيء».

وكان المنصور يعطي اموالاً لذوي الحاجات عند انقضاء رمضان، ويقيم مهرجاناً يوم عاشوراء لختان اولاد الضعفاء. وكل من ختن منهم اعطي اذرعاً من كتان وخصة من الدراهم وسهما من اللحم.

وكان بلاط المنصور يمثل حضارة عصره. فالعلوم الشرعية نافقة السوق لأن المنصور يعنى بها. وها هو ذا يكتب الى الشيخ القرافي يطلب منه اجازة. والاطباء موضع اهتمام السلطان وقد أنقذ محمد الطبيب حياته لما مرض ٩٨٧/١٥٧٩ وقد ظهر الوباء في مراكش فبعث السلطان، وكان غائباً، برسالة يوصي ابنه بالعناية بنفسه وبجماعته، ويعدد العلاجات الكثيرة التي يمكن ان يلجأ اليها. واهتم المنصور بالفلك، كما قرأ هندسة اقليدس بنفسه. وراجت سوق الادب في بلاط سلطان يحسن الشعر ويحس الادب ويتذوق ما فيه. ولعل سوق التاريخ عرفت رواجاً لم تعرفه في كثير من سنيها الطويلة. فقد اجتمع في بلاط المنصور المقري صاحب نفح الطيب وازهار الرياض، وابو العباس القاضي وعبد العزيز الفشتالي ومحمد بن عيسى الكاتب.

وقد صدح في رياض المنصور غير شاعر بينهم الفشتالي والهوزالي.

٨ .

كان المنصور ذكي الفؤاد عارفاً بجماعته وقومه، مدركاً امور السياسة الخارجية. ولا شك ان اقامته في تركية من قبل نفعته. وقد كان يحسن اختيار الرجال المحيطين به. ولعلنا لا نعدو محجة الصواب ان نحن ذكرنا هنا، ولو بايجاز، أخبار نفر قليل من اولئك الذين ازدهى بلاط المنصور بهم، واشتهروا هم في بلاط المنصور.

يمثل ابو العباس احمد المنجور الفاسي علماء عصر المنصور الدهاة. انفرد برياسة الفقه والاصول والكلام والمنطق والنحو والبيان والعروض والتاريخ. اكتملت ثقافته لأنه كان بارعاً بالموسيقى والشطرنج والنرد. خدم العلم مدرساً ومؤلفاً، وصار رئيس الهيئة العلمية في المغرب غير مدافع. «كان المنصور يجله ويكرمه ويحضه على التأليف كثيراً ويعطيه الهدايا السنية».

وابن القاضى الفاسي زاول القراءة ببلده ثم رحل إلى المشرق فدرس على المشاهير هناك. وفي طريق عودته اسره الافرنج، ففداه المنصور بمال جزيل. كان فقيها محدثا مؤرخاً، عارفاً بآداب العرب. درس وألف، وغلب عليه التاريخ فوضع: «المنتقى المقصور في محاسن ابي العباس المنصور» و«جذوة الاقتباس فيمن كان من الأعلام بفاس» و«درة الحجال في اسماء الرجال».

واذا جاز لنا أن نستعمل لقب شاعر البلاط استحق النابغة الهوزالي ذلك. كان ذا مراس في الشعر فخم الالفاظ جيد النظم رائع الاسلوب. له في احتفالات المنصور قصائد بارعة لا تزال تطربنا بعد مرور هذا الزمن الطويل.

وإلى جانب الهوزالي كان ثمة شاعر آخر هو ابو الحسن الشامي (اصلا). كان الشامي كلفاً بالمحسنات البديعية دون أن يظهر اثر التكلف او الصنعة. وأرق شعره في الغزل.

ونود ان نسمح لانفسنا ان نخص عبد العزيز الفشتالي بحصة أكبر من حصة الآخرين، لأن الرجل كان بمقام الوزير للمنصور، وعنه صدرت رسائل كثيرة.

وتلقى الفشتالي العلم في فاس ومراكش وتعرف الى الاعلام والكبار، واتصل بالمنصور وزير قلم له أو رئيساً لكتابه وهو بعد في اول العقد الرابع من عمره. وكان المنصور يقدمه على كتّابه حتى اختصه برياسة ديوان الانشاء. ومما لم يتهيأ لكاتب أو وزير، كما تهيأ للفشتالي، هو انه ظل في خدمة المنصور وهو يوليه كل تجلة واكبار حتى توفي وهو عنه راض، ثم اتخذه زيدان كاتباً. واخلص الفشتالي للابن، على تقلب الاحوال عليه، كما اخلص للأب من قبل وظل على ذلك إلى وفاته، ١٠٣٢/١٦٢٢ اي قبل وفاة زيدان بخمس سنوات.

وخلّف الفشتالي ارثاً ادبياً تاريخياً كبيراً يمثله: (١) مناهل الصفا في اخبار الملوك الشرفا (اي السعديين) تناول فيه، على ما يقول اليفرني المؤرخ، تاريخ الدولة السعدية منذ قيامها إلى ايام المنصور. (٢) مدد الجيش وهو تكملة لجيش التوشيح لابن الخطيب، جمع فيه موشحات اهل العصر من المغاربة وضمَّنه الكثير من كلام المنصور. (٣) مقدمة في ترتيب ديوان المتنبي على حروف المعجم. (٤) شرح مقصورة المكودي.

كان الفشتالي من رجال المنصور، ولذلك فإن تاريخه عن الدولة السعدية، على نحو ما قرأنا خلاصات عنه نقلها اليفرني، فيه مديح ورفع من شأن الدولة والسلطان. ومع ذلك فان الرجل كان، حتى في مديحه، معتدلاً.

هذا هو المنصور السعدي وهذا هو عصره.

المولى إسماعيل سلطان المغرب

١٠٨٢ ـ ١١٣٩هـ/١٦٧٢ ـ ١٧٢٧م

١

بدأ سلطان الدولة العلوية في المغرب في اواسط القرن الحادي عشر/ السابع عشر. والاسرة عربية شريفة حجازية رحلت من الحجاز واستوطنت المغرب في سجلماسة في اواخر المئة السابعة. وكان لأشراف سجلماسة (أو تفيلالت كما تسمى) مقام كبير بين أهل المنطقة. فلما ضعف شأن السعديين، تقسم المغرب غير واحد من اصحاب النفوذ والطامعين فيه. فكان ابو حسون السملالي صاحب الكلمة في السوس ودرعة وسجلماسة. وكانت زاوية الدلائيين قد اتسع أمرها في ذلك الوقت. وهي زاوية يرجح انها كانت في ناحية ام الربيع قريباً من تادلا، وكان قد أنشأها ابو بكر الدلائي. فاغتنم رئيسها في تلك الاثناء الشيخ محمد الحاج فرصة ضعف الدولة السعدية فزحف إلى مكناس وفاس وتملكهما، وانشأ الدولة الدلائية التي قاومها المولى محمد ابن الشريف اول الملوك العلويين. وامتد نفوذ الدلائيين حتى الى بعض اقليم الغرب، إلى سلا واعمالها.

كان محمد بن الشريف اول الملوك العلويين (١٠٥٠ ـ ١٠٧٥هـ/١٦٤٠ ـ ١٦٦٥م. فقد بويع بسجلماسة واستولى على درعة. فلما صفا له ذلك «حدثته نفسه بالاستيلاء على الغرب، اذ هو مقر الرياسة ومتبوأ الخلافة فما دام لم يحصل عليه استيلاء فالملك عرضة للزوال، وصاحبه ناسج على غير منوال».

وكان على المولى محمد ان يستولي على ما بيد الدلائيين ـ اي فاس ومكناس وسلا قبل ان يتم له الاتصال بالغرب، وهو السهل الغني الخصب ومصدر ثروة المغرب الزراعية. لكن جيش المولى محمد كان دون خصومه قوة وعدة. و«انعقد الصلح بينهما على ان ما حازت الصحراء إلى جبل بني عياش فهو للمولى محمد، وما دون ذلك إلى ناحية الغرب فهو لأهل الدلاء». ثم استثنى أهل الدلاء مواضع في حصة الأول (سنة ١٠٥٦/١٦٤٦). على ان المولى محمد بن الشريف عاد يحاول انتزاع ما بأيدي الدلائيين. ودارت حول ذلك معارك لم يكتب فيها للسلطان النجاح، واستقر هؤلاء في فاس نهائياً.

وعندها، وقد وجد المولى محمد نفسه محصوراً بين الصحراء وبين الدلائيين،

اتجه بجيوشه شرقاً في شمال إلى وجدة فاحتلها (١٠٦٠/١٦٥٠) وتلمسان فناوش حماتها، ثم دارت بينه وبين عثمان، باشا الجزائر مراسلة (١٠٦٤/١٦٥٤) انتهت إلى ان اعرض المولى محمد عن مهاجمة الجزائر. ويبدو ان بعض السكان هناك ذكروا له ما أصاب البلاد والعباد من شر بسبب حرب بين المولى وبين عثمان، باشا الجزائر.

وعاد محمد إلى جهات فاس فامتلك منطقة عرب الحياينة. ولكن الأمر المؤسف ان فتنة وقعت بين الاخوين محمد والرشيد، وتقابلا في الميدان فقتل الأول (١٠٧٥/١٦٦٥)، وانضمت جموعه إلى اخيه المولى الرشيد فبايعوه البيعة العامة، ودخل في طاعته الكثيرون. وانصرف الى تثبيت ملكه فافتتح تازا وسجلماسة، التي كان ابن اخيه قد تحصن فيها، ففر هذا عنها. وانتقل بعد ذلك إلى فاس التي تمكن منها سنة ١٠٧٦/١٦٦٦، فبويع له فيها. واهتم بعد ذلك بالدلائيين فقضى على زاويتهم وملكهم (١٠٧٨/١٦٦٨) قال اليفرني في نزهة الحادي «لما وقعت الهزيمة على اهل الدلاء دخل المولى الرشيد الزاوية، وأمر بمحمد الحاج واولاده واقاربه ان يحملوا الى فاس ويسكنوا بها، فحملوا اليها واستوطنوا بها مدة، ثم امر ان يذهب بهم الى تلمسان فغربوا اليها وسكنوها مدة». وطمس الرشيد معالم الزاوية، وتم للرشيد فتح مراكش والسوس وتارودانت وايليغ.

وكان الرشيد يعتمد على قبيلة شراقة في الحصول على رجال جيشه. وتوفي الرشيد سنة ١٠٨٢/١٦٧٢.

٢

بويع المولى اسماعيل، وهو الابن الثالث للمولى الشريف بن علي. وقد كان، يوم وفاة الرشيد، خليفته بمكناس، فاجتمع الناس عليه وبايعوه (١٠٨٢/١٦٧٢) ثم قدم عليه أعيان فاس واعلامها واشرافها ببيعتهم، وقدم عليه أهل بلاد الغرب من الحواضر والبوادي كذلك بهداياهم وبيعاتهم، الا مراكش واعمالها فلم يأتِ منها أحد. وقد عدد صاحب الظل الظليل بعض من حضر البيعة من الاعلام فقال «ووافق على بيعته أهل الحل والعقد من العلماء والاشراف، كالشيخ ابي محمد عبد القادر بن علي الفاسي والشيخ ابي علي اليوسي وابي عبدالله محمد بن علي الفيلالي، وابي العباس احمد بن سعيد المكيدي وابي عبدالله محمد بن عبد القادر الفاسي واخيه ابي زيد والقاضي ابي مدين وغيرهم من بقية الاعيان».

ولكن فاس لم تلبث ان انتفضت، بعد ان خرج منها المولى اسماعيل الى مكناس، التي اتخذها عاصمة لملكه. «فنهض لفاس وحاصرها سنة ويزيد حتى احتلها دون حرب للبلد». وبعد ذلك نهض السلطان إلى مراكش فاحتلها ١٠٨٨/١٦٧٨.

ولم تكن هذه آخر حروب المولى اسماعيل في المغرب نفسه، فقد ثار عليه ابن اخيه احمد، فحاربه حتى غلبه. وثار بعض شيعة الدلائيين، فناصبهم العداء حتى اوقع

بهم، وخرج عليه الاخوة الثلاثة من اولاد المولى الشريف بالصحراء. ولكن في النهاية تم للمولى اسماعيل ما لم يتم لكثيرين من ملوك المغرب وهو السيطرة على البلاد سيطرة تكاد تكون كاملة. فكانت بلاد المخزن في ايامه الغالبة وبلاد السبا، ان كان ثمة بلاد سبا، ضيقة المساحة.

وصف اليفرني في «نزهة الحادي» ايام السلطان المظفر المولى اسماعيل بقوله: «ولما تمت له البيعة نهض بأعباء الخلافة واحسن السيرة وضبط الامور كلها وتمهدت له البلاد ودان له قريبها وبيعدها مع محاربات طويلة ومنازلات عديدة مع الثوار عليه... ولم يزل رحمه الله في مقاتلة العادين من الثوار والعاصين من القبائل الى ان دوخ بلاد المغرب كلها وطوعها وعرها وسهلها وجبلها واستولى على تخوم السودان... وبلغ في ذلك ما لم يبلغه ابو العباس أحمد الذهبي المنصور (السعدي) ولا احد قبله، وامتدت مملكته من جهة الشرق إلى قرب بلاد بسكرة من بلاد الجريد ونواحي تلمسان».

ولخص الناصري في «الاستقصا» تلك الفترة بقوله: «كانت ايام أمير المؤمنين المولى اسماعيل رحمه الله على ما ذكرنا من الامن والعافية وتمام الضبط، حتى لم يبقَ لاهل الدعارة والفساد محل يأوون اليه ويعتصمون به، ولم تقلهم ارض ولا اظلتهم سماء سائر ايامه... فإن المولى اسماعيل رحمه الله استوفى مدة الخلافة بثمرتها وتملأها بكمال لذتها، لأنه وليها في ابان اقتداره عليها واضطلاعه بها... ولم يكن عليه استبداد لأحد ولا نغَّص عليه دولته سوى ما كان من ثورة ابن محرز (ابن اخيه احمد) وابنه محمد العالم ومن سلك سننهم من القرابة. وكلهم كان يشغب في الاطراف، لم يحصل منهم كبير ضرر للدولة.

مر بنا في العبارة التي اقتبسناها عن اليفرني ان المولى اسماعيل ملك السودان. وقد كان ذلك في سنة ١٠٨٩/١٦٧٨ اذ اتجه نحو صحراء السوس فبلغ آقا وطاطا وتيشيت وشنقيط (موريتانيا الحديثة) وتخوم السودان، فقدمت عليه وفود العرب هناك من اهل الساحل والقبله وغيرهم من وفود تلك الاصقاع.

وقد اغار اسماعيل شرقاً، كما اغار اسلافه من قبل، لكن الامر انتهى بعقد الصلح مع اتراك الجزائر.

اراد المولى اسماعيل ان يقاتل الاجانب المحتلين للبلاد ويجلوهم عن الموانىء المغربية. فوجه همته الى ذلك ونجح نجاحاً كبيراً. فاحتل المعمورة (المهدية) والعرائش واصيلا واستعاد طنجة. لكن سبتة ومليلة ظلتا بأيدي المحتلين.

كان فتح المعمورة المسماة بالمهدية في سنة ١٠٩٢/١٦٨١. وقد روى صاحب النزهة خبر الفتح قال: «ومن محاسن الدولة الإسماعيلية تنقية المغرب... ورد كيد العدو عنه... من ذلك المعمورة فإنه رحمه الله قد افتتحها عنوة بعد أن حاصرها مدة».

أما طنجة فقد استعيدت سنة ١٠٩٥/١٦٨٤ وكانت مع الانكليز، وقد انتقلت اليهم من اسبانية. وقد حاصرها جيش المولى اسماعيل، وقررت بريطانية ان تتخلى عنها. وقد قال الزياني في البستان: «لما ضاق الأمر على الذين بطنجة وطال عليهم الحصار خربوها وهدموا اسوارها وابراجها وركبوا سفنهم وتركوها فدخلها المسلمون من غير طعن ولا ضرب. وشرع قائد المجاهدين علي بن عبدالله الريفي في بناء ما تهدم من اسوارها ومساجدها».

اما فتح العرائش فقد تم في سنة ١١٠٠/١٦٨٩. فسار اليها القائد ابو العباس احمد بن حدو الطائي في جماعة من المجاهدين لحصارها حصاراً دام قرابة خمسة اشهر. ويبدو ان الفرنسيين ساعدوا المولى اسماعيل في حصار العرائش بخمس فراقيط قطعت عنها المادة. وقد جاء في النزهة: «فتحها المسلمون بعد معاناة شديدة وذلك انهم حفروا المينات تحت خندق سورها الموالي للمرسى وملأها بارودا ثم اوقدوها بالنار، فنفطت وسقط جانب السور. فاقتحم المحاصرون منه وتسلقوا إلى من كان على الاسوار، فوقعت ملحمة عظيمة». وفر باقي المحصورين الى مكان قريب اختبؤا فيه ثم طلبوا الامان، فأخذوا كلهم أسارى. واذا صحت رواية المعاصرين لهذه الاحداث فقد فقدت العرائش نحو الف ومئتين من اهلها الاجانب في المعركة والحصار. ووجد بها من البارود والعدة ما لا يحصى كثرة. فمن المدافع نحو مئة وثمانين منها اثنان وعشرون من النحاس والباقي من الحديد.

كان فتح العرائش حدثاً كبيراً بالنسبة للسلطان اسماعيل، فنظم أديب فاس وفقيهها ابو محمد عبد الواحد ابن محمد الشريف البوعناني قصيدة طويلة نجتزىء منها الابيات التالية:

الا ابشر بهذا الفتح نور ... قد انتظمت بعزمكم الامور
وطير السعد نادى حيث غنى ... قد انشرحت بفتحكم الصدور
وضوء النصر ساعده التهاني ... ونور الفخر نحوكم يدور
وقد وافتكم الخيرات طرا ... وطاب العيش واتصل السرور
حميتم بيضة الاسلام لما ... بعين الحق قد حرس الثغور
وجاهدتم وقاتلتم فانتم ... لدين الله أقمار تنير
فأنت البدر يوم السلم حسنا ... وفي يوم الوغى الأسد الهصور
وفي ثغر العرائش قد تبدى ... لقدركم على الشعرى الظهور
لقد كان الملوك فساوموها ... وراموها وبان لها نفور
فلما جئتها انقادت وقالت ... اليك بحق مولانا المصير

وكان للمولى اسماعيل حصار لاصيلا في السنة التالية. فطلب أهلها الأمان بعد

سنة من الحصار، فأمنهم السلطان. لكن يظهر انهم لم يطمئنوا الى ذلك فرحلوا عنها في الليل، ودخلها الجيش المغربي فملكها. وعمرها اهل الريف وبنى فيها قائدهم مسجدين ومدرسة وحماماً وداراً له بقلعتها.

كان المولى اسماعيل بحاجة الى جيش كبير يستخدمه في المهمات الكثيرة التي تصدّر لها ـ من ضبط امور البلاد ومقاتلة الثائرين والحملات الخارجية ومحاصرة الاجانب. وقضية تنظيم جيش كانت دوماً من القضايا المعقدة في المغرب. لذلك لجأ اسماعيل الى إنشاء مجموعات من القوى المسلحة، ان جاز التعبير، يمكن تلخيص أمورها بما يلي:

(١) جيش الودايا ـ وهو مؤلف من قبائل عربية مختلفة كانت منتشرة في جنوب البلاد غالباً. وكان السعديون من قبل يستنفرون بعضهم للغزو بحللهم لاعتيادهم ذلك. ويبدو ان امرهم أُهمل كثيراً حتى اهتم بهم المولى اسماعيل فجمعهم واثبتهم في الديوان وكساهم وحملهم ثم نقلهم الى الرياض (بمكناس) وفاس. وبذلك حاول اسماعيل ان يزيل عنهم صفة التنقل ويشعرهم بالاستقرار. وكانت قبيلة المغافرة لها مركز خاص بين الودايا لأن السلطان اصهر اليهم.

(٢) عبيد البخاري او العبيد. لما تم للمنصور السعد امر الاستيلاء على بلاد السودان جاءه كثير من أهل تلك الديار هدايا واسرى، فضمهم الى جنده. ولكن أمرهم اهمل بعد ايامه. ويبدو ان جماعة اخرى جاءت من السودان، على اثر تدمير بلادهم وتعطيل متاجرهم، الى المغرب. لذلك كثر عددهم. فأشار احد كتاب السلطان اسماعيل عليه بأن يجمع هؤلاء العبيد ويستخدمهم في جيشه، فيكون له جيش لا ارتباط له بعصبية أو قبيلة او ولاء سوى الولاء للسلطان. فأعجبت الفكرة اسماعيل وطلب من الكاتب (وهو ابو حفص عمر بن قاسم المراكشي) ان يجمعهم رأساً أو بالوساطة. ففتشت سائر اقطار المغرب، وتم جمعهم، فكان منهم بين ١٢٠٠٠ و١٥٠٠٠ فوضع المولى اكثرهم في مشروع الرملة بين منطقة مكناس والغرب، والباقين نقلهم إلى ادخسان وتادلا، حفظاً للشرق ومنعاً من الصحراء.

وأما سبب تسمية هذا الجيش بعبيد البخاري فهو ان المولى اسماعيل لما جمعهم وظفر بمراده بعصبيتهم واستغنى بهم عن الانتصار بالقبائل بعضهم على بعض، حمد الله وأثنى عليه، وجمع أعيانهم وأحضر نسخة من صحيح البخاري وقال لهم: «انا وانتم عبيد لسنة رسول الله ﷺ وشرعه المجموع في هذا الكتاب. فكل ما أمر به نفعله، وكل ما نهى عنه نتركه وعليه نقاتل». فعاهدوه على ذلك وأمر بالاحتفاظ بتلك النسخة، وأمرهم أن يحملوها حال ركوبهم ويقدموها أمام حروبهم... ولذلك قيل لهم عبيد البخاري». وقد ابتاع السلطان الإماء لهؤلاء الجنود.

(٣) كان للمولى اسماعيل جيش ثالث صغير مكون من الفين من الحراطين. والكلمة

«من لفظ الحرطاني ومعناه في عرف أهل المغرب (العتيق) واصله الحرثان، كان الحر الاصلي حراً أول، وهذا العتيق حرثان. ثم كثر استعماله على الألسنة فقيل الحرطاني، على ضرب من التخفيف».

(٤) كان للسلطان عدد من الاسرى الذين وقعوا بيده في حروبه مع الأجانب، أو الذين أسرتهم سفن قرصانه. وكثير من هؤلاء كانوا يعتنقون الاسلام، الا ان بعضهم كان يظل مسيحياً. وكان هؤلاء لهم قوادهم ورؤساؤهم، ولم يستطع المؤرخون ان يهتدوا الى عددهم، ذلك لأن تبادل الأسرى كان يحدث كثيراً، كما ان الافتداء كان يقع أيضاً. لذلك لا يمكن الجزم بشيء من ذلك. الا ان «بلو» الانكليزي، الذي استطاع أن يفر من الأسر، ذكر أنه كان رئيساً لفرقة يتراوح عددها بين ٦٠٠ و٧٠٠. وقد مر بنا ان فتح العرائش وحده وضع بين ايدي السلطان بين ١٨٠٠ و٢٠٠٠ اسير. والغالب على هؤلاء أنهم كانوا يستعملون للامور الفنية ولتدريب جند السلطان الآخرين.

يبدو ان السلطان وجد في جيش عبيد البخاري حاجته، فاهتم بهم اهتماماً خاصاً. وها نحن اولاً ننقل للقراء ما قاله الناصري صاحب الاستقصا عن تربية اولاد العبيد وتأديبهم: «قد قدمنا أن جمهور عبيد البخاري كانوا بالمحلة من مشروع الرملة، وانهم تناسلوا وكثروا الى الغاية. فلما كانت سنة مئة والف [١٦٨٩] امر السلطان رحمه الله اولئك العبيد ان يأتوه بابنائهم وبناتهم من عشر سنين فما فوق. فلما قدموا عليه فرّق البنات على عريفات داره، كل طائفة في قصر للتربية والتأديب، وفرّق الأولاد على البنائين والنجارين وسائر أهل الحرف للعمل والخدمة وسوق الحمير والتدرب على ركوبها. حتى اذا اكملوا سنة نقلهم الى سوق البغال الحاملة للاجر والزليج والقرمود والخشب ونحو ذلك. حتى اذا اكملوا سنة نقلهم الى خدمة المركز وضرب الواح الضابية. حتى اذا اكملوا سنة نقلهم إلى المرتبة الأولى في الجندية، فكساهم ودفع اليهم السلاح يتدربون به على الجندية وطرقها. وحتى اذا اكملوا سنة دفع اليهم الخيل يركبونها أعراء بلا سروج ويجرونها في الميدان للتمرس بها والتدرب على ركوبها. حتى اذا أكملوا سنة وملكوا رؤوسها دفع اليهم السروج فيركبونها بها ويعلمون الكر والفر والثقافة في المطاعنة والمراماة على صهواتها. حتى اذا أكملوا سنة بعد ذلك، صاروا في عداد الجند المقاتلة، فيخرج لهم السلطان البنات اللواتي قدمن معهم ويزوج كل واحد من الأولاد واحدة من البنات، ويعطي الرجل عشرة مثاقيل مهر زوجته، ويعطي المرأة خمسة مثاقيل شورتها، ويولي عليهم من آبائهم الكبار، ويعطي ذلك القائد ما يبني به داره وما يبني به اخصاص المحلة وهي المعروفة عندنا بالنواويل. ويبعث بهم إلى المحلة بعد ان يكتبوا في ديوان العسكر واستمر الحال على هكذا. ففي كل سنة يأتي من المحلة عدد صغير ويتوجه اليها من عند السلطان عدد كبير، من سنة مئة

والف إلى أن توفي السلطان رحمه الله فبلغ عدد هذا العسكر البخاري مئة الف وخمسين الفاً، منها ثمانون الفاً مفرقة في قلاع المغرب لعمارتها وحراسة طرقها، وسبعون الفاً بالمحلة».

وما دمنا بسبيل ما اتخذه المولى اسماعيل من خطوات لتأمين الجيش الذي يفرض النظام ويقمع الثورات ويحمي الذمار ويرد الاعداء، فلنشر الى أمرين آخرين هامين. أما أولهما فعنايته بالطرق وتنظيمه للبريد. فقد كانت ثمة طرق آمنة تصل بين فاس ومراكش وبين الرباط ومكناس، فضلاً عن طرق أخرى فرعية. وأما الأمر الثاني فهو بناء القلاع. فالمعروف أن المولى اسماعيل بنى أو رمم وحصّن ٧٦ قلعة، بعضها في المدن، والبعض الآخر في أطراف البلاد النائية. وكان يقيم خاناً على مقربة من كل قلعة تقريباً يأوي اليه التجار. ومن القلاع التي بناها المولى اسماعيل قلعة في الموضع المعروف برقادة (على مقربة من وجدة) وقلعة بالعيون وقلعة على ملوية وقلعة تاوريرت وقلعة بوادي مسون وقلعة في الكور وقلعة يعين اللوح في جبال فزاز وقلعة إدخسان. وكان يقيم في كل قلعة نحو خمسمئة فارس لحماية الجهة والاهتمام بالطريق المارة هناك، والعناية بأمر التجار. أما المدن المحصنة التي كانت تعنى بمناطق اكبر فقد تبلغ حاميتها ثلاثة آلاف شخص.

وكان السلطان اسماعيل شديداً جداً على من يعبث بالأمن أو يثور على الدولة. لذلك هابه أهل البلاد. وفي ذلك يقول الزياني أن المرأة كانت تستطيع أن تسير من وجدة إلى وادي نون وهي آمنة مطمئنة على نفسها وما معها.

٥

حرص المولى اسماعيل على تنمية تجارة المغرب الخارجية. فقد كان يتقاضى ١٠٪ عن كل المتاجر التي تدخل البلاد أو تخرج منها، وهذا مبلغ ضخم. كما كان يتقاضى ٢٥٪ عن كل تجارة في الشموع.

كانت انكلترة أكبر تاجر مع المغرب تليها هولندة ثم فرنسة وأسبانية. فكانت الأقمشة على اختلاف أنواعها تأتي من انكلترة، كما كانت هذه تحمل إلى المغرب والاصداف التي تستعمل نقداً في بعض الجهات النائية في أفريقية، والتي كانت لها مع المغرب تجارة واسعة. أما هولندة فكانت تنقل الى موانىء المغرب أشياء منوعة بسبب اتساع الاسواق التي كانت تتاجر هي معها، كالأقمشة والبهارات والأفاويه والمرايا والنحاس والفولاذ والحامض الجاوي والأسلحة والذخائر. وكان الموصلين بين الاقمشة من اكثر ما تنقله هولندة إلى المغرب. واسبانية كانت ترسل الى بلاد السلطان اسماعيل الصباغ القرمزي والسيلقون. وكان باستطاعة فرنسة أن تنمي تجارتها مع المغرب كثيراً في أيام اسماعيل الذي كان راغباً في تحسين علاقاته مع لويس الرابع عشر، لكن لويس الرابع عشر لم يستطع، كما يقول المؤرخ الفرنسي جورج هاردي، ان يدرك عقلية

اسماعيل ولا أهمية المغرب. لذلك فإن فرنسة التي كانت تجارتها مع المغرب في الطليعة أوائل عهد المولى اسماعيل تأخرت الى الدرجة الثانية فالثالثة تدريجاً. ولما احتلت بريطانية جبل طارق سنة ١١٢٥/١٧١٣ أصبح تقدم تجارتها مع المغرب امراً طبيعياً. وكانت ايطالية تزود المغرب بالبارود والترابة (للدبغ). وكان المغرب يستورد، بوسائل مختلفة، الحرير والقطن والأفيون من شرقي البحر المتوسط.

كانت ميناء قادس الأسبانية مركز التجارة المغربية مع انكلترة وهولندة. أما في المغرب نفسه فكانت سلاّ وتطوان في المقدمة تليها آسفي واغادير. وفي وسط البلاد كانت فاس مخزن المغرب الرئيسي ومستودع تجارته. وبنى المولى اسماعيل ميناء الصويرة فانتقلت اليه تجارة آسفي واغادير. أما في الجنوب فقد كانت تفيلالت وتارودانت وايليغ منافذ التجارة مع المناطق الافريقية. ومن هذه كان يأتي الى المغرب الذهب وريش النعام والتمور والعاج والنيلة. وكان المغرب يضيف الى هذه، الجلود والشموع ويصدر الجميع إلى دول أوروبة.

والواقع انه في أيام السلطان اسماعيل كانت البلاد تتمتع بنشاط اقتصادي تجاري كبير. ومع ذلك فإن البلاد كانت تستورد اكثر مما تصدر. والذي كان يعوض على البلاد، أي الذي كان يعدل ميزانها التجاري مع الواردات غير المنظورة هو ما كان يدفعه ملوك أوروبة افتداء للأسرى، وما كان يغنمه القرصان من سفن أجنبية وما عليها من متاع.

٦

كان المولى اسماعيل بناءً. فقد مر بنا انه جدد أو انشأ ٧٦ حصناً فيها بعض المدن. لكن اسماعيل البناء يظهر اثره في بناء جديد في مدينة مكناس التي جعلها عاصمته. فلم يكن يهتم بمراكش ولا بفاس بشكل خاص، ولعل ذلك يرجع إلى ما لقي منهما من ثورات. فضلاً عن أنه أراد أن يكون له مدينة تمثل شخصيته. (من المهم ان نذكر أنه هدم قصر البديع الذي بناه المنصور الذهبي في مراكش).

ومكناس، أو مكناسة الزيتون كما يشير اليها المؤرخون المغاربة، بلدة قديمة. وقد اهتم بها بنو مرين اهتماماً كبيراً. «وهي مدينة طيبة التربة عذبة الماء صحيحة الهواء سليمة المختزن من التعفن وغيره. وكان المولى اسماعيل خليفة أخيه الرشيد فيها، فبدأ يهتم ببنائها يومئذ، ثم أتم ذلك أيام ولايته على المغرب. فشرع في بناء قصوره بها، بعد أن هدم ما يلي القصبة من الدور وأمر أربابها بحمل أنقاضها وبنى لهم سوراً على الجانب الغربي، وأمر ببناء دورهم هناك، وهدم الجانب الشرقي كله من المدينة وزاده في القصبة القديمة، ولم يبق أمامه إلا الفضاء الواسع، فجعل ذلك كله قصبة. وبنى سور المدينة وأفردها عن القصبة، وأطلق أيدي الصناع في البناء ومداومة العمل، وجلبهم من جميع حواضر المغرب. ولما لم يقنعه ذلك فرض العَمَلَة على القبائل

مناوبة. فصارت كل قبيلة من قبائل المغرب تبعث عدداً معلوماً من الرجال والبهائم في كل شهر. وفرض الصناع وأهل الحرف على الحواضر. فصار أهل كل مصر يبعثون من البنائين والنجارين وغيرهم عدداً معلوماً كذلك. وأسس المسجد الأعظم بداخل القصبة مجاوراً لقصر النصر الذي كان أسسه في دولة أخيه المولى الرشيد رحمه الله... واستمر البناء بمكناسة سنين».

وكان السلطان «كلما اكمل قصراً أسس غيره. ولما ضاق مسجد القصبة بالناس أسس الجامع الأخضر أعظم منه، وجعل له بابين: باباً إلى القصبة وباباً إلى المدينة. وجعل رحمه الله لهذه القصبة عشرين باباً عادية في غاية السعة والارتفاع، مقبوة من أعلاها، وفوق كل باب منها برج عظيم عليه من المدافع النحاسية العظيمة الأجرام والمهاريس الحربية الهائلة الاشكال ما يقضي منه العجب. وجعل في هذه القصبة بركة عظيمة تسير فيها الفلك والزوارق المتخذة للنزهة والانبساط. وجعل بها هرياً عظيماً لاختزان الطعام من قمح وغيره... وجعل بها اصطبلاً عظيماً لربط خيله وبغاله... يقال إنه كان مربوطاً بهذا الاصطبل اثني عشرة فرس... ويجاور هذا الاسطبل بستان على قدر طوله فيه من شجر الزيتون وانواع الفواكه كل غريب... ويتخلل هذه القصور التي في داخل القلعة شوارع مستطيلة متسعة وأبواب عظيمة... ورحاب عظيمة مربعة معمدة لعمارة المشور في كل جانب، الى غير ذلك مما لا يحيط به الوصف».

بالاضافة إلى العمال والصناع الذين فرضهم المولى اسماعيل على القبائل والحواضر، فقد دخل سجونه خمسة وعشرون الفاً ونيفاً من أسارى الأفرنج كانوا يعملون في بناء القصور، وبعضهم كان يقوم بالتخطيط والتزيين والهندسة. كما كان في سجون اسماعيل نحو ثلاثين الفاً تظل تعمل مع الاسرى في البناء. «وكانوا يبيتون في السجون والاهراء تحت الارض، ومن مات منهم دفن في البناء».

وقال الزياني المؤرخ المغربي المشهور: «لقد شاهدت الكثير من آثار الدول فما رأيت اثراً أعظم من آثاره، ولا بناء أضخم من بنائه ولا أكثر عدداً من قصوره».

والذي نريد أن نقوله نحن هو أن ما بقي من آثار المولى اسماعيل إلى الآن في مكناس، على ما تهدم منه وما نقل من احجاره وزلجه وقرموده، لا يزال يدعو إلى العجب. فقد حضرنا حفلاً أقيم إلى جانب البركة الكبيرة هناك، فكان اتساعها يدعو إلى الدهشة.

٧

يقول اليفرني في نزهة الحادي عن دولة المولى اسماعيل: «لا يخفى على من نظر بعين الإنصاف وتحلى بقول الحق الذي هو أحمد الأوصاف أن هذه الدولة الحسنية لم يرَ الرأوون ولا سمع السامعون مثلها، لما اشتملت عليه من المفاخر، التي يكل في تعدادها الأول والآخر. ولقد ظهر فيها من الخيرات ما لا يحصى ورأى الناس

من الأمن والرخاء والهنا لم يخطر لأحد ببال، وكل ذلك مما شاع وذاع وملأ الاسماع».
ثم يعدد اليفرني هذه الخيرات وهي، في رأيه:

(١) استخلاص مدن المغرب من الاجانب (المعمورة وطنجة وأصيلا والعرائش).

(٢) ضخامة المملكة وعظمة السلطنة في ذلك الوقت.

(٣) ضبط الأمور والبلاد واخضاع أهل الدعارة والفساد.

ويتضح من هذا ومن الذي ذكرناه قبلاً أن المولى اسماعيل كان رجل حزم وبأس وشجاعة، وكان شديداً على من يحاول العبث بالأمن والسلطة، وكان رجلاً له في العمل والبناء همة. ومع أن الحياة العلمية والأدبية عرفت في الدولة العلوية منشطين ومروجين ومشجعين ومشاركين من السلاطين ورجال الحكم، فليس من المعروف بأن السلطان اسماعيل اتسع وقته للكثير من هذه الأمور.

لقد عرفت أيامه من رجال العلم اليوسي والمسناوي والمؤرخ اليفرني وابن شقرون وأدراق الطبيبين المشهورين وابن زاكور أحد مقدمي الشعراء في المغرب إطلاقاً. ولكن ليس ثمة ما يدل على أن بلاط اسماعيل كان لهم أو لغيرهم موئلاً، وإن كان جناحه ظللهم جميعاً. حتى الشعر الذي قيل في مدح المولى اسماعيل أقل بكثير مما قيل في المنصور مثلاً أو غيره.

ولعله من الطبيعي أن يحدث شيء من المشادة بين رجل مثل المولى اسماعيل وبعض أهل الفقه حول أمور اعتبروها خروجاً على الشرع. فالاوضاع التي اجتازها المغرب قبل تولي اسماعيل حملت هذا على شدة لعله ما كان يلجأ اليها لولا تلك الأوضاع. وعلى كل فلا شك أنه مما يسجل بالفخر لهؤلاء العلماء الاعلام انهم لم يمتنعوا عن مخالفة رجل له مثل هذا البطش والعنفوان. ومما يجب ان نذكره له ايضاً أنه لم ينتقم من أولئك الذين خالفوه. ولنذكر على سبيل المثال حادثين يوضحان هذا الذي ذهبنا اليه.

(١) في سنة ١١٠٤/١٦٩٢ خرج السلطان إلى أهل فازاز. فاستنفر القبائل وأعد العدة وجمع المدافع. ولما وصل الديار أصلاهم ناراً حامية فقتل في المعركة الكثيرون جداً. ويبدو أن إضعاف هؤلاء الناس اعتبره الفقهاء أو بعضهم على الأقل خسارة فادحة للبلاد، خاصة والاعداء على الأبواب. فانتقدوا تصرف السلطان. وكان البعض يشعرون بأن ما يجمع من الضرائب كثير وان الكثير منها ينفق في غير محله. لذلك رأى اليوسي وهو كبير العلماء وشجاعهم، أن يبعث برسالة إلى اسماعيل يوضح فيها وجهة نظره. والرسالة فيها لوم وتقريع صريحان. ولولا طولها لنقلناها بكاملها، ولكن نكتفي منها بما يمس جوهر الموضوع، عن طريق تلخيص نقاطها الثلاث الرئيسية وهي:

(أ) ان السلطان يجب أن يجمع المال بحق ويفرقه بحق. وهنا يقول اليوسي للمولى

اسماعيل «فينظر سيدنا فإن جباة مملكته قد جروا ذيول الظلم على الرعية فأكلوا اللحم وشربوا الدم وامتشوا العظم وامتصوا المخ، ولم يتركوا للناس ديناً ولا دنيا. أما الدنيا فقد أخذوها، وأما الدين فقد فتنوهم عنه، وهذا شيء شهدناه لا شيء ظنناه... وليعلم سيدنا ان السلطان اذا أخذ أموال العامة ونثرها في الخاصة وشيد بها المصالح فالعامة يذعنون ويعلمون انه سلطان وتطيب قلوبهم بما يرون من انفاق أموالهم في مصالحهم والا فالعكس».

(ب) ان السلطان غفل من عمارة الثغور فضعفت للغاية. ويضيف اليوسي «وقد حضرت بمدينة تطاوين أيام مولانا الرشيد رحمه الله، فكانوا اذا سمعوا الصريخ تهتز الأرض خيلاً ورماة. وقد بلغني اليوم أنهم سمعوا صريخاً جانب البحر ذات يوم فخرجوا يسعون على أرجلهم وبأيديهم العصي والمقاليع... فعلى سيدنا أن يتفقد السواحل كلها... ويحرضهم على الجهاد والحراسة، بعد أن يحسن اليهم ويعفيهم مما يكلف به غيرهم».

(ج) يشير اليوسي الى المشتغلين بظلم الناس أي العمال وخدامهم، وهم الذين ينتظر منهم ان ينصرفوا إلى الاهتمام بشؤون العباد. ويختم اليوسي رسالته أو بطاقته كما يسميها هو، بقوله: «فعلى سيدنا أن يقتدي بهؤلاء [الخلفاء الراشدين] الفضلاء ولا يقتدي بأهل الأهواء. ولنسأل من معه من الفقهاء الثقات... الذين يتقون الله ولا يخافون في الله لومة لائم، فما أمروه به مما ذكرناه ولم نذكر فعله، وما نهوه عنه انتهى. هذه طريقة النجاة ان شاء الله تعالى».

(٢) في سنة ١٠٠٨ طلب السلطان من القاضي والعلماء بفاس ان يوافقوا على تمليك العبيد المثبتين في الديوان، فرفضوا ظناً منهم انه أراد تملك الأحرار منهم. ورفضهم على أساس الظن دليل يقظتهم وحرصهم على أمور الشرع.

ويبدو ان السلطان لم تعجبه معرفة بعض القضاة في البوادي، لذلك جمعهم سنة ١٠٩٤/١٦٨٢ وامتحنهم وطلب ان يتعلموا ما لا بد منه من أحكام. وقد عزل فيما بعد اولئك الذين لم يتعلموا.

حكم المولى اسماعيل يمثل صفحة هامة من صفحات التاريخ المغربي الحديث. ويخيل الينا ان بعض معاصريه كانوا يدركون ما قام به الرجل لتلك البلاد من توحيدها ودفع اذى المغير عنها، فتمنوا أن يطول حكمه ويستمر خشية ان يمر بالمغرب ما لا يحبه له ابناؤه. ويتضح هذا من الابيات التالية التي قالها الفقيه أبو عبدالله محمد بن عبد الله الجزولي (وهي من قصيدة طويلة).

مولاي اسماعيل يا شمس الورى	يا من جميع الكائنات فدى له
ما أنت الا سيف حق منتضى	الله من دون الخليفة سلّه
من لا يرى لك طاعة فالله قد	أعماه عن قصد الهوى وأضلّه

اليوسي المغربي

١

طلع القرن الحادي عشر للهجرة (القرن السابع عشر للميلاد) على المغرب ودولة السعديين في تأخر، والبلد في اضطراب سياسي. فالسلطان لا يعترف به الا في جزء من البلاد، وما تبقى تقسَّمه كثيرون، منهم أبو حسون السملالي في السوس، ومحمد الحاج، شيخ الزاوية الدلائية، في فاس ومكناس والغرب، والشريف بن علي في تفلالت وما اليها. ورأى الشريف بن علي أن واجبه يقضي عليه بتوحيد المغرب دفعاً للأذى عنه. فكان ذلك بدء عناية الأسرة العلوية بشؤون المغرب السياسية عناية مباشرة. فنحن واجدون ان سيدي محمد بن الشريف بويع، في حياة أبيه الشريف بن علي، في سجلماسة سنة ١٠٥٠/١٦٤٠، فلما «صفا للمولى محمد بن الشريف قطر سجلماسة ودرعة، حدثته نفسه بالاستيلاء على الغرب اذ هو يومئذ مقر الرياسة ومتبوَّأ الخلافة، فما دام لم يحصل عليه استيلاء فالملك عرضة للزوال، وصاحبه ناسج على غير منوال. وكان الرئيس أبو عبدالله محمد الحاج الدلائي يومئذ مستولياً على فاس ومكناسة وأعمالهما، وامتدت ولايته بعد مهلك ابي عبدالله العياشي إلى سلا وأعمالها، فلما ظهر المولى محمد بالصحراء واستفحل أمره وقويت شوكته خاف محمد الحاج منه الوثوب على فاس فعالجه بالحرب وعبر اليه نهر ملوية. وكان الدلائي أشد قوة من الشريف وأكثر جمعاً، فضايقه باقليم الصحراء وقصد سجلماسة مراراً، وكانت بينهما اثناء ذلك وقعة القاعة ضحى يوم السبت الثاني عشر من ربيع الثاني سنة ست وخمسين والف، فكانت الهزيمة فيها على الشريف، وتقدم الدلائي إلى سجلماسة فافتتحها.

«ثم انبرم الصلح بينهم على ان ما حازت الصحراء الى جبل بني عياش فهو للمولى محمد، وما دون ذلك الى ناحية الغرب فهو لأهل الدلاء، ثم استثنى أهل الدلاء خمسة مواضع اخرى كانت في ايالة المولى محمد فجعلوها لهم».

لكن الحرب لم تلبث أن تجددت بين المولى محمد وبين الدلائيين. ومع أن المولى محمد استولى على فاس وبويع له فيها سنة ١٠٧٠/١٦٥٠، الا ان الاستيلاء كان موقتاً. وفي الواقع فان الأمر لم يتم للاسرة العلوية إلا على أيدي المولى الرشيد ابن الشريف

الذي تولى الأمر بعد أن قتل أخوه محمد. والرشيد ١٠٧٥ ـ ١٠٨٢/١٦٦٣ ـ ١٦٧٢ ضم اليه أجناد أخيه ورتبهم، ثم «بعث رسله إلى الآفاق بالأعذار والانذار والوعيد لأهل الطاعة والعصيان» ثم سار قاصداً فتح البلاد من جديد، فاحتل تازا وسجلماسة، وانتقل الى حصار مدينة فاس فاحتلها وكتبت له البيعة فيها. وفتح الزواية الدلائية ومراكش وايليغ وسائر السوس.

ولما توفي الرشيد خلفه أخوه المظفر بالله المولى اسماعيل بن الشريف الذي حكم المغرب مدة طويلة (١٠٨٢ ـ ١١٣٩/١٦٧٢ ـ ١٧٢٧) وهو الذي أعاد إلى المغرب وحدته.

٢

لعل أهم الأحداث السياسية التي تمت في أيام الرشيد هو استيلاؤه على الزاوية الدلائية. ولما كانت هذه الزاوية قد قامت بدور كبير في الحياة العلمية والسياسية في المغرب في القرن السابع عشر، وفي حياة اليوسي بالذات، رأينا ان نخصها ببعض العناية في هذا المقال.

انشأ هذه الزاوية سيدي ابو بكر بن محمد الوجادي الزموري من قبيلة صنهاجة، وكان ذلك في اواسط القرن العاشر (السادس عشر). ولما كانت هذه الزاوية قد هدمت تهديماً تاماً سنة ١٠٧٨/١٦٦٨، فإنه لم يبق من أثرها ما يعين على وجه الدقة مكانها. الا أن التواتر التاريخي والبحث الصبور أديا إلى القول بأن الزاوية الدلائية كانت تقوم على مقربة من قرية معمر في جبال الأطلس الأوسط. أما طريقة مؤسسها فهي الشاذلية الجزولية.

وخلف أبا بكر ابنه محمد في مشيخة الزاوية ثم تلا هذا ابنه محمد الملقب بالحاج. وقد عمر هذا الاخير وتوفي بعد استيلاء المولى الرشيد على الزاوية. وفي أيام الشيخ محمد الحاج خرجت الزاوية من عزلتها العلمية واهتمت بالسلطة والسياسة بحيث شمل نفوذ الشيخ فاس ومكناس والرباط والغرب. وهذه المناطق مهمة جداً بالنسبة إلى من يتولى أمور المغرب. لذلك اهتم بوضع حد لنفوذ أهل الزاوية الدلائية. يقول اليوسي: «كان الرئيس ابو عبدالله محمد الحاج الدلائي قد ملك الغرب سنين عديدة واتسع هو وأولاده وأخوته وبنو عمه في الدنيا، فلما قام السلطان المولى الرشيد بن الشريف ولقي جموعهم ببطن الرمان دخلنا على الرئيس ابي عبدالله المذكور، وكان لم يحضر المعركة لعجزه وكبر سنه يومئذ، فدخل عليه أولاده وأخوته واظهروا له عجزاً شديداً وضيقاً عظيماً فلما رأى منهم ذلك قال لهم: ما هذا؟ ان قال لكم حسبكم فحسبكم يريد الله تعالى».

ولما دخل المولى الرشيد الزاوية «غيّر محاسنها وفرّق جموعها وطمس معالمها وصارت حصيداً كأن لم تغن بالأمس». الا ان المولى الرشيد، على ما يقول الزياني،

«لما خرج أهل الزاوية عفا عنهم ولم يرق دم واحد ولا كشف لهم عورة لحلمه وكرمه. ولما فرغ من أمر الزاوية أنقلهم (كذا) عنها لفاس» وكان ذلك سنة ١٠٧٩. ويضيف صاحب النزهة «واستوطنوها مدة ثم أُمر بهم ان يذهبوا عنه لتلمسان فذهبوا لها وسكنوها».

اما هذه الزاوية التي عمّرت قرناً ويزيد فقد كانت مركزاً من مراكز العلم في المغرب، وقد زودته بالعدد الكبير من علماء تلك الفترة. وفي الزاوية يقول مؤرخ الأدب المغربي الاستاذ عبدالله كنون «ولكن كان من الالطاف الخفية أن ظهرت الزاوية الدلائية في ذلك الحين فكأنما بعثها الله لحفظ تراث العلوم والآداب الذي كاد أن يضيع فقامت عليه خير قيام، وما هي الا مدة قليلة حتى صارت مركزاً مهماً لنشر الثقافة العربية بين قبائل البربر ومأزراً حصيناً للعلوم الاسلامية بالمغرب، وقد تخرج فيها عدد لا يحصى من العلماء الفطاحل، والأدباء الأماثل، يكفي أن نذكر منهم علامة المغرب في هذا العصر أبا علي اليوسي. والواقع أنه لو لم يقض عليها مولاي رشيد ذلك القضاء المبرم لكان للمعارف اليوم بالمغرب وخصوصاً القبائل شأناً (كذا) غير هذا الشأن».

وقد تحدث عنها اليفرني صاحب النزهة فقال «كانت مشرقة اشراق الشمس فمحت الحوادث ضياءها، وقلّصت ظلالها وأفياءها، وطالما أشرقت بأبي بكر وبنيه وابتهجت، وفاحت من شذاهم وتأرجت، ارتحل عنها فرسان الأقلام، الذين ينجاب بوجوههم الظلام، وبانت عنها ربات الخدور، وأقامت بها أثافي القدور، ولقد كان أهلها يعفون آثار الرياح فعفت آثارهم، وذهبت الليالي باشخاصهم وأبقت أخبارهم».

كما ان اليوسي، وهو الذي كانت تربطه بالزاوية رابطة روحية، رثاها بقصيدة طويلة منها قوله:

فبينا ليالي الوصل بيض وروضه	بفيض الندى كانت مرابعه خضرا
غدت غدوة ايدي الحوادث فاحتلت	خلالها فعادت بعد نضرتها غبرا
وأبدلن مأنوس الديار وأهلها	بوحش وحولن الاهيل بها قفرا
وبينا جموع الحي كالراح شبتها	بماء فما تخشى جفاء ولا نعرا
وكالفرقدين الطالعين تآلفاً	وصاحبي الملك الذي نادم الشعرى
أصابتهم عين الكمال فغادرت	أكفهم من كل ما جمعت صفرا

٣

خلف المولى اسماعيل أخاه الرشيد على المغرب سنة ١٦٧٢/١٠٨٢ وظل عليه حتى ١٧٢٧/١١٣٩، وقد أعاد الى المغرب وحدته، بعد أن نظم جيشه من الودايا والعبيد والحراتين، ورتب شؤون البريد وأمن الطرق وأخضع القبائل الثائرة. وكانت

«البلاد في أمن وعافية يخرج الذمي والمرأة من وجدة إلى وادي نون ولا يجدان من يسألهما من أين وإلى أين... ولم يبق بارض المغرب سارق ولا قاطع الطريق (كذا)». ثم التفت إلى الموانىء المغربية التي كانت خاضعة للاحتلال الاجنبي فاسترجع بعضها، حرباً أو سلماً، وهي طنجة والعرائش والجديدة، وأن كانت مليلة وسبتة ظلتا في أيدي الأسبان. وشجع اسماعيل القرصان المغربي وخاصة جماعة سلا، لكن أهم من ذلك كان اهتمامه بالتجارة. وعقد المعاهدات والمحالفات مع الدول الأوروبية.

واسماعيل هو الذي أعاد بناء مكناس واتخذها قاعدة ملكه. وقد جعل من هذه قبلة الفن والعظمة. وشهادة الزياني في البستان بذلك كافية، قال: «وقد شاهدنا آثار الأقدمين بالمشرق والمغرب وبلاد الترك والروم فما رأينا مثل ذلك في دولهم ولا شاهدناه في آثارهم، بل لو اجتمعت آثار دول ملوك الاسلام لرجع بها ما بناه السلطان الاعظم المولى اسمعيل رحمه الله في قلعة مكناسة دار ملكه ولم تزل تلك البناءات على طول الدهر قائمة كالجبال لم تخلفها عواصف الرياح ولا كثرة الأمطار والثلوج ولا آفات الزلازل التي تخرب المباني العظام والهياكل الجسام... ومن يوم مات المولى اسمعيل والملوك من بنيه وحفدته يخربون تلك القصور على قدر وسعهم وبحسب طاقتهم ويبنون بانقاضها من خشب وزليج [الفاشاني] ورخام ولبن وقرمود ومعدن وغير ذلك إلى وقتنا هذا، وبنيت من انقاضها مساجد ومدارس ورباطات بكل بلد من بلدان المغرب، وما اتوا على نصفها... وأما الجدران فلا زالت ماثلة كالجبال الشوامخ وكل من شاهد تلك الآثار من سفراء الترك والروم يعجب من عظمته ويقول ليس هذا من عمل بني آدم ولا يقوم به مال».

٤

عاش اليوسي في هذا العصر المضطرب سياسياً في أوله، المنتهي بالوحدة والأمن في آخره، والبلاد تتمخض عن احداث واحداث. وهو أبو علي الحسن بن مسعود من قبيلة ايت يوسي، إحدى القبائل الثلاث الكبرى في الأطلس الأوسط. ولد في جهات ملوية سنة ١٠٤٠/١٦٣١ على الأرجح، أي في الوقت الذي كان فيه المغرب يعاني فترة اضطراب كبرى. وقضى شبابه يعب من مناهل العلم ويتصل بأهل التصوف في سجلماسة ودرعة والسوس ومراكش ودكالة. وقد عدد شيوخه في فهرسته فكان منهم ابو بكر التطافي ومحمد بن عبدالله الحسني وعبد العزيز الفلالي ومحمد التجموعتي وأبو مهدي عيسى السجتاني ومحمد المزوار ومحمد الحشتوكي. ولعل اكبر شيوخه أثراً في نفسه هما الشيخان محمد بن ناصر ومحمد شيخ الزاوية الدلائية. وقد قال اليوسي نفسه عن ابن ناصر «كان الشيخ رضي الله عنه مشاركاً في فنون من العلم كالفقه والعربية والكلام والتفسير والحديث والتصوف، عابداً ناسكاً، ورعاً زاهداً، عارفاً قائماً بالطريقة، شارباً من عين الحقيقة، وكان رضي الله عنه مع

اكبابه على علوم القوم وانتهاجه منهج الطريقة لا يخل بعلم الظاهر تدريساً وتأليفاً وتقييداً وضبطاً، فنفع الله به الفريقين وصحبه الناس شرقاً وغرباً. فانتفع به الخلق، قائماً بالتعليم والتربية للمريدين بقوله وفعله، والترقية بهمته، عن همة عالية وحالة مرضية وعلم صحيح وبصيرة ونورانية مع التمكن والرسوخ، فكان اذا تكلم انتقش كلامه في القلب، واذا وعظ وضع الهناء مواضع القلب».

فلما وقعت بالزاوية الدلائية الواقعة ١٠٧٩/١٦٦٩ على ما مر بنا كان اليوسي ممن انتقل الى فاس حيث درّس في القرويين. وكانت دروسه مطمح انظار الطلاب، ولعل اصالة نظرته كانت العامل الاكبر في لفت النظر اليه، يضاف إلى ذلك ثقافة واسعة منوعة وحيوية كبيرة. وقد قال عنه العياشي:

من فاته الحسن البصري يصحبه فليصحب الحسن اليوسي يكفيه

ومما يدل على قيمة الرجل العلمية أنه اشترك في الموافقة على بيعة المولى اسماعيل بفاس سنة ١٠٨٢/١٦٧٢، وهو لم يمض عليه في تلك المدينة سوى اربع سنوات. على ان هذا المركز الذي حصل عليه اثار غيرة بعض زملائه، وكان الرجل محباً للتنقل، فرأى ان يخرج من فاس إلى مراكش ١٠٨٤/١٦٧٤. وقد قال في هذا فيما بعد:

ما انصف فاس ولا اعلامها علمي ولا عرفوا جلالة منصبي

لو انصفوا لصبوا الي كما صبا راعي سنين الى الغمام الصيّب

وأقام اليوسي احدى عشرة سنة في مراكش ١٠٨٤ ـ ١٠٩٥/١٦٧٤ ـ ١٦٨٥ حيث كان يقرىء التفسير في جامع الشرفا، مع خروج إلى جنوب المغرب بين حين وآخر. فالرجل، كما قلنا، كان استاذاً متنقلاً، كما كان من قبل طالباً متنقلاً، وظل كذلك طول عمره. وفي شعره يتشوق كثيراً إلى الاماكن التي عرفها. فالغرب ومكناس وحلفون ووادي ام الربيع وملوية وفزاز وغيرها يحن اليها ويذكرها بالخير. وكان الرجل وفياً لا للأمكنة فحسب ولكن للناس الذين صادقهم كأهل الزاوية الدلائية وشيخ القرويين عبد القادر الفاسي وابراهيم العطار وتلميذه ابن زاكور.

وفي سنة ١٠٩٥/١٦٨٥ عاد اليوسي إلى فاس، وعاد إلى القرويين. ولعله، بالاضافة الى الاقراء، كان يسهم في الحياة العامة. فقد اشترك في قضية تمليك العبيد المقيدين بالديوان وأيد زملاءه في خلافهم مع السلطان. ثم لما اراد المولى اسماعيل تجريد البربر من سلاحهم كتب اليه رسالة (يرد بعضها فيما بعد) يبين وجهة نظر الشرع في القضية.

وقد كان بعض الشيوخ يقول عن اليوسي انه مجدد هذه المئة، وفي هذا دليل على احترام الناس لعلمه. وفي سنة ١١٠١ خرج للحج في صحبة المعتصم ابن

السلطان. ومما هو جدير بالذكر ان اليوسي في رحلته هذه لم يحصل على إجازة ما ولم يمنح احداً اجازة. ولعل ذلك يرجع إلى شعوره بعلمه أو لعله تجنب الناس. فالرجل كان قد سئم الدنيا بعض الشيء. ولم يلبث بعد عودته إلى فاس ان توفي في اواخر ١١٠٢/خريف ١٦٩٢، وقد بلغ من العمر ستين عاماً. ودفن في ديار قبيلته في تامزيزت على مقربة من صفرو. ولا يزال ضريحه قائماً إلى الآن، وقد اتيحت لنا زيارته اثناء رحلتنا إلى المغرب. وقد ذكر صاحب «الاستقصا» وفاته بهذه العبارة «وفي سنة اثنتين ومئة والف توفي الشيخ الإمام، علم الأعلام، آخر علماء المغرب على الاطلاق، الذي وقع على علمه وصلاحه الاتفاق، ابو الحسن علي بن مسعود اليوسي... كان رضي الله عنه غزالي وقته علماً وتحقيقاً وزهداً وورعاً».

٥

رجال الفكر يؤثرون في معاصريهم تأثيراً مباشراً، اما اهل القرون التالية فيتأثرون بهم عن طريق مؤلفاتهم وما خلّفوه من ثروة ادبية أو علمية. واليوسي كان من كبار رجال العلم والمعرفة في المغرب في القرن الحادي عشر. فماذا كان أثره في معاصريه؟ وما الذي خلّفه لنا، وما هي قيمة هذا التراث؟

كان اليوسي في نظر معاصريه عالماً كبيراً وفي نظر تلاميذه صاحب رأي وأسلوب وفن. ولكن أكثر من هذا كله فإن اليوسي يمثل التفاعل بين المفكر وعالمه. ويبدو هذا في «فهرسته»، ويتضح في «قانونه»، ويتجلي في «محاضراته». فانظر اليه يحدثنا عن الشيخ عبد القادر الفاسي، فيقول عنه انه جالسه وتحدث اليه في قضايا هامة، وكان ان انعقدت بينهما اواصر الصداقة والأخوة بالله. فاليوسي لم يكن رجلاً يعب العلم ثم يفرغه دون ان يؤثر او يتأثر. فهو إذن تعلم وتحدث وناقش وحادث وانتهى هذا كله إلى قيام صلة خاصة مع الشيخ الفاسي، هي صلة اخوة بالله. وهذا هو التفاعل بين العالِم والعالم الذي يعيش فيه. اننا، على حد التعابير الحديثة، نقول إن اليوسي كان يعيش تجربة العلم والمعرفة، ويكفي ان يقول عنه صاحب الاستقصا انه كان «غزالي» زمانه.

اما بالنسبة لنا، نحن الذين نتعرف الى هذا التراث لنرى ما فيه، فان اليوسي خلّف لنا الكثير من المؤلفات. وقد وضع الاستاذ برك، من الكولج دو فرانس، جدولاً وافياً لمؤلفات اليوسي، نجتزىء هنا ببعضه تبياناً لفضل اليوسي.

(١) كتب في الفقه ـ «تعليق على شرح الكبرى» للسنوسي؛ «اجوبة» على مسائل وجهت اليه؛ «مشرب العام والخاص من كلمة الاخلاص» (ويسمى منهج الخلاص).

(ب) كتب المنطق ـ «نفائس الدرر» وهو شرح لشرح المختصر للسنوسي؛ «القول الفصل في تمييز الخاصة عن الفصل»، (ويسمى «الفرق ما بين الذاتي والعرضي»).

(ج) كتاب في التصوف ـ «الرائية في الحكم».

(د) كتب في الشرع ـ «الكوكب الساطع» وهو تعليق على جامع الجوامع للسبكي.

(هـ) وثمة مجموعة من الرسائل وجهها إلى المولى اسماعيل في امور مختلفة، والى اصدقائه. ومنها رسالة في علم «الهيئة».

(ز) على ان الكتب الثلاثة الهامة، والتي نود ان نتحدث عنها بشيء من التفصيل هي «الفهرسة» و«القانون» و«المحاضرات». وهي فريدة في بابها.

اما الفهرسة فهي ترجمة ذاتية علمية لليوسي، نسج فيها على عادة علماء المسلمين، والمغاربة خاصة، إذ ذكر فيها شيوخه وكبار العلماء الذين اتصل بهم وأخذ عنهم وقرأ عليهم. وقيمة الفهرسة انها حفظت لنا اسماء الكثيرين من علماء المغرب الأوسط والجنوبي الذين عرفهم المؤلف. الا ان اليوسي، وهو فريد في أمور كثيرة، جعل من الفهرسة مجالاً للتأريخ لتطور تفكيره وحياته الروحية. وقد اشرنا من قبل الى اشارته للشيخ عبد القادر الفاسي، ونرى انه من المناسب ان ننقل هنا ما كتبه عن نفسه. قال: «كانت قراءتي كلها او جلها فتحاً ربانياً، ورزقت ولله الحمد قريحة وقادة فكنت بأدنى سماع ينفعني الله، فقد أسمع بعض الكتاب فيفتح الله عليّ في جميعه فتحاً ظاهراً، وأبلغ فيه ما لم يبلغه من سمعته منه، ورب كتاب لم أسمعه أصلاً غير أن سماع البعض في كل فن صار مبدأ للفتح وتتميماً لحكمة الله في سنة الأخذ عن المشايخ، ولا تستوحش مما ذكرناه ظناً منك ان الربح ابداً يكون على قدر رأس المال، كلا، فقد يبلغ الدرهم الواحد الف مثقال وما ذلك على الله بعزيز».

و«القانون في ابتداء العلوم» وضعه اليوسي في أخريات ايامه. وهو موسوعة في تصنيف العلوم عامة، وان كان اكثر الكتاب في العلوم الاسلامية.

يعالج المؤلف في مفتتح كتابه معنى العلم وقيمته. ثم يأخذ العلوم نفسها فيقيم كلاً منه ويصنف نواحيه. فهو عندما يتحدث عن التاريخ، مثلاً، يبين مختلف المناهج التي سلكها مؤرخو الاسلام والمواضيع التي طرقوها. ويوضح للقارىء ـ والقارىء عنده هو المتعلم، فالكتاب وضع اصلاً لهؤلاء ـ محتويات كل علم كما يبين العوامل الاجتماعية في تطور العلوم. والكتاب يحوي الأيام والقصص والتاريخ والمنطق والشريعة. فهو باختصار موسوعة للفكر في القرن السابع عشر الميلادي في المغرب. ويمتاز هذا الكتاب باسلوبه الممتع، واليوسي يكتب كما ينظم، دون تكلف او تصنع كما ان ترتيبه كله منطقي.

واذا كانت «الفهرسة» مرجعاً لمعرفة علماء العصر والقانون سبيلاً لمعرفة القرن، فان المحاضرات هي شخصية اليوسي عندما يتاح لها ان تنطلق على سجيتها. فقد وضع هذا الكتاب في شتاء سنة ١٠٩٥/١٦٨٥ وكان في زيارة لمصمودة في مساكنها في جنوب المغرب. ولعل خير وصف «للمحاضرات» ان نعتبره تأملات اليوسي. وقد

دونت فيه الآراء والروايات والأدب والقصص والعبر والنظرات دون ترتيب معين. ولعل اليوسي لم يرد لها اي ترتيب بدليل انه لم يعد ترتيب كتابه أو ينقحه فيما بعد. ولو أراد لاستطاع ذلك. فالكتاب فيه خمسة وعشرون فصلاً مختلفة الطول والقصر، وليس فيها ما يدل على التقسيم إلى فصول الا ورود قوله تعالى «لله الأمر من قبل ومن بعد»، بين فصل وآخر. والأول منها فيه بعض اصول للنقد والأدب وما إلى ذلك، ثم يلي ذلك شيء من كل شيء ـ الاخبار والنوادر والشعر والأنساب والمعرفة الصوفية. هنا، في هذا الكتاب يتم التفاعل بين اليوسي العالم وبين العالم الذي يعيش فيه، بين اليوسي والمغرب في القرن السابع عشر.

٦

اوردنا من قبل أبياتاً من شعر اليوسي وأوردنا نماذج من نثره في حديثه عن ابن ناصر وعن نفسه. وها نحن نختم هذا المقال المقتضب عنه بنماذج أخرى من شعره ونثره.

فمن شعره من قصيدة حكمية:

إنا اناس لست تبصرنا	نتحين الطعم التي تزري
يعرى الفتى ويجوع وهو يُرى	متجملاً بالصبر والبشر
والحرة الشماء ربما	جاعت ولم ترضع على اجر
والمورد العذب الفرات اذا	راثته حمر سيم بالهجر
واذا ترى طيراً بمزبلة	فالطير غير الباز والصقر
واذا رأيت المرء محتسياً	كأس الهوان فليس بالحر
والحر ليس حياته بسوى	عز الجناب ورفعة القدر

ومن نثره ما رواه من مناظرة بينه والشيخ المرابط، قال «ومما اتفق لي اني كنت قدمت في اعوام الستين والف من رحلتي في طلب العلم وكنت إذ ذاك شاباً فدخلت الزواية البكرية فوجدت شيخنا أبا عبدالله المرابط رحمه الله قد جمع خطباً وعظية وتقدم الى أهل الوقت في بلده ليكتبوا عليها تقريظاً. فكتب كل ما قدر له من نثر او نظم فلما رأيت ذلك كتبت انا ايضاً فوقع في مكتوبي لفظ القطائف واللطائف فاعترض عليّ ورام تبكيتي، وقال انا لا اعرف القطائف إلا هذه المفروشات. فقلت له ان القطائف هنا جمع قطيفة بمعنى مقطوفة فقال هو صحيح في اللغة ولكن الأدباء لهم الاختيار وعندهم ألفاظ يستعملونها مخصوصة فلا يرتكب عندهم كل ما يقع في اللغة. فقلت حينئذ هذا ابو محمد الحريري يقول في مقاماته:

فلا تعذلوني بعد ما قد شرحته	على ان منعتم في اقتطاف القطائف

علـى ان مــــــا زودتـم مـن فـكـاهـة ألـذ مـن الـحـلـوى لـدى كـل عــــارف

فتلون وجهه رحمه الله وخجل ولم يراجعني بكلمة».

وجه اليوسي إلى السلطان عدداً من الرسائل حول الشؤون العامة، ذلك ان الرجل لم يعش في برجه العاجي. وها نحن ننقل جزءاً من رسالة فيها نموذج جيد من اسلوب اليوسي الرائق. قال: «الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه اجمعين، قطب المجد ومركزه ومحاز الفجر ومأزره، وأساس الشرف الباذخ ومنبعه، ومناط الفضل الشامخ ومجمعه، السلطان الأعظم الأجلّ الأفخم، مولانا اسماعيل ابن مولانا الشريف لا زالت اعلامه منصورة، وأيامه على العز واليمن مقصورة، سلام على سيدنا ورحمة الله وبركاته، هذا ولا زائد عندنا سوى المحبة لسيدنا وغاية التعظيم والإجلال، والدعاء لسيدنا بصالح الأحوال، وذلك بعض ما أوجبته يده المبسوطة علينا بالبر والإحسان، والفضل والإمتنان والتوقير والاحترام والانعام والاكرام، مع ما له علينا وعلى غيرنا من الحقوق التي أوجبتها منزلته السلطانية، ومثابته الطوقية الفاطمية، فكتبنا هذه البطاقة، وهي في الوقت منتهى الطاقة، وكنا كثيراً ما نرى من سيدنا التشوق إلى الموعظة والنصح، والرغبة في استفتاح ابواب الربح والنجح، فأردنا ان نرسل إلى سيدنا ما ان وفق إلى النهوض اليه رجونا له ربح الدنيا والآخرة، والارتقاء إلى الدرجات الفاخرة، ورجونا وإن لم نكن أهلاً لأن نعظ، ان يكون سيدنا أهلا لأن يتعظ، وان يحتمي من جميع المذام ويحتفظ، فليعلم سيدنا ان الأرض وما فيها ملك لله تعالى لا شريك له، والناس عبيد لله سبحانه واماء له، وسيدنا واحد من العبيد وقد ملكه الله عبيده ابتلاء وامتحاناً، فإن قام عليهم بالعدل والرحمة والانصاف والاصلاح فهو خليفة الله في أرضه وظل الله على عبيده وله الدرجة العالية عند الله تعالى، وان قام بالجور والعنف والكبرياء والطغيان والإفساد فهو متجاسر على مولاه في مملكته ومتسلط ومتكبر في الأرض بغير الحق، ومتعرض لعقوبة مولاه الشديدة وسخطه، ولا يخفى على سيدنا حال من تسلط على رعيته يروم تملكهم بغير اذنه كيف يفعل به يوم يتمكن منه، ثم نقول: ان على السلطان حقوقاً كثيرة لا نفي بها الطاقة، ولنقتصر منها على ثلاثة هي امامها، الأول: جمع المال من حق وتفريقه في حق. الثاني: إقامة الجهاد لإعلاء كلمة الله وفي معناه تعمير الثغور بما تحتاج اليه عدد وعدة. الثالث: الانتصاف من الظالم للمظلوم. وفي معناه كف اليد العادية عليهم منهم ومن غيرهم، وهذه الثلاثة كلها قد اختلت في دولة سيدنا فوجب علينا تنبيهه لئلا يعتذر بعدم الاطلاع والغفلة فان تنبه وفعل فقد فاز، وذلك صلاح الوقت وصلاح اهله وسبوغ النعمة وشمول الرحمة وإلا فقد أدينا الذي علينا».

هذا هو اليوسي العالم الأديب المؤرخ الصوفي الشاعر ـ خلاصة العلم والمعرفة في المغرب في القرن السابع عشر.

ابن زاكور شاعر المغرب

ابن زاكور من نتاج عصر من عصور المغرب الزاهر في العصور الحديثة، اذ كان يتولى أموره المولى اسماعيل ١٠٨٢ ـ ١١٣٩/١٦٧٢ ـ ١٧٣٠ وهو الذي وحد البلاد وردّ عنها العدوان وشجع الأدب وقام لأهله دولة.

وابن زاكور فاسي المولد، ويرجح الاستاذ عبدالله كنون انه من مواليد سنة ١٠٧٥/١٦٦٤. وفاس كانت دوماً من مراكز العلم الكبرى لا في المغرب فحسب ولكن في العالم العربي الاسلامي. ولذلك فقد أتيح لأبي عبدالله محمد بن زاكور الجو الملائم لنهل المعرفة، والعلماء الأجلاء يأخذ عنهم. وقد كان فيمن تلقى العلم عنهم في فاس احمد بن الحاج وقاضي بردلة وأبو على اليوسي. لكن ابن زاكور رحل الى مراكش وتطوان والجزائر، وكان يسير مفتح الذهن محباً للمعرفة، فيأخذ عمن لقيهم هنا وهناك، ومنهم ابو العباس العطار (بمراكش) والشيخ علي بركة (بتطوان) والشيخ محمد بن سعيد قدورة وعمر المانجلاتي (بالجزائر).

بدأ ابن زاكور بنظم الشعر وهو بعد صبي غض الاهاب، وذلك قبل رحلته التي دوّنها في «أزاهر البستان». ويبدو أن تنقله زاد، وحبه للارتحال نما مع السنين، حتى أصبح «جوابة أقطار وحليف أسفار». وهذه الأسفار وسّعت آفاقه وصقلت نفسه وأكسبته اختبارات وتجارب كثيرة، ولذلك نضج نظمه وجاد نثره لا من حيث الأسلوب فحسب، ولكن من حيث المحتوى. ويعزو الاستاذ عبدالله كنون إلى اتصال ابن زاكور بأبي علي اليوسي بعض الفضل في توجيهه الأدبي. فهو يقول في ذلك: «ثم هناك عامل آخر أثر جداً في توجيهه الأدبي وطبعه بهذا الطابع القوي الذي ظهر به كعالم لغوي يشرح ديوان الحماسة ولامية العرب ويفسر غريبهما وإشاراتهما وأمثالهما إلى غير ذلك من نظم عدة قصائد على مذاهب شعراء البادية ومن نحا نحوهم من علماء اللغة مرتكباً فيها أنواع الغريب، وملتزماً للقوافي الصعبة كالثاء المثلثة والذال المعجمة ونحوهما، هذا العامل هو اتصاله بأبي علي اليوسي وأخذه عنه وكرعه من حياض معارفه الأدبية واللغوية ونسجه على منواله في شعره، فان أبا علي اليوسي كان ريان من علوم اللغة والأدب ناسلاً إلى فنونهما من كل حدب. وقد أتى في شعره من ذلك بكل غريب، وامتلأ ديوانه بما فيه متعة للغوي والأديب».

وعلى كل، فقد كان ابن زاكور يعرف لأبي علي اليوسي فضله. وكثيراً ما ذكره في

نثره وشعره. فمن ذلك قوله عنه: «وأما حبر الاحبار، وزين القرى والأمصار، العديم النظير في سائر الاقطار، من أسعد بمطالع أنواره كواكب نحوسي، مولانا أبو علي سيدي الحسن بن مسعود اليوسي أطال الله مدته، وحمى من نوائب الحدثان حوزته، فقد ورد في شوال سنة خمس وتسعين لهذه الحضرة، وأعارها بقدومه ابتهاجاً ونضرة. فأقدم بها إماماً، ونقع بها لكل ظمآن إلى ورده أواماً، وأعد نيران الجوانح على الأفئدة برداً وسلاماً، فلازمت منه بحراً زاخراً، ونظمت من نفيس فوائده لؤلؤاً فاخراً».

ولما توفي اليوسي رثاه ابن زاكور بهذه الأبيات:

يا جميل الصبر لب من دعا ... قبل أن يقضي مما فجعا

لب شخصا جوعا من موت من ... ذاب من خشية ربي جزعا

واحتسب يا طالب العلم امرا ... مات فيه العلم والدين معا

وابن زاكور ، مثل معاصريه، درس الفقه والحديث والاصول والتاريخ والادب. وكما تعلم فقد علَّم. فاشتغل بالتدريس طويلاً، وبرع في هذا الفن. ويبدو أن معاصريه عرفوا له ذلك، ودونوه، على طريقتهم، في غير مكان واحد. ولعلّ شهادة الشيخ علي بركة وتحلية ابن الطيب العلمي كافيتان للدلالة على ذلك. فقد قال الاول: «من شب به زمام الادب بعد الهرم، وهب به اوان المجد والحسب وقد اسفى على العدم الذي ركض في مضامير البلاغة صافنات جياده، وعقد شذور البراعة على لبات عصره واجياده: الجهبذ الاريب المصقع الاديب الثقف اللقن المتفن المشارك المتقن الفقيه النبيه الزكي الوجية ذو الفضل المعروف غير المنكور ابو عبدالله سيدي محمد قاسم بن محمد عبد الواحد بن زاكور».

وتحلية ابن الطيب العلمي توضح دور ابن زاكور المدرس. فقد قال العلمي: «وحيد البلاغة، وفريد الصياغة، الذي ارسخ في ارض الفصاحة اقدامه واكثر وثوبه على حل المشكلات واقدامه، فتصرف في الانشاء وعطف انشاءه على الاخبار، واخباره على الانشاء وقارع الرجال في ميادين الارتجال، وثار في معترك الجدال ما شاء وجال، فهو الذي باسمه في الاوان هتف، وهو الذي يعرف في كل العلوم من اين اكل الكتف، جلس للاقراء في شبابه فاتى بيت التدريس من بابه، وتأسى في الصلاح بأربابه، ولم يصب لربوبه ولأربابه، فتكلم في المذهب وذهب في التحقيق كل مذهب، واوجز ما شاء، واسهب، وطاول في الفروع ابن قاسم واشهب. وخاض في العقول فبهر العقول، ووقف التحقيق عندما يقول، وتصدر في السيرة، واحكم القرآن وتفسيره، وحرر حرز امانيه وتيسيره، وتجافى في الرواية من الغواية، والف في الاصول ما لم يزل به بين الاقران يصول، وقام للعروض، بالنوافل والفروض، ففك منه الدوائر، وسلم فيه من الدوائر، واختار المراقبة فبرىء من المعاقبة».

وقد ترك لنا ابن زاكور ستة عشر كتاباً ورسالة، اكثرها لم ينشر بعد. والمهم أن

اكثر هذه الكتب هي في الواقع تعليقاته وشروحه وتفاسيره لبعض ما درس. فهي، لو اردنا ان نطبق عليه ما نقوله عن الاساتذة المحدثين، محاضراته منسقة مرتبة. فقد اقرأ ابن زاكور ديوان الحماسة وقلائد الفتح بن خاقان وبديعية الصفي الحلي ولامية العرب، فشرح هذه لطلابه، ودوّن هذه الشروح في اسفار تحدرت الينا. كما أنه تعرض لامور اللغة فقرأ طلابه عليه المقصور والممدود لابن مالك ووضع رسالة في قصر المفعول على الفاعل والفاعل على المفعول. وهناك أمور أخرى سمعها طلابه منه. ولذلك فمؤلفات ابن زاكور هي من نوع الكتب المدرسية، لكنه في الواقع وضعها بشكل مرتب، يدل على ادراك لواجبه وفهم عميق لمادته.

وكان ابن زاكور، فيما عدا الكتابة المدرسية، يكتب بعد أن يحس ويشعر، فتبدو عباراته وكأنها جوارحه تسيل على الورق. وان كان يلجأ إلى السجع غالباً، فسجعه خفيف على السمع والنفس. فمن ذلك وصفه لكيتان وهو متنزه بتطوان اذ قال: «وهذا الكيتان من اجمل المواضع وأفضل المتنزهات والمصانع، تطرد خلال رياضه أنهار، تجري في الصباح بذائب اللجين وفي الأصيل برائق النضار وتسجع بأدواحه اطيار، لا تدانيها نغمات الاوتار، فقد اعتدل هواؤه، واشتمل بالابتهاج بهاؤه، تغض الزهراء بطلاوة مرآه، وتود الزهرة لو ترتدي حلاه، وتحسد جماله النضير، وطرازه المرونق محاسن السدير، وبدائع الخورنق ترتاح النفوس في بساتينه وتحيى الارواح بشم رياحينه، ان حل من انحله الوجد برباه، صاح من حينه: واطرباه! واسلاه تسلسل غدرانه، وتغريد ورشانه عمن قطف لبه باجفانه، ومزق قلبه بهجرانه».

جمع ابن زاكور شعره في ديوان سماه «الروض الاريض في بديع التوشيح ومنتقى القريض». وقد نشر الاستاذ عبدالله كنون مختارات منه في العرائش (بالمغرب) سنة ١٩٤٢. وقد قدم ابن زاكور لديوانه، على طريقة الكثيرين السلف الصالح، بخطبة مختصرة، اشار فيها الى انه كنى فيه كثيراً مع انه كان بريئاً. فهو يستعمل «المدام والراح كناية عن الطرب والارتياح، وما يرد على القلب من الافراح».

كان ابن زاكور مغرماً بأماكن النزهة الجميلة، فيتأثر بها، وعندها ينطلق شعره نابضاً بالحياة معبراً عن جمال الأمكنة. وكان وفياً لاصدقائه، لذلك كان شعوره بالمكان يمتزج بشوقه للصحب، فيكون من ذلك شعر صاف جميل، وهو من امتع شعره. فقد وصف لمطة بابيات اربعة هي:

لمطة فيها ما تحب النفوس	وما يريح القلب من كل بوس
هواؤها يحيى قتيل المنى	وماؤها يقتل حيّ النحوس
وتهبها ينبت مجلي الضنا	وجوّها يطلع مسلي النفوس
لوحلَّ فيها من براه الجوى	علّله الانس بأسنى الكؤوس

ومما يدل على انسجام ابن زاكور بالاماكن التي يقصدها وغرامه بالطبيعة

الأبيات التالية يصف فيها البحر، وهي من قصيدة طويلة:

البـحـــر قـــد ابدى سنا نضــرته	فـهــامت الاعــين في بهــجــتــه
قــد خلع الحــسن عليــه حلى	وانتظم الابداع فـي لبــــتـــه
كــأنه والشــمس قــد اودعت	شـعـاعـهــا الانضــر في لجـتـه
مطارف العــقــيــان قــد طرزت	بـاللازورد الـغـض من زرقــتــه
ذكــرني عــهــداً لنا قــد مــضى	بـأرض تطوان على ضــفــتــه
فــي جـنــة اربـت عــلــى جــلــق	علمــهــا الحــسن بألويتــه
مــا شــئت من نور كــدر على	زبرجــد يســبي سنا خــضــرته
ومن غـصـون قـد سـقـاها الحـيـا	فـعــربدت بالرقص من خــمــرته
دبجــهــا النوار من اصــفــر	يحكي النضــار الغض في كـهـبتـه
واحــمــر يشــبــه خــد الذي	أنحلني الشــوق إلى رؤيتــه

لابن سهل موشحة جميلة مطلعها «ليل الهوى يقظان»، وقد عارضها ابن زاكور بموشحة ننقلها فيما يلي للقراء:

مــن عـلَّــم الـغــــزلان	الفــتك بالـليث الجـــري
وسـلـط الـعــيــنــان	عـلى قلوب البــشـــر
يـا ضــــرة الـشـــمـس	الله فـي الـصـب كــئـيب
يـا مـنـيـــة الـنـفـس	هـجـــرك للـنـفـس مــذيب
حـــدثـنـي حــــدسـي	انـــك لــب ســلــيـب
باســهـم الاجــفــان	ذات العــذاب الاكــبــر
مــصــمــيــة الولهــان	بـالـدعـج والـحـــور
مــا ضــر يا مــحــبــوب	يـا هـاجـــري بـلا ذنـوب
لــو تــنــعــش الـمــطــلـوب	بـلـفـظـك العـــذب الـخـلـوب
بغــاية المــرغــوب	من وصلك المــحــيى القلوب
تـذكـــر يـا وسـنـان	يـا ذا الـرواء الانـضـــر
ليــالـي الســتــان	تحت العــريش الاخــضــر
وانـا فـي نـشـــوة	من خــمــر ثغــركِ النقي
مــهــيـج الصــبــوة	لـكـل مـن لـم يـعــشـق
لم تـعــرنـا جــفــوه	تثــيــر نـار حــرقـي
مــا بـيـنـنـا الـنـدمــان	إلا اريـــج الـــزهـــر

أو نغمة الورشان   على غصون الشجر
والبدر من بعده   يرقبنا بكل عين
ارسل من وجده   عينا علينا الفرقدين
فخاب في قصده   وخيبة الرقبان شين
والورق في الاغصان   فاقت حنين الوتر
بمطرب الالحان   عند الصباح المسفر
تثير اشواقي   بصوتها المبري السقم
قامت على ساق   اذ عنبر الليل بسم
عن ثغر اشواق   تشدو بطيب النغم
مقال ذي اشجان   حلف اسى وضرر
(ليل الهوى يقظان   والحب ترب السهر)

على مقربة من مكناس، في المغرب، تقوم بلدة زرهون في رقعة من الأرض جادت عليها الطبيعة بكل عناصر الجمال. وزيادة على هذا فان زرهون فيها مقام الفاتح الاكبر ادريس بن عبد الله. وقد اشرف ابن زاكور على المقام فقال يحييه:

هذا هلال المغرب   هذا مجلي الغيهب
هذا الذي انواره   تفوق كل كوكب
هذا الذي من امّه   لا يختشي من نسوب
هذا الذي من زاره   ليس يرى من تعب
هذا رفيع الرتب   هذا عظيم المنصب
هذا عريق الحسب   هذا شريف النسب
هذا الرضى ادريس نجل   (الكامل) المهذب
شمس الهدى ابن حسن   بن حسن المنتخب
ابن علي والبتو   ل خير أم وأب
بنت الرسول المصطفى   ى المجتبى المقرب
محمد أزكى الورى   من عجم أو عرب
صلى عليه الله ما   لاح ضياء الشهب
وآله وصحبه   من كل ليث محرب

ولابن زاكور موشحات كثيرة، وقد كان هذا أمراً شائعاً بين الأدباء، تقليداً للموشحات الاندلسية والمغربية الاقدم. ومن موشحاته ما قاله في المولى اسماعيل، سلطان المغرب في ايامه:

له همة الاسد ... وفتك البزاة
وفيه حيا الخلود ... وحلم الثقات
وعفة ذي النسك ... ونفع المسطر
ورائحة المسك ... وحسن القمر
بقية سنا الملك ... منير الغرور
تعلّ ذوي السود ... بكأس الهبات
أيا كوكب السعد ... وعين الحياة
أمولاي اسماعيل ... أشمس الملوك
بمدحك صار القيل ... كبدر السلوك
وكاد من التسهيل ... على من يحوك
ينال بلا قصد ... رقيق السمات
كما فاح من نجد ... لطيف النبات

أبو القاسم الزياني

١

اذا عدّ اعلام المغرب في القرن الثامن عشر ومطلع التاسع عشر للميلاد كان ابو القاسم الزياني في مقدمتهم. فقد كان رجل سيف وقلم وادارة، اذ عهد اليه بادارة وجدة وتازة ومكناس وطنجة وتطوان والعرائش وسجلماسة، كما ولي امر التفتيش على مراسي المغرب ومراقبة عمالها. ولي الكتابة والوزارة والحجابة في بلاط سلاطين المغرب، كما قاد الجيوش غير مرة. ورحل الزياني إلى المشرق ثلاث مرات اولاها مع والديه لاداء فريضة الحج، وثانيتها ذهب في سفارة عن السلطان إلى استانبول عاصمة الخلافة. أما الثالثة فكانت رحلة خاصة قام بها وقد بلغ الستين من عمره فزار الجزائر وتونس واستانبول ومصر والديار المقدسة. ومع كل هذه الاعمال والرحلات فقد وجد من الوقت ما مكّنه من وضع خمسة عشر كتاباً في التاريخ والجغرافية وغيرهما. ولم تكن ايام الزياني ايام رخاء كلها. فقد لقي في حياته نكبات على ايدي رجال الحكم في فاس. فاستصفيت امواله وصودرت املاكه واوذي في شخصه. فالرجل، كما نرى، حري بأن يذكر وإن يعد من أبرز اعلام المغرب في تلك الفترة.

ولد ابو القاسم سنة ١٧٣٥/١١٤٧ في فاس، وكان ابوه قد انتقل اليها قبل ذلك بثماني سنوات. واسرته من قبيلة اركو، حيث كان يقيم جده لابيه، وكان تقياً ورعاً، فوقع اختيار السلطان مولاي اسماعيل عليه، لانه كان رجل فقه ودين، ليؤمه في الصلاة، وبذلك نقل إلى مكناس. وقد علق المؤرخ ابو القاسم على ذلك فيما بعد بقوله «فهذا سبب انتقال جدنا من آركو إلى الحضر». وبعد وفاة السلطان انتقل والد ابي القاسم الى فاس كما ذكرنا.

طلاب العلم في المغرب كانوا دوماً يرحلون الى فاس ليتثقفوا، ولكن ابا القاسم كان فيها، وكان في اسرته للعلم حرمة وللتعلم مكانة. وهكذا كان أول معلمي مؤرخنا ابوه واصدقاء ابيه، وهم في الطبقة الأولى من أهل المعرفة انذاك، كمحمد بن الحسن بناني ومحمد بن الطيب القادري وعمر الفاسي. وهؤلاء وسواهم كانوا من أهل القرويين وهم الذين تخرج عليهم ابو القاسم في الفقه والحديث والتفسير والنحو والمنطق. اما كناشات العائلة، وخاصة كناش جده، فقد فتح عينيه على التاريخ والانساب. فلما تقدم

به العمر، واتسعت خبرته، وعرف الدنيا خيراً وشراً، وكتب تجاربه ودون ما اتسع له عقله وقلبه، بدت هذه المعرفة على نوعيها في الذي خلفه لنا.

على ان الزياني كان على معرفة بعلم آخر: هو الذي سماه الناس من قبل مسائل الخط والجدول، واطلقوا عليه علم السيمياء أو العلوم السرية. وليس من السهل ان يقطع برأي عن مصدر هذا العلم، أو هذه الحيل، بالنسبة اليه. فالاستاذ عبد الله كنون يقول في ذلك «ولا يبعد في نظرنا ان يكون هذا الكناش، الذي حوَّل معارف جده، هو الذي لقنه تلك العلوم السيمية من سر الحرف والجدول وغيرهما، وان لم يذكر ان جده كان على بال منها لان عادة اهل هذه العلوم اخفاؤها وعدم البوح بها الا لخاصة من احبابهم».

ولكن الزياني نفسه، اذ يتحدث عن اقامته في القاهرة مع اهله في بيت صاحبهم الذي نزلوا عنده، يشير الى تعلمه الكثير من مسائل الرمل والسيمياء من ابن صاحبهم. فيقول: «وفي اقامتنا بمصر كنت أجالس بالبيت ابن ذلك الصاحب، واشاهد منه عجائب كان له يد في علم الرمل وعلم السيمياء ومن رأى تصوراته يحسب انه من الاولياء فشغفت بفنه واتخذته شيخاً ولازمته حتى ملكت لبه بالسخاء فجاد هو ايضاً بما عنده في الجريب، وافادني في أمد قريب، واوقفني على ما في علمه من خواص المعادن وما ينشأ عنها من الاسرار والعجائب، التي يبلغ بها اعلى المراتب، واطلعني على ما يلحق بها من الحيل التي يستعملها المشعوذون ومن بحرها يستمدون فعدت بذلك مسروراً».

ولعلَّ الزياني عرف من هذا العلم بعضه وهو في المغرب، وازداد به معرفة وهو في مصر. أما درجة اتقانه له، مع عدم اهتمامه بالافادة منه في جر مغنم أو رياسة، فقد تحدث الزياني نفسه عن ذلك تصريحاً عن المعرفة وتلميحاً عن نفسه قال: «كيف لو علم منها ما يعدُّ من الكرامات، ومن يشاهده لا يشك انه من اكبر العلامات، اذاً لادَّعى النبوة وانواع الرسالات فاني اعرف الرجل يلقي من يده السبحة فتسعى اليه بعد الاستدعاء ولا يرتكب هذا التدليس والافتراء، ويتكلم على المصباح الموقود فيطفى، ويضع الحاجة [الشيء] امام القوم فتخفى ويتكلم على المصباح الذي انطفأ فيشتعل، وعلى النائم فينفعل، ويصب الماء في الاناء فيجمد، ويقرأ على النار فتخمد، ويكتب المكاتب لمن بالشرق ويلقيها من خلفه، ثم يفتحها فتوجد اجوبتها كل على وفقه، ويستخرج اسم الرجل المجهول واسم ابيه وامه، وقبيلته وفصيلته وقومه ويلقي على النحاس المذاب غباراً فيصير نضاراً، وهز زاهد في ذلك [يعني دعوة المشيخة] ورع في حيز الاهمال، لا يلتفت لمنصب ولا جاه ولامال، مقبل في بيته على تسويد الاوراق، بما شاهده في الجولان بالآفاق».

٢

وقع المغرب اثر وفاة السلطان مولاي اسماعيل (١١٣٩/١٧٢٧) في حالة من الفوضى والفتن، واضطرب حبل الامن فيه، وحار العقلاء ما يفعلون. ذلك بأن اليد القوية التي كانت تمسك بالازمة في البلاد فقدت وتلا ذلك انفجار لجميع العناصر والقوى التي كان المولى اسماعيل قد هدأها أو سيطر عليها. وكان عمر، والد ابي القاسم، فيمن اعتزم على الرحيل عن المغرب، والاستقرار في ارض الحجاز مجاوراً في المدينة المنورة. ففي عام ١١٦٩/١٧٥٥ باع عمر دارين كان يملكهما بفاس وكتباً كان والده قد خلفها له، وجمع من ذلك ما يبلغه مراده. وارتحل مع زوجته وابنه ابي القاسم حتى وصلوا مصر.

«ولما بلغوا مصر كان مرادهم ان يصحبوا ركب الحاج الا ان بعضهم أشار على والده بركوب البحر لكونه اقرب مسافة واقل مشقة. واشترى له سلعة بقصد التجارة، ففي مرسى الينبع تكسّر المركب وضاعت السلعة وتلفت لأسباب وحمدوا الله على عتق رقابهم، وكانت هذه النكبة هي أولى النكبات السبع التي اصابت المترجم واثرت في حياته تأثيراً عظيماً. وهناك اخرجت والدته من حزامها ٣٠٠ دينار، لم يكن لهم بها علم، وانما كانت قد أدخرتها لمثل هذا اليوم فمنها اكتروا لجدَّة ومكة واقاموا الفرض كما يجب وتوجهوا الى المدينة بقصد الزيارة فقط، لأن المجاورة مع ذهاب البضاعة التي كان معوِّلهم عليها اصبحت مستحيلة، فرجعوا إلى مصر وكانوا قد تركوا بها بعض الاسباب عند صاحبهم بقصد بيعها، فباعوها وتحصل فيها مبلغ ٦٠٠ ريال، فبها اصلحوا الاحوال واستعدو للرجوع إلى المغرب حيث بلغهم خبر وفاة السلطان مولاي عبدالله وبيعة مولاي محمد».

وكانت طريق عودتهم من الاسكندرية الى فاس متعرجة. فقد ذهبوا اولاً إلى ايطالية حيث قضوا اربعة اشهر، ثم انتقلوا إلى مرسيليا ومنها إلى برشلونة ثم الى تطوان ففاس.

هذه الرحلة التي دامت ثلاث سنوات كانت فاتحة طيبة للشاب الذي كان قد تعلم ما عند اهل القرويين وما في كناش جده وما كان في فاس من علم الجدول. فقد اثارت فيه الانفعالات واكسبته التجربة التي قلما تعدلها تجربة، وانارت سبيله. فلم يظل ذلك العالم المحدود، وانما اصبح عالم الحياة المتسعة ايضاً.

خلف السلطان مولاي اسماعيل في ملك المغرب، في الفترة التي اتصل فيها ابو القاسم الزياني بالبلاط وخدمته عبدالله بن اسماعيل ١١٣٩ ـ ١١٧٠/١٧٢٧ ـ ١٧٥٧ ومحمد بن عبد الله ١١٧٠ ـ ١٢٠٤/١٧٥٧ ـ ١٧٩٠ واليزيد بن محمد ١٢٠٤ ـ ١٢٠٦/١٧٩٠ ـ ١٧٩٢ وسليمان بن محمد ١٢٠٦ ـ ١٢٣٨/١٧٩٢ ـ ١٨٢٢.

عاد ابو القاسم من رحلته وتفقد اصحابه، فوجدهم قد تعلقوا بخدمة السلطان فانحاز إليهم، واصبح كاتباً في البلاط العلوي.

ولكن بلاطات الملوك يرتفع فيها الناس، ويهبطون، ويسرون ويألمون، ويفرحون ويترحون، اذ يقيم فيها الناصحون والحاسدون والوشاة، والذين يملأ الغيظ نفوسهم والذين يأكل الحسد قلوبهم. وتطلّع هؤلاء الى الزياني الشاب يتربع حيث هو، فلم يرق لهم ذلك فوشوا به فطرده السلطان بعد عشر سنوات من الخدمة، وظل مدة مهدداً بالقتل. ولكن عرضت للسلطان مشكلة فيما بعد فاستشار الزياني، وكان منبوذاً مطرحاً مع الجيش، فمحض السلطان النصح فأعاده السلطان الى ما كان عليه، وزاد إكرامه ورفع منصبه اذ جعله رئيساً للكتبة. ولما كسر السلطان شوكة عمه الحسن بن اسماعيل، اثر ثورة قام بها، انتدب الزياني لمفاوضة العم، فنجح وجاء الحسن الى مكناسة ومعه «اولاده الثلاثة... وعدد من المدافع والمهاريس والقذائف وطائفة من الطبجية الالمان والف من عسكر الثغور». ووجهه السلطان الى المغرب ليأتيه بجيش من عبيد الثغور فنجح في ذلك ايضاً. وفي سنة ١٢٠٠/١٧٨٥ سفر الزياني عن السلطان الى الخليفة العثماني عبد الحميد الأول، ونجح في مهمته ايضاً. وتقلب في وظائف عدة: فولي المدن ودرب الجنود البحرية واشرف على شؤون موقتة في وجدة وتازة ومكناس وطنجة وتطوان والعرائش. وولاه السلطان تافلالت وهي مقر الاسرة ومستقر اهل السلطان، فبقي هناك ثلاث سنوات.

وانتقل السلطان سيدي محمد بن عبدالله الى الرفيق الاعلى ١٢٠٤/١٧٩٠ وولي بعده ابنه اليزيد الذي لم يكن محباً للزياني، فزجه في السجن وصادر املاكه ثم امر باخراجه من السجن وولاه على اغادير. ولم يلبث أن عاد فازور عنه وقبض عليه في العرائش، وضربه حتى أُغمي عليه. وقد كتب هو عن هذه الحادثة فيما بعد فقال: «ولم افق من غشيتي الا بعد ثلاثة ايام فوجدت الحديد على رجلي والسلسلة في عنقي ويدي مكسورة واصابعي كذلك، فكان بعض الأحبة يأتيني ليلاً بطبيب يعالج يدي ورأسي وجراحتي».

ونقل إلى الرباط، وظل مسجوناً هناك حتى مات اليزيد ١٢٠٦/١٧٩٢ فسرحه أهل المدينة، فقصد فاس حيث حضر بيعة المولى سليمان.

كان المولى سليمان يعرف كفاءته ومقدرته فولاه على وجدة ليصلح ما فسد من احوالها. فان عرب أنكاد كانوا قد عاثوا في تلك النواحي فساداً ونهبوا الحجّاج ولم ير السلطان خيراً من تولية الزياني لقمعهم وكبح جماحهم، الا انه كره ذلك لعلمه بما فيه من المشقة. واستقال فما أقيل، فتوجه اليها مرغماً وخرج معه ركب التجار الذي كان محصوراً بفاس. وما وصلوا الى أرض أنكاد حتى غدا عليهم العرب وقتلوهم ونهبوا الاموال والمتاع ولم ينج منهم الا القليل، وكانت هذه نكبته الخامسة.

وقد انسل منها فاراً بجلده سائماً من الخدمة السلطانية، فتوجه الى وهران، ثم الى تلمسان حيث أقام بجوار العباد سنة ونصفاً مشتغلاً بالمطالعة والتقييد والتأليف، واطلع هناك على غرائب كتب التاريخ التي تعدّ اليوم في حكم المفقودة.

وفي سنة ١٢٠٨/١٧٩٤ زار الآستانة والمشرق وعاد الى فاس فكلفه السلطان بتفتيش مراسي المغرب ومراقبة عمالها، ثم ألزمه خدمته كاتبا ووزيراً وحاجباً ١٢١٣/١٧٩١. وبعد احد عشر عاماً نكبه السلطان وانزله عن ولاياته. وهمَّ بعدها بزيارة المشرق للمرة الرابعة، ثم عدل عن ذلك. وانصرف الى التأليف والكتابة حتى وفاته سنة ١٢٤٩/١٨٣٣ وقد بلغ مئة واثنتين من السنين.

٣

اشرنا من قبل إلى ان الزياني قد تثقف في مدرسة الرحلات، وعرضنا الى رحلته مع والده اذ اعتزم هذا أن ينتقل الى الحجاز ليجاور في المدينة المنورة، وذكرنا اضطرار الاسرة الى العودة.

وكانت رحلة الزياني الثانية في سنة ١٢٠٠/١٧٨٥ اذ سفر عن السلطان الى الخليفة. وقد نقل الاستاذ عبد الله كنون اخبار هذه الرحلة بتفاصيلها، وها نحن اولاء نذكرها هنا بكلماته.

«وفي عام ١٢٠٠ أرسله السلطان سفيراً إلى الخليفة عبد الحميد الأول بالاستانة، فركب البحر من الصويره هو وسفير تركي اسمه اسماعيل افندي كان عند السلطان، ونزل بمالقة ثم ركب منها قاصداً دار الخلافة ولكن المركب عطب فلجأ إلى تونس بقصد اصلاحه ونزل عند بايها حمودة باشا الذي اكرم نزله. ثم بعد عشرة ايام أصلح المركب وتوجه تواً الى طيّته. فحين عاين السفير التركي شواطىء بلاده استأسد وجعل يسبّ المغرب وسلطانه فنهاه الزياني فلم ينته، فحينئذ قام اليه وأخذ بلحيته واراد ذبحه متقرباً به الله ـ كما يقول ـ الا ان رئيس المركب خلّصه من يديه وشفع فيه فتركه. ولا نحتاج الى القول ان الزياني قام بمهمته كما يجب وان ولاة الامر في الاستانة قد اعتنوا به غاية، وانه قابل الخليفة في غير الموعد المحدود لمقابلة امثاله من السفراء رعياً لوقوع الحرب بين الدولة العلية وروسيا ومحاولة الدولة السلف من سلطان المغرب. ومما يزيد في اعتبار الزياني انه لما عرض عليه الوزير التركي الأول فكرة السلف رحب بها وأيدها وقال: ان سلطاننا له رغبة في الجهاد ولولا مشقة البحر وبعد المغرب لسعى للجهاد بنفسه، واما المال فانه يعطيه بلا سلف».

«وهكذا تقرر رجوع الزياني ومعه سفير تركي إلى المغرب بعد ما قضى مئة يوم في الاستانة وزار جميع مشاهدها وآثارها من مساجد ومدارس ومكاتب ودار السكة والخزينة وغيرها ووصف كلَّ ما وقعت عليه عينه وسمعته أذنه وصفاً دقيقاً شيقاً يطول تتبعه. وكان ممن اجتمع به هناك كمال الدين باشا وقرأ عليه تاريخه لتركيا واختصره.

«وفي اثناء الطريق وقع من السفير التركي مثل ما وقع من سابقه برغم توصيته والتأكيد عليه ان يكون عند نظر الزياني. ولما شعر به انه يراود المركب على الدخول الى مرسيليا التي لم يشأ الزياني التعريج عليها كرها للحجر الصحي، جعل يراقبه وينظر في الخريطة، حتى اذا وصلوا للمحل الذي يتوجه منه الى مرسيليا طلع فوق (القامرة) وجلس ووقف خدامه بسلاحهم. فلما اراد رئيس المركب ان يتوجه نحو مرسيليا قال له: ابق على طريقك، والله لو درت بالمركب لاقتلنّك [وهكذا انتصر على السفير التركي مرة أخرى].

«ولما لقي الزياني السلطان ناوله كتاباً من عند الخليفة يقول فيه «وبعد فانه قد وصلنا من مقامك الاسمى عشرون سفيراً واحسنهم عقلاً ونبلاً وسياسة وأدباً فلان الذي أدَّى رسالتك وهديتك بأدب وانفصل عنا بأدب، فمثله من يكون سفيراً بين الملوك، فان اقتضى نظرك توجيه سفير من اطرافك فليكن هو فان ظاهره وباطنه سواءً وما ندري هذا نص الرسالة أو تقرير من الزياني. وعلى كل حال فقد سر السلطان به سروراً عظيماً ودعا له بخير واثنى عليه ونوَّه به امام الجمهور».

وكان من نتيجة هذه السفارة أن تقدم المغرب باعانة مالية للدولة العثمانية تأييداً لها في حربها مع الروسيا. وكانت قيمة الاعانة تعادل مليوني قطعة فضية عثمانية أو خمسين الف ريال من سكة المغرب جعلت سبائك في صناديق وارسلت بطريق اسبانية وفرنسة.

وقام الزياني برحلة ثالثة سنة ١٢٠٨/١٧٩٤ وكان يومها مقيماً في العباد بجوار تلمسان يقرأ كتب التاريخ وغيرها بعيداً عن البلاط المغربي وما اليه بعد ان هرب منه، فتاقت نفسه إلى زيارة الآستانة وبلاد الشرق «متعهداً تلك الديار، متفقداً ماله بها من الاصحاب». فذهب الى وهران فالجزائر فقسنطينة فتونس. وكان الولاة والعلماء والأعيان يحتفون به في كل مكان.

«وفي عام ١٢٠٨ [١٧٩٤] ركب متن البحر الى الاستانة ووصل اليها بعد معاناة الاهوال، فقوبل بمزيد الترحاب، ثم توجه الى الحج مع امير الركب ولقي بمكة أحمد الجزار والي عكا، فرغب اليه في الذهاب معه الى الشام بسبب ما رأى منه من البراعة في علم الجدول وغيره من العلوم السيمية، وكان الجزار مولعاً بها فراوغه الزياني حتى خلص منه. كما لقي الشيخ جعفر الهندي وكاشفه بما في ضميره واخبره بما سيصيبه من شدة في نفسه وماله ورجوعه الى المغرب ونكبة السلطان له ثم نجاته من كل ذلك. فعاد الى مصر مع ركبها وصحبته جاريتان حبشيتان كان قد اشتراهما من المدينة.

«وفي كل هذه الانتقالات كان يقابل الوجوه والصدور من رجال الدولة وأهل العلم ويحتفون به غاية الاحتفاء ويتذاكرون معه ايام العز والهناء في مدة السلطانين عبد

الحميد الأول ومحمد بن عبد الله. وممن اجتمع به في مصر من العلماء هذه المرة المؤرخ الجبرتي واسماعيل العباسي وسواهما.

«ثم عزم على الرجوع الى المغرب فركب من الاسكندرية مركباً كان متوجهاً الى أزمير بشحنة من القمح، يعود بعدها الى الجزائر حاملاً للجنود. ولكن الريح عاكسته فدخل الى جزيرة رودس ومنها إلى انطاكية حيث بقي بها شهراً توجه رحّالتنا فيه الى القدس الشريف ثم الى دمشق زائراً ومتبركاً. ولقي بهذه الشيخين كمال الدين الغزّي وسعد الدين النابلسي الشهير، ثم توجه المركب الى أزمير فدخلها الزياني ومعه فضلاً عن البضاعة عشرون الف قرش نقداً تركياً، فتوقف مأمور الجمرك في تسليم البضاعة حتى أعلم بحيثية الرحالة وماضي مجده في بلاد الترك فسلمها.

«ولم يزل الزياني هناك في عز واحترام مدة ستة اشهر، اذ كان السفر قد تعذر عليه بسبب الوباء العام وقلة المراكب. ولما عادت المياه الى مجاريها عوّل على السفر وكان قد اشترى من ازمير بما معه من المال بضاعة من الحرير، فشحنها في مركب ذاهب الى الجزائر وتخلف هو لاجل امتلاء المركب بالجند، فذهب في مركب آخر الى تونس حيث وضعوا في «الكرنطينة الشّنعا، الممنوعة عرفاً وشرعاً» كما يقول هو. وكانت له جارية على وشك الطلق فأشفق من حالها وكتب يتشفع الى بعضهم فلم يجده شيئاً. ومن الليلة القابلة جاء الطلق للجارية فكان هو القابلة وولد له ابن سماه بعبد السلام، ثم انشأ قصيدة في ذم هذه الكرنطينة ومن وضعها، ولا شك انه كان يتذكر ايام الصولة في رحلته السابقة، حين وقف هو وأصحابه بسلاحهم يهددون رئيس المركب ويصرفونه عن الدخول إلى مرسيليا خوف الكرنطينة ويتمنى لو تأتي له أن يفعل مثل ذلك، حتى ينتقم من هؤلاء الولاة القساة، ولكن حيل بين العير والنزوان، وقد كبر الرحالة وأنهكت قواه فلم يبقَ له الا الرجوع إلى سلاح اللسان والطعن به بدل الطعن بالسنّان.

«ثم بعد النزول الى تونس ماتت الجارية بالوباء وتركت الولد ولم يجد من يرضعه، الى أن جاءه رجل مغربي مات له صبي وبقيت امرأته بدون رضيع فدفعه لها وسافر الى قسنطينة فلم يجد الوالي بها، ثم الى الجزائر، وكان انما باع لاجل ذلك نسخة من صحيح مسلم بخمسين محبوباً اشتراها من مصر بمائة، ولما دخل الجزائر علم أن بضاعة الحرير لم تصل وان المركب اخذه القرصان فسلم الأمر الى الله وبقي خاوي الوفاض، لا يجد ما يكمل به اجرة الحمار، لولا ان القاضي ابا عبدالله بن مالك وصله وباشره بما اصلحه وبقي منتظراً المركب نحواً من سبعة أشهر. وكان صاحبه يباشر قضية التجار والسلعة مع العدو وادعى انه تونسي. وتونس كانت في مدة صلح معه فأحرز المركب والسلعة وسلم الجند وبذلك وصلت الى الزياني بضاعته سالمة فانتعش بعد الانتكاس وعوّل على الاقامة بتلمسان وكتب لاهله بفاس يأتونه اليها.

«وقد فرح اهله واصدقاؤه برجوعه وكانت قد انقطعت اخباره عنهم ولكنهم رغبوا اليه في الرجوع الى فاس ولم يرسلوا اليه عدا جارية واحدة للخدمة، والسلطان نفسه كتب له يأمره بالرجوع ويطمنه».

في هذه السنوات الاخيرة من حياته انصرف الزياني الى التأليف، فأتم عملاً ضخماً اذ خلّف لنا خمسة عشر كتاباً في الجغرافية والتاريخ والفقه وما اليها ثلاثة: اولها تاريخه الكبير الذي سماه «الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب «وهو تاريخ يبدأ بالخليفة وينتهي باوائل القرن التاسع عشر. وثانيها كان ايضاً في التاريخ سماه «البستان الظريف في دولة اولاد مولانا علي الشريف». وهو تاريخ مفصل للدولة العلوية إلى ايامه.

وأما الثالث من كتبه المهمة فرحلته المسماة «الترجمانة الكبرى التي جمعت امصار المعمور كله براً وبحراً». وقد وصفها بقوله: «وفي كل مقام منها مقال، وفي كل روض منها مجال، حسبما يقتضيه الحال، ويخطر على البال، من نصوص قرآنية، وتأويلات تفسيرية، واحاديث نبوية، وفتاوى فقهية، ومواعظ صوفية، وحجج قطعية، وادلة معقولية، وشواهد شعرية، وضوابط معنوية، واسامي لغوية، ونوادر سروجية، وقصائد عالية، وما يناسب كل خبر ويؤيده، ويعتمد عليه ويعضده، وختمتها بنصوص من التوراة والانجيل والفرقان للرد على اليهود والنصارى والصابئة والمجوس من عبدة النيران».

ونود ان ننقل رأي الاديب المغربي الكبير عبدالله كنون في الزياني. قال: «الزياني من اولئك الكتاب القلائل الذين تظهر شخصيتهم القوية بين سطور كتاباتهم عارية من كل تصنع بريئة من كل تزيف. واذا كان يبالغ بعض الأحيان في ادعاءاته لنفسه واتهاماته لغيره فانما ذلك من سذاجته واغتراره بظواهر الاشياء. وربما كان لعدم تثقف قلمه وخشونة عبارته. ولو كان مهذب حواشي الكلام لما وقع في كثير من تلك الهفوات... وهو في غالب الاحيان منتبه الشعور دقيق الاحساس فلا يمر بحادثة ولا خبر ولا تقع له واقعة الا علق عليها بما يناسب واستطرد نظائر واشباهاً لها مما زاد في قيمة تاريخه وجعله من التواريخ المهمة التي لا تعنى بسرد الحوادث والاخبار مجردة عن النظر والتمحيص. هذا مع اختصاره وجمعه لاقتصاره على اهم الاشياء واعراضه عن الحشو والامور التافهة... واسلوب الزياني في الكتابة كما تراه سهل واضح قريب من العامية وان كان في بعض المرات يحتفل احتفال بلغاء الكتاب فيقومه ويسجعه وان كان لا يستطيع ان يخلصه من اللحن الخفيف الشبيه بلحن كتاب الجرائد اليوم».

ونختم عجالتنا هذه عن هذا المؤرخ الكبير بنماذج من كتابته.

١ - «ولاية سيدي محمد بن عبد الله في حياة والده لما وجهه لها [مراكش] عام ١١٦٩

نزل قصبتها الخربة وهي قفر ليس بها الاّ قصور السعدّية الخربة فضرب خيامه بساحتها واشتغل بحفر اساس داره بها وبعد أن شرع في البناء منعه سفهاء الرحامنة لما كانوا عليه من العيث والفساد في اطراف المدينة تلا القصبة مجتمع شرارهم فلم يقبلوا عمارتها وبلغهم ما وقع للسلطان عبدالله مع البربر والعبيد وفراره فاطردوا سيدي محمداً من مراكش وتوجه لنواحي اسفي فاعترضه عبدة وأحمر واحترموه وأكرموه ولعبوا عليه البارود وابلغوه لاسفي فنزل فحبته وقدموا له الهدايا ودفع اعيانهم اولادهم لخدمته وقدم له اهل اسفي هديتهم وكذلك تجّار النصارى واهل الخدمة وسرّح المرسى للوسق ولما بلغ خبر طرد الرحامنة لسيدي محمد من مراكش سوّلت لاهل الرباط وسلا انفسهم مثلها فقاموا الى خليفته مولاي احمد وحصروه، بالقصبة مع العبيد الذين كانوا ادالة من عهد السلطان اسماعيل وحاربوهم وقطعوا عنهم الميرة والماء الى ان طلبوا الامان فخرج مولاي احمد وتوجه لاخيه باسفي وفرّق اهل الرباط عبيد السلطان بالمدينة حتى لا تبقى لهم شوكة ولما كثرت الخيرات على سيدي محمد بمرسى اسفي استركب الرجال من عبدة واحمر واستحلق الموالي من غيرهم وجاء أهل حاحة والشياطمة بهداياهم ودخلوا في حكمه فلما سمع بذلك الرحامنة ندموا على ما فعلوا واجتمع اعيانهم وتوجهوا لاسفي بهديتهم ولما اجتمعوا بسيدي محمد اعتذروا وتنصلوا ونسبوا ذلك للسفهاء فسامحهم وعفا عنهم فاقسموا له بالله لا نتوجه من بابك الا معك ولو اقمنا سنة فما وسعه الا اجابتهم وامر بتجهيز محلتهم».

٢ ـ رسالة الى الكمال الغزي بدمشق: «احيي طلعة ذلك الهلال، والمرقوب بسلامة من النقص بعد الكمال، الذي هو للدنيا جمال وللدين كمال وللمستمعين فال، وللمتعترين آمال، تحية صب معتكف على حبكم لا يبرح، وذي وجد بمحاسنكم لا يتكيف لعدم انتهائه ولا يشرح، ويستنجز منكم ما وعدتم به من ترجمة الشيخ ارسلان، فقد كان في ذلك عليكم الاعتماد والتكلان، والله يتولى هداكم، ويفسح في بقاء مدتكم ومداكم، ولا تبخلوا عنا برؤيتك وانفسنا تفديك، ولا تجعلنها بيضة الديك، والسلام».

٣ ـ «من رسالة الى الشيخ حمدون ابن الحاج شيخ اهل الأدب، ونخبة اشارف العرب، سيف الفقهاء، ولسان الخطباء، العالم المحقق، المشارك المدقق الورع الزاهد، المتخلق الافاضل الاماجد، الذي بمضاء عزمه علماء الوقت يقتدون، وبآرائه السديدة يهتدون، محبنا الاجل السيد حمدون، لا زالت سيوف اقلامك قاطعة لحجج المسلمين وسهام فقرك راشقة لأهل البدع المبلسين وسلام الله عليك والرحمة والبركة، حالتي السكون والحركة».

٤ ـ من قصيدة نظمها في حدود ١٨٣٢/١٢٤٨ خاطب فيها السلطان مولاي عبد

الرحمن لانه لم يستمع الى شكوى اهل فاس الذين طلبوا عزل واليها :

يا مـــالكاً لا يـرى عـــزل الـولاة ولو جـــاروا ولا يقـــبل الـشكو بواليـــه
فـليس هـذا بقــــانون الـملـوك ولا وقـع في غـــربنا ولا فـي شـــرقـــيـــه
اخـــفض جناحك للشكاة والقـــهم واسـمع كـلامـهم واعـمل بمـا فـيـه
لا تعـتـمـد في مظالم على حـاجب ولا وزيـر فـــوالي الـجـــور يرشـــيـــه
قـد جاء في الذكـر لعن الظالمين غـدا وفـي الحــــديث الذي تـتلو وترويـه
وأنت وليت هـذا العـقـد مـفـتـرشـاً ســـبع سنين وكلّ الـنـاس تشكيـــه
يـأكل أمـــوالهم يهـــتك أعـــراضـــهم يـزني جـــهـــاراً ولا يخـــاف باريه
فكل أفـــعــــاله تكتب في صـــحـف عليـك يا بن رســـول الله فــــادريه
وفي الـمـعـاد ترى الصـحف منتـشـرة اليك بـالذي كـان يجـبي ويخـبـيـه
فــمـــا تقـــول ومـــا عــذرك يا ملكاً مـع الاله الـذي ولاك تـكفـــيـــه
فـانظر لنفـسك أو دعـهـا على غـــرر فـالمـوت سـيـأتي على كل ويفنيـه
والله مـــا قلت ذا بغـــضـــاً ولا فندا الا نصـيـحـتكم لله فـاقـضـيـه
ام لم تـرد عـــزلـه فـــالله يـهلـكه عـمـا قـريب ورب البـيت يحـمـيـه
اذا ليس لي نـاقـــة في ذا ولا جـــمـل فـسل تجـد صـدق مـا قلت لكم فـيـه

محمد بن اكنسوس

يعتبر محمد بن اكنسوس من رجال القلم والعلم البارزين في القرن التاسع عشر. ولد في قبيلة اكنسوس من بلاد السوس في المغرب في اواخر القرن الثامن عشر. واغترف من بحر العلوم في تلك الديار التي كانت فيها نهضة أدبية هامة. ثم انتقل وهو في عنفوان شبابه، الى فاس لينهل من منبع العلم الصافي فيها وهو جامع القرويين. وهناك اتصل بفئة من شيوخ الأدب والفقه وأخذ عنهم ما أخذ. وكان من اخدانه وخلانه محمد ادريس الذي وزر لملوك المغرب فيما بعد. وقد ظهر نبوغه في فاس، حتى ان السلطان سليمان بن محمد ١٢٠٧ ـ ١٧٩٢/١٢٣٨ ـ ١٨٢٢ ولاه الوزارة وهو في الخامسة والعشرين من عمره. فنهض بأعبائها على خير ما يرام.

والفترة التي ولي فيها ابن اكنسوس الوزارة جاءت في زمن اضطربت فيه الامور في المغرب، فقد احاقت بالسلطان الثورات من كل جانب، ونفسه على الملك ادعياؤه، فعهد الى ابن اكنسوس بمهام كثيرة قام بها، واعاد إلى الدولة الكثير من الهدوء بالمفاوضة وتنظيم الأمور، لكن السلطان توفي، فانتهى امر ابن اكنسوس الوزير.

وقد اتهم في العهد التالي في ولائه، ونكب وسجن، ثم افرج عنه. وقضى بقية عمره في مدينة مراكش، حيث توفي سنة ١٨٧٧. والمهم ان اقصاء الرجل عن الوزارة ونكبته لم يقللا من قيمته، وسبب ذلك علمه ومقدرته. يقول الاستاذ عبد الله كنون عنه: «ونبغ ابن اكنسوس في عدة علوم كالنحو واللغة والأدب والتاريخ والحساب والتوقيت، وكان له نظر في بعض العلوم الروحانية كسر الحرف والجدول والتصوف، وهذه هي التي اكسبته تقدير الجمهور واحترام العامة حتى انه لم يفقد مكانته في نفوس الشعب بعد فقد رتبة الوزارة.

«وأما في صناعتي النظم والانشاء فقد فاق وبرع، وكان طبقة عصره غير مزاحم واستحق لذلك ان يدعى اديب الغرب والسوس وبهما وصل إلى رتبة الكتابة فالوزارة في الاعوام الاخيرة للسلطان العادل مولاي سليمان».

وانصرف ابن اكنسوس إلى العبادة والافادة بعمله والكتابة والتأليف ونظم الشعر. وأهم كتبه هو الجيش العرمرم الخماسي. وهو تاريخ للدولة العلوية لكنه قَسّمه على طريقة تقسيم الجيش. فالمقدمة عالج فيها الامامة وشروطها وواجباتها، والجناح الايمن تناول فيه دول المشرق من عهد النبي إلى العثمانيين، والجناح الايسر عرض

فيه لدول المغرب الى أيام السعديين، والقلب خصه بالدولة، ثم جعل الساقة في سياسة الملك وتدبيره. يقول الاستاذ كنون معلقاً على كتاب الجيش العرمرم: «ان ابن اكنسوس جمع في تاريخه بين مسائل السياسة والتاريخ والفقه وذكر دول المشرق وافريقية والاندلس ودول المغرب السابقة إلى جنب الدول العتيدة التي الف كتابه فيها فأتى في ذلك بعمل فريد، ودل على تمكنه ورسوخه وحسن تصرفه ولباقته حيث شحن جميع هذه المباحث وضمن كل هذه المقاصد في كتاب صغير الحجم، لا يحتوي بجزئيه الاثنين على أكثر من ٤٢٠ صفحة، هذا مع التوسع الكثير في اخبار الدولة الشريفة وذكر ملوكها الى عهده ملكاً ملكاً وما وقع في ايامه من حوادث وما خلفه من آثار».

وهذا الكتاب وضعه مؤلفه وهو في السبعين من عمره. وقد قال هو نفسه عنه:

«ولو قدر الله سبحانه كون هذا التأليف المبارك عند مقاربة الاربعين لا بعد مجاوزة السبعين لكان فيه شأن يذكر ومجد يحمد ويشكر، ولكن لا محل للعتاب ولكل اجل كتاب».

ولابن اكنسوس اسلوب جميل واضح على ما يبدو من القطعة التالية وهي استصلاح بستان آمنة المرينية في فاس. قال الكاتب:

«كان هذا البستان خراباً تألفه الوحوش مع انه بباب دار السلطان وفي سرة الحضرة، وقد كان في الدولة المرينية على هيئة بهية فيه ظهرت زينة تلك الدولة وضخامتها، وفيه مقاعدهم ومنازلهم العالية ومجالسهم المشرفة على بساتين المستقى» إلى أن قال: «وبالجملة فقد كانت تلك العرصة منية من زينة الحياة الدنيا، وجنة حائزة من البهجة المرتبة العليا، ثم أخنت عليها الايام بصروفها ومحت من تلك الرسوم جميع حروفها، فرآها الملوك قبل مولانا المؤيد فلم يرأفوا لحالها ولا أنقذوها من أوحالها، مع أنها في جوارهم وعقر ديارهم، فعطف الله عليها هذا السلطان المبارك فأعاد بعد الممات محياها وأبرز من ظلمات العدم جميل محياها.»

وشعر الرجل انيق ايضاً على ما تدل عليه هذه المقطوعة من قصيدة مولدية ألقيت لمناسبة مولد الرسول وهي:

فأما وقد زم الركاب ويمموا ... زيارة خير الانس والجن احمدا

فقد شاقني من نحو طيبة بارق ... ينسّي مشوق الروح ما قد تعودا

وازعجني حادي المطيّ وقد شدا ... وردد خلف العيس هيمنة الحدا

رويدك يا حادي المطايا فانني ... انادي رسول الله اسمعه الندا

ألا يا رسول الله دعوة قاطن ... تخلف خلف الظاعنين وافردا

ولا عذر الا الضعف منه فانه ... تقمص فضفاضاً من العجز وارتدى

واوثقه جور الزمان واهله ... فيشكوك من دهر عليه قد اعتدى

ومن نفسه يا حجة الله يشتكي فتلك التي القته في هوة الردى
بجاهك يدعو الله مالك أمره يخلصه مما به قد تقيدا

وقد أرسل اليه حاجب السلطان كتاباً في المعادن ليرى فيه رأيه، فكتب ابن اكنسوس نقداً نقتطف منه ما يلي: «وبعد فقد بلغنا كتابك الاغر المتضمن لامر مولانا المنصور بالله بتصفح الكتاب الموضوع في شأن المعادن وما يناسبها. وقد تصفحت الكتاب المذكور من أوله لآخره فلا شك انه من الذخائر والنفائس الملوكية، التي ينبغي ان لا تخلو منها الخزائن السلطانية التي تعدها عظماء السلاطين، لا سيما العلماء منهم والاساطين، لأنها لا بد أن يوجد فيها ما ينتفع به في الجملة، ولكن كنت اظن قد بين فيه ما يتوقف عليه الامر من بيان كيفية استخلاص المعادن من مقارها، والذي لا بد منه في ذلك من الآلات والعقاقير والتاكير، التي تسيل القاسي منها، وما يخرج متعاصياً عن السبك والذوبان، فانها كثيراً ما تخرج كذلك فيظن انها مجرد تراب فيزهد فيها كما ذكر ذلك من جرب، مع انها انما تحتاج الى تنكار أو عقار مخصوص، فتجيب إلى ما يراد منها إلى الانسباك والانتفاع بها في الاعمال الضروريات على السبيل الأسهل، دون مشقة كثيرة، ولا كبير عمل».

ونقل صاحب «الاستقصا» قطعة في آداب الجيش لابن اكنسوس نورد بعضها فيما يلي: «ولا بد من ترتيب مجلس ديني يومي يسمعون فيه سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومغازيه ومغازي الخلفاء الراشدين وسلف الأمة وأخبار رؤساء العرب وحكمائها وشعرائها ومحاسنهم وسياساتهم وليتخير لهم من الكتب الموضوعة في ذلك أنفعها مثل: «كتاب الأكفاء» لأبي الربيع الكلاعي، وكتاب ابن النحاس في الجهاد وكتاب «سراج الملوك» ونحوها، فان ذلك مما يقوي ايمانهم ويحرك هممهم ويؤكد محبتهم في الدين وأهله، وينبهون على التحافظ على ثيابهم وأطرافهم من الأوساخ والأوظار التي تدل على دناءة الهمة ونقصان الانسانية وعدم النخوة، ويلزمون بترك استعمال الدخان فانه مناف لنظافة الدين ومذهب للمروءة والمال بلا فائدة، ثم اذا رسخت فيهم هذه الآداب في ستة اشهر أو عشرة أو أكثر أخذوا في تعلم الثقافة وأمور الحرب، ثم من أهم ما يعتنى به في شأنهم أن لا يتخلقوا بأخلاق العجم، ولا يسلكوا سبيلهم في اصطلاحاتهم ومحاوراتهم وكلامهم وسلامهم وغير ذلك، فقد عمت المصيبة في عسكر المسلمين بالتخلق بخلق العجم فيريدون تعلم الحرب ليحفظوا الدين فيضيعون الدين في نفس ذلك التعلم».

ولعلّ خير ما نختتم به الحديث عن هذا الرجل العالم الاديب والوزير الشاعر ابيات من قصيدة طويلة قال فيها:

وجوه الاماني حسنها متجدد ومنظرها يحكيه خد موردُ
قضى الحب في كل القلوب بأنها مماليك أرباب الجمال وأعبد

وكم من عصيّ للهوى متعفف يفر من السود العيون ويبعد
تصيده ظبي على حين غفلة مهفهف مستن الوشاحين أغيد
فأصبح مفقود الفؤاد مخبلاً وأي فؤاد عاشق ليس يفقد
ولله في أسر الغرام ونهره نفوس ضعاف ليلهن مسهد
اذا الليل أضواها تكنفها الهوى وليس لها غير الكواعب منجد

السيد محمد بن علي السنوسي

القرن التاسع عشر غني بالرجال الذين نذروا انفسهم لإصلاح المجتمع الاسلامي وتنقية الاسلام مما الصق به على مر العصور. ومع ذلك فنحن عندما نبحث عن اولئك الذين طبعوا مجتمعهم بشخصيتهم، واسهموا في بث العزيمة في النفوس، وغرس الايمان في القلوب، وشحذ الهمم، وإزالة الغشاوة عن العيون، وجدنا في مقدمتهم السيد محمد بن علي السنوسي.

ولد السيد في جهات مستغانم بالجزائر في اواخر القرن الثامن عشر، في اسرة جمعت شرف النسب بتحدرها من الحسن بن علي بن ابي طالب، وكرامة العلم. توفي والده وهو بعد في المهد، فتولت والدته العناية به. وأقبل، وهو بعد صبي، على العلم يرتشف منه ما يسرته له مستغانم، ثم انتقل إلى جامع القرويين في فاس حيث قضى سبع سنوات طالباً للعلم ثم مدرساً. فأقبل عليه الطلاب ينهلون من معين علمه. واتجه الى المشرق فأقام بعض الوقت بالقاهرة، فاكتسب صداقة الكثيرين. روى الرحالة التونسي محمد عثمان الحشائشي انه: «عندما مرّ السيد السنوسي بالازهر نظر اليه أحد المدرسين وقام من حينه قائلاً «انصتوا ايها العلماء، لقد حلّ بين اظهركم إمام الأمة المحمدية، ونبراس الشريعة المطهرة، وشمس سماء المعارف الالهية، الا وهو الشيخ الكامل محمد بن علي السنوسي».

انتقل السنوسي إلى الحجاز، فالتقى بالمسلمين وزاد اقتناعه بأن العالم الاسلامي والمجتمع الاسلامي بحاجة إلى اصلاح. وكان رأيه يتلخص في أن سبيل الاصلاح هو أن يصلح الفرد المسلم، وعندها تنهض الجماعة.

وعاد من المشرق، ولكنه لم يرجع الى الجزائر، فما كانت فرنسة لتسهل له العمل الاصلاحي. فاختار برقة، وأنشأ الزاوية البيضا في الجبل الاخضر عام ١٨٤٣، ومنها نشر دعوته بين الليبيين وجيرانهم، كما انه اخذ ينشر الاسلام بين سكان اواسط افريقية. ونقل مركزه من البيضا إلى الجغبوب ليكون اتصاله بهؤلاء القوم أيسر. وفي الجغبوب التي أنشأها وطورها انتقل إلى الرفيق الاعلى سنة ١٨٥٩. وقد خلّف السيد، بالاضافة إلى طيب الاعمال، عدداً كبيراً من الكتب، طبع بعضها ولكن لا يزال الكثير منها مخطوطاً. لعلّ أهمها «ايقاظ الوسنان».

يقول محمد الطيب الاشهب في انتقال السيد السنوسي الى الجغبوب: «اختار الامام أن يكون لهذه المراكز الاصلاحية مركزاً رئيسياً ترتبط به، وكانت زوايا ليبيا مرتبطة بالزاوية البيضاء ثم استبدل هذا المركز الرئيسي بزاوية الجغبوب التي تم به انشاء معهد علمي ينتسب اليه الطلاب، وأصبح هذا المعهد ـ كما أراده الامام ـ على غرار الأزهر الشريف بمصر والقرويين بفاس والزيتونة بتونس، وأخذت المراكز الاصلاحية تقوم بمهمات اجتماعية كبيرة وعظيمة الفائدة منها اطعام الفقير وإيواء الغريب وفض المشاكل والخصومات الفردية والجماعية والنظر في الاحوال والمعاملات الشخصية وإرشاد الخلق إلى الحق ـ وتعليم الصغار كتاب الله ومبادىء العلوم الدينية والدنيوية، وتهذيب النفوس بنشر الآداب الاسلامية ومعالجة الأمراض الاجتماعية».

وقال مؤرخ محدث عن الجغبوب العالمة: «واقام السيد في الجغبوب مركزاً كبيراً له ولاتباعه ومريديه. وجعل منها جنة بعد أن كانت واحة صغيرة، وأنشأ فيها مدرسة دينية كبيرة قوامها مكتبة من ثمانية آلاف مجلد فيها كتب الفقه والشرع والحديث والتاريخ والتفسير والفلك والتنجيم والفلسفة والتصوف، وعمادها أولئك التلاميذ المخلصون الذين رافقوا السيد في دراسته وأسفاره، فصاروا ممن يعتمد عليهم في التدريس، وكان فيها ثلاثمائة طالب يعدون الاعداد الصحيح ليكونوا دعاة هداية وحملة نور الاسلام إلى المناطق التي أراد السنوسي الكبير أن ينشر فيها هدى الاسلام. وكان السيد يشرف على كل هذه الأمور اشرافاً شخصياً مباشراً ليتأكد من أن كل رجل أعد على خير سبيل، قبل أن يوكل اليه القيام بمهمته. وقد كانت الجغبوب بعد القاهرة اكبر مركز علمي في شمال إفريقية».

وبعد، فإن السيد قد اوضح في رسائل متعددة بعث بها إلى حكام ليبيا العثمانيين عمل الزوايا التي أُقيمت في جهات البلاد بقوله: «رتبنا لكل واحدة من الزوايا خليفة يقوم فيها بما ذكر من الجمعة وتعليم القرآن ودرس العلم ودلالة الخلق على دينهم وعودتهم إلى ربهم. وبذلك تبتهج الأرض حولها بانواع الأشجار ويكثر بها السكان لكثرة الثمار وتنتشر العمارة. والزاوية في الحقيقة انما هي بيت من بيوت الله ومسجد من مساجده. واما نحن فقد الفنا ما اعتدناه ورضيت به نفوسنا. فتزيد بذلك أن تكون تلك العمارة مستمرة، ونفوس سكانها مستقرة».

لما توفي الامام الأكبر رثاه السيد عبد الرحيم المحبوب، وجاء في رثائه قوله عن الجغبوب:

وادي الجغابيب كم تاهت رباك على	خضر الرياض وكم قد حفها بذلُ
وعطرت بشذاها الجو باسمة	أزهارها وجناها العلم والعمل

وأشـــرقت بسنى الأنوار مـــائدة طوع النسيم حكاها الشارب الثمل
وجدت العيس والنجب الجيادغدت اليك شاحبة ما شابها ملل
وكم دعا الشوق أشواقاً وهاجهمُ شجوا لذكرك لم ترقأ لهم مقل
يا للوفود وللزوار قد بلغوا منك المنى بعد ما حلوا وقد رحلوا

ولعلّ العبارات التالية الواردة في كتاب بعث به السنوسي إلى اخوانه مما ييسر لنا التعرف إلى روح هذا المجاهد الكبير. قال السيد محمد بن علي: «والذي أوصى به نفسي واخواني هو تقوى الله ـ وصية الله في الذين خلوا من قبل ـ (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم أن اتقوا الله) باتباع أوامره، واجتناب نواهيه، والوقوف عند حدوده باعمار الظواهر بالمجاهدات، واعمار البواطن بالمشاهدات، فعليكم اخواني باتباع السنة على سنن رسول خير أمة يهدون بالحق وبه يعدلون، وبه يحيون وعليه يموتون، فان مراتب السلوك غالباً يمكن رقيها بأنواع المجاهدات وارتكاب مشاق المعاناة، الا أن أعلاها وأكملها وأنهاها، وهو تجلي الذات فلا طمع لطامع فيه الا بمتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم في الجليل والحقير والكبير والصغير بوقوع القدم والحافر على الحافر، فشدوا اخواني حيازمكم عليها صابرين، والمرجو من ذي الفضل الكريم أن يسلك بنا واياكم سننها على الصراط المستقيم إنه بر رحيم عفو كريم».

وقد بعث الامام السنوسي الكبير برسالة الى ابنه السيد محمد المهدي، توضح ما كان يعتمل في نفسه وقلبه وفكره، قال فيها:

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وتحيته ورضوانه وبعد.

«فعليك ببذل الوسع في تمام التوجه إلى الله، والانحياش اليه بالكلية قلباً وقالباً حتى لا ترى ولا تسمع ولا تشهد سواه، وافن عنك فيه، افن عن فنائك في ابقائه، معطياً كل ذي حق حقه جليله ودقه، على حجاب منهاجه الأعظم ورسوله الأكرم، مكسياً ظاهرك بمجاهدته، محلياً باطنك بمشاهدته، ممحواً في حقيقته، ذاباً عن شريعته، مستعيناً به على طاعته، جعلك الله هادياً مهدياً، ووارثاً كلياً انه ما يشاء قدير وبالاجابة جدير».

كان بين اولئك الذين عرفوا مغزى العمل الذي قام به السنوسي الكبير الامير شكيب ارسلان. وما أكثر ما كتب عن هذه الحركة الاصلاحية التي دفع بها الامام إلى الامام. ومما قاله امير البيان قصيدة جاءت فيها الابيات التالية.

لا يرى العلم في سوى العمل الصـ ـالح فالعلم آلة ووعاءُ
فلهذا نرى الطريق السنوسيّ على الفعل قام منه البناء
بات فعلاً هدى مريد السنوسي وأن ليس بالكلام اكتفاء

كلهم عـــالـم لذلـك فــيــــهم تتـبــارى العــقــول والأعــضــاء
كم تـولـى بـالـكف سـكـة حـــرث حـــبـــر علـم حظت بـه القـــراء
حـقـقـوا سنة المـعلم للخـيـر الرســــول الذي بـه الاقــتــداء
بث مـا بين مطلع الشـمس والمـغـرب رشــــداً ضـــاءت بـه الارجــــاء
«وزوايا » في كـل غــــور ونـجــــد ليس يسـتطيـع حـصـرهـا الاحـصـاء
وبدا بالبنـاء في الجـبل الاخــضــر حـــيث البنيـــة (البــيـــضـــاء).

الأمير عبد القادر الجزائري (١٨٠٧ ـ ١٨٨٣)

في سنة ١٨٣٢، بعد مرور سنتين على احتلال فرنسة لمدينة الجزائر، اجتمع نفر من زعماء شمال الجزائر تحت شجرة الدردار بوادي فروحة من غريس، وبايعوا الامير عبد القادر حاكماً على البلاد والعباد. وكان أول المبايعين له والده محيي الدين الذي لقبه بناصر الدين، ثم تبعه الأقارب فالوجهاء والأعيان والعلماء وغيرهم. فمن هو هذا الأمير؟

ولد عبد القادر بالقيطنة من اعمال وهران ١٨٠٧. وفي هذه الرقعة الجميلة من الساحل الجزائري نشأ وترعرع. وكانت نشأته في بيت علم ودين وتقوى. فوالده مرموق المقام في هذه كلها، ولم يكن في ذلك وحيد اسرته. وانتقل عبد القادر إلى وهران، فكان له من علمائها معلمون. ثم رافق والده لاداء فريضة الحج.. وأتيح له، في نحو ثلاث سنوات قضاها في المشرق، أن يتعرف إلى أهل العلم في تونس الخضراء وارض الكنانة ومهبط الوحي ودمشق وبغداد.

وجاءت فرنسة بقوتها فاحتلت مدينة الجزائر سنة ١٨٣٠، ثم اخذت توسع منطقة احتلالها. فكان لا بد للسكان المقاومين من زعيم. قال السيد محمد بن الامير عبد القادر يصف الوضع ويروي ما حدث: «لما طال على أهل الوطن الأمد وتوالى عليهم فيما بينهم الكرب والنكد وتسلط على بلادهم العدو ومنعهم القرار والهدو فتارة كانوا يدافعونه عن البلاد وآونة كان يقع بينهم الفساد والحرب والجلاد. وسطا القوي على الضعيف وتطاول اللئيم على الشريف اجتمع الاشراف والعلماء وأعيان القبائل من العرب والبربر وقدموا على سيدي الجد وألزموه أن يقبل بيعتهم على الإمارة لنفسه أو لولده وحاجوه في ذلك بما اعجزه من الاعتذار فامعن النظر في هذا الأمر فرأى أن الاهتمام به واجب وتعين عليه شرعاً أن يقوم به لأنه مسموع الكلمة نافذ الأمر. غير أنه لما كان عاجزاً عن القيام باعبائه ورأى أن ولده المنوه به قد بلغ أشده وأرهف حده وترشح للامارة وتأهل لها واستكملت فيه شروطها من الهدى وعلوّ الهمة وقوة الحواس وكمال الخلق وجمال الصورة وشرف النسب وعزة القوم والقوة والفتوة والعلم والحلم والحماسة والسماحة والعزم والحزم والتحفظ والتيقظ والاتقاء والارتقاء إلى غير ذلك من أفراد الفواضل والفضائل ومكارم الاخلاق ومحاسنها وعلم انه لا مندوحة له عن الاجابة والقبول إما له أو لولده فحينئذ استخار الله تعالى وقدم ولده للإمارة».

فلما انتهت البيعة الأولى انتقل الجميع إلى مدينة معسكر، التي اصبحت عاصمة ملكه، حيث تمت، بعد وقت قصير، بيعة ثانية عامة اشترك فيها أهل الجزائر قاطبة. وأصبحت حياة الامير عبد القادر ملكاً للشعب الذي أدار شؤونه وحمل عبء الجهاد عنه نحو سبع عشرة سنة. وقد افتتح الامير حياته الرسمية بخطاب وجهه إلى جميع القبائل بين فيه نهجه ووضح سياسته.

«وقد جاء فيه قوله:

«وبعد فان اهل معسكر وغريس الشرقي والغربي ومن جاورهم واتحد بهم قد أجمعوا على مبايعتي وبايعوني على أن اكون اميراً عليهم، وعاهدوني على السمع والطاعة في اليسر والعسر، وعلى بذل انفسهم واولادهم واموالهم في اعلاء كلمة الله وقد قبلت بيعتهم وطاعتهم كما انني قبلت هذا المنصب مع عدم ميلي اليه مؤملاً أن يكون واسطة لجمع كلمة المسلمين ورفع النزاع والخصام من بينهم وتأمين السبل ومنع الأعمال المنافية للشريعة المطهرة، وحماية البلاد من العدو وإجراء الحق والعدل نحو القوي والضعيف فلذلك ندعوكم لتتحدوا وتتفقوا جميعاً واعلموا أن غايتي القصوى اتحاد الملة المحمدية والقيام بالشعائر الاحمدية وعلى الله الاتكال في ذلك كله فاحضروا لدينا لتظهروا خضوعكم وتؤدوا بيعتكم وفقكم الله وارشدكم».

التحم الأمير عبد القادر مع الفرنسيين في معارك كثيرة، وانتصر في اغلبها، وتقدموا منه طالبين الصلح، وتم ذلك مرتين، لكن الحكومة الفرنسية كانت في الحالتين تنقض الصلح بحجج واهية. والامير ينظم البلاد ويجمع الجيوش ويبتاع السلاح ويثير في رجاله الحماسة والكرامة. ولكن بعد سنوات طويلة، وإذ اقفلت في وجهه السبل، وألقت فرنسة بجيوشها العديدة القوية في ساح الوغى، رأى الأمير بعد استشارة أهل الحل والعقد في دولته، أن يلقي السلاح حقناً لدماء ابناء البلد، وعلى أن يسمح له بالسكنى في عكاء أو الاسكندرية. لكن، لما سلم نفسه، أُخذ أسيراً، وقضى في فرنسة سنوات. ثم أُطلق سراحه لما تولى لويس نابليون الملك في فرنسة، فذهب إلى القسطنطينية ثم انتقل إلى دمشق فوصلها سنة ١٨٥٦ واستقر فيها. وقد وصف لنا ابنه السيد محمد وصول الامير إلى بيروت ودمشق، قائلاً: «فهرعت اهالي بيروت لاستقباله واحتفل به واليها احتفالاً عظيماً واجتمع الامراء آل ارسلان لملاقاته في جبل لبنان، ولما بلغهم خبر خروجه من بيروت رتبوا جموعهم على الطريق التي يمر فيها... ثم أخذت تلك الجموع في اطلاق البنادق واخذوا يرتجزون وينشدون المدائح على حسب عادتهم. واعد الكولونيل شرشل للامير ضيافة حافلة في تلك الليلة فنزل عليه ضيفاً كريماً... ولما اقترب الامير من دمشق خرج الوالي والمأمورون وأشراف البلد وعلماؤها واعيانها الى قرية دمر، ورافقوه إلي الصالحية، الى أن نزل عند ضريح العارف بالله سيدي محيي الدين بن العربي».

اتخذ الأمير من دمشق مقراً، اندفع منه إلى الاقطار المجاورة يزورها. فكانت له إلى الحجاز رحلة لاداء الفريضة وإلى مصر سفرة، والى القدس زورة وإلى انحاء سورية نقلة.

جهاد الامير عبد القادر في الجزائر تاريخ فيه صفحات بيض، إن دلّ على شيء فقد دلّ على مقدرة في القيادة عجيبة، وحنكة في السياسة فريدة، ومهارة في الادارة لا تقل عنهما. على أن الامير عبد القادر كان، فوق ذلك كله، عالماً يشار اليه بالبنان ويملأ على الناس النفس والجنان. عرفته المساجد قارئاً لامهات كتب الفقه والحديث والحكمة في بلده والقسطنطينية ودمشق وبيت المقدس والحرمين الشريفين. وعرفه الشعر يشدو على فننه، فيثير المقاتلين في المعارك، ويطرب الناس في المبارك. قال عنه المغفور له الامير شكيب ارسلان: «كان المرحوم عبد القادر متضلعاً من العلم والأدب، سامي الفكرة، راسخ القدم في التصوف. لا يكتفي به نظراً حتى يمارسه عملاً. ولا يحن اليه شوقاً حتى يعرفه ذوقاً. وله في التصوف كتاب سماه المواقف. فهو في هذا المشرب من الافراد الافذاذ، وربما لا يوجد نظيره في المتأخرين. وله كتاب آخر ممتع اسماه «ذكر العاقل وتنبيه الغافل في الحكمة والشريعة». وقد ذكر مؤرخو الافرنجية أن ملكته العملية والدينية كانتا من أكبر أعوانه على تأسيس الحكومة التي أسسها. وانه كان ينال باللسان ما قد يعجز عنه بالسنان».

ويبدو أن «ذكر العاقل وتنبيه الغافل» كانت رسالة وجهها إلى الأكاديمية الفرنسية بباريس. وقد رتبها على مقدمة وثلاثة ابواب وخاتمة. حث فيها على النظر وذم التقليد، وأشاد بفضل العلم والعلماء وأثر العقل في إدراك العلوم وترقيتها، وفصل اثبات النبوة، وانصرف الى الكتابة مؤرخاً لها شارحاً لتطورها. ومن النواحي اللطيفة في هذه الرسالة قول الأمير، حول ما يصح ان يسمى حدود المعرفة: «ان نتائج الأفكار لا تقف عند حد، وتصرفات العقول لا نهاية لها، لأن العالم المعنوي واسع كالبحر الزاخر. والفيض الإلهي ليس له انقطاع ولا آخر». وغير محال ولا مستبعد أن يدخر الله لبعض المتأخرين ما لم يعطه لكثير من المتقدمين. فقول القائل: ما ترك الأول للآخر شيئاً، لأن هذه الكلمة تقطع الآمال عن زيادة العلم على علم المتقدمين، ويقتصر الآخر على ما قدمه الأول. وهو خطر عظيم، وقول سقيم. فالأوائل فازوا باستخراج الأصول، وتمهيد القواعد. والأواخر بالاستنباط من الأصول، وتشييد تلك القواعد وزيادة البناء فيها».

والأمير كما كان رب سيف كان صاحب شعر رائق جميل، خاصة عندما ندرك تماماً ما الذي رمى اليه من شعره. إن الأمير قال الشعر، أكثر ما قاله، لإلهاب روح الكفاح والجهاد في قلوب أهل البلاد. ومن هنا كان الكثير من شعره حماسياً يتغنى فيه

بالنصر، ويخفف من حدة وقع الإخفاق على أتباعه، ويفخر بما وصل اليه وأُلقي بين يديه. فهو الذي قال في مطلع شبابه مفتخراً:

وكم من مفازات يضل بها القطا قطعت بها والذئب من هولها عوى
فإن شئت علماً تلقني خير عالم وفي الروع اخباري غدت توهن القوى
وكم هامةٍ ذاك النهار قددتها بحد حسامي والقنا طعنه شوى
شددت عليهم شدة هاشمية وقد وردوا ورد المنايا على الغوى

وقال يفخر بنفسه وبقومه:

ركبنا للمكارم كلّ هول وخضنا أبحراً ولها زجالُ
اذا عنها توانى الغير عجزاً فنحن الراحلون لها العجال
سوانا ليس بالمقصود لما ينادي المستغيث ألا تعالوا،
ولفظُ الناس ليس له مسمى سوانا، والمنى منا ينال
لنا الفخر العميم بكل عصر ومصرٍ، هل بهذا ما يقال؟
رفعنا ثوبنا عن كل لؤم وأقوالي تصدّقها الفعال

وللأمير قصائد مدح فيها رجاله وأصحابه معدداً بذلهم وسخاءهم في سبيل الجزائر. منها قوله:

إن غيرهم بالمال شح وما سخا جادوا ببذل النفس دون تعلل
الباذلون نفوسهم ونفيسهم في حب مالكنا العظيم الأجلل
كم يضحك الرحمن من فعلاتهم يومَ الكريهةِ، نعم فعل الكمل
الصادقون الصابرونَ، لدى الوغى الحاملون لكل ما لم يُحمل
إن غيرهم نال اللذائذ مسرفاً هم يبتغون قراع كتب الجحفل

وكان قد نُصب مرة حكماً في قضية مناقشة في تفضيل البدو على الحضر فقال في ذلك:

يا عاذراً لامرىء قد هام في الحضر وعاذلاً لمحب البدو والقفر
لا تذممن بيوتاً خف محملها وتمدحن بيوت الطين والحجر
لو كنت تعلم ما في البدر تعذرني لكن جهلت، وكم في الجهل من ضرر

لكن الامير المتصوف القانت ما كان ليخلي سبيل الشعر دون ان يسخره لصوفيته. ومن ذلك مقطوعة عن مكة المكرمة يشير فيها الى أن مكة فيها كعبتان: كعبة المادة، وكعبة الجناب العالي. وفي ذلك يقول:

فمكة ذي خير البلاد فديتها فما طاولتها الشمس يوماً والا النسرُ

بها كعبتان: كعبة طاف حولها — حجيج الملا، بل ذاك عندهم الظفر
وكعبة حجاج الجناب الذي سما — وجلّ، فلا ركن لديه ولا حجر
وشتانَ ما بين الحجيجين عندنا — فهذا له ملك، وهذا له أجر
عجبت لباغي السير للجانب الذي — تقدس مما لا يجد له السير
ويلقي اليه نفسه بفنائه — بصدق تساوى عنده السر والجهر
فيلقى مناخ الجود والفضل واسعاً — ويلقى فراتاً طاب نهلاً فما القطر

وقد جمع السيد محمد شعر والده الأمير عبد القادر في ديوان سماه «نزهة الخاطر في أشعار عبد القادر»، منه اخترنا هذه المقطوعات. على اننا نود، بعد أن نقلنا شعراً حماسياً وصوفياً، ان نختم مختاراتنا بمقطوعة من شعر غزلي هو آية في الرقة، وقد نظمه الأمير في زوجه، قال:

أقاسي الحب من قاسي الفؤاد — وأرعاه ولا يرعى ودادي
أريد حياتها وتريد قتلي — بهجر، أو بصد، أو بعاد
وتهجرني بلا ذنب تراه — فطلمي قد رأت دون العباد
وأبذل مهجتي في لثم فيها — فتمنعني، وأرجع منه صادي
وأخضع ذلة فتزيد تيهاً — وفي هجري اراها في اشتداد
فما تنفك عني ذات عزٍ — وما انفك في ذلي أنادي
فما في الذل للمحبوب عار — سبيل الحب ذل للمراد
رضا المحبوب ليس له عديل — بغير الذل ليس بمستفاد
ألا! من منصفي من ظبي قفر — لقد أضحت مراتعه فؤادي
ومن عجب تهاب الأسد بطشي — ويمنعني غزال عن مرادي
وماذا غير ان له جمالاً — تملك مهجتي ملك السواد

خير الدين التونسي

١

اذا عد المصلحون في العالم العربي الحديث، كان خير الدين في طليعتهم. فقد كان رجل في زمن عز فيه رجال الدولة في ديار العرب. وكانت إدارته لشؤون الدولة التي تولاها تقوم على علم وبعد نظر ودراية يرافق هذا كله صدق واخلاص وامانة وضمير حي. فمن هو خير الدين؟ وما الذي فعله لتونس؟ وما هي آراؤه في الإصلاح؟

لسنا نعرف الا القليل عن حياة خير الدين في مطلعها. والمتعارف عليه بين الذين ترجموا له أن الرجل شركسي الاصل، وانه وصل الى القسطنطينية عن طريق سوق الرقيق، وانه وجد نفسه في صباه الاول في بيت تحسين بك، نقيب الاشراف. وعلى حد تعبير المرحوم الاستاذ احمد امين «عقل، فرأى نفسه في الآستانة في اسرة غير اسرته، في بيت تحسين بك نقيب الاشراف. ليست سيدة البيت له اماً، ولا تحسين بك اباً، ولا ابناء البيت اخوة. وانما يسمع همساً انه عبد مملوك... ونظر فرأى تحسين يوماً يعرضه على رجل يفحصه كما تفحص السلعة، ويصعّد فيه نظره ويصوب، ويختبره من فرقه إلى قدمه، ثم يدفع مالاً في يد تحسين. وينتقل هو إلى يده، وهذا يركبه مركباً يبحر به إلى تونس. واذا به في بيت جديد هو بيت احمد باي، باي تونس».

وهكذا فقد انتقل إلى تونس ايضاً رقيقاً. وكان هذا بين سنتي ١٨٣٠ و١٨٤٠، ولعل خير الدين قد تجاوز العشرين من سنه.

فما هي تونس التي وصل اليها خير الدين؟

٢

عرفت تونس في العقود الوسطى من القرن التاسع عشر ثلاثة حكام هم:

احمد باي ١٨٣٧ ـ ١٨٥٥

محمد باي ١٨٥٥ـ ١٨٥٩

محمد الصادق باي ١٨٥٩ ـ ١٨٨٢

وقد كان احمد باي حريصاً على أمرين: الأول أن يوطد استقلال بلاده عن الآستانة، بحيث تكون تبعية تونس للدولة العثمانية اسمية. والثاني أن يدخل إلى القطر التونسي كثيراً من الاصلاحات الهامة كإصلاح البحرية والجيش. فقد زاد عدد الجنود

بحيث بلغ الجيش نحو ثلاثين الفاً، واهتم بتنظيم الجيش. لكن المشكلة الرئيسة التي جابهته كانت اعداد الضباط التونسيين لتولي شؤون الفرق المختلفة والوحدات المتعددة من جيشه الكبير. فرأى أن خير حل لهذه المشكلة هو انشاء مكتب للعلوم العسكرية في تونس. وقد تم ذلك في سنة ١٨٤٠.

وكان في عداد الذين دخلوا هذا المكتب خير الدين. وكان من قبل قد أعده الباي إعداداً دينياً، فتعلم ما استطاع تعلمه على ايدي رجال الدين من اهل الزيتونة. فاتاحت له فرصة انضمامه إلى المكتب العسكري والاحتكاك برجال البعثة العسكرية المجال للاطلاع على نواحٍ جديدة من الثقافة العصرية، هندسة وجغرافية وتاريخاً. وقد كان الشاب منفتح الذهن نشيطاً، فتعلم الفرنسية إلى جانب العربية والتركية، وبذلك اصبح واسع الاطلاع، متكمناً من المعارف التقليدية والحديثة.

ويجدر بنا ان نشير هنا إلى رجل من كبار رجال الفكر والادب في تونس الذي كان له ارتباط وثيق بالمكتب العسكري، وهو الشيخ محمد قبادو. كان الشيخ يدرّس العربية والتربية الدينية، لكنه في الواقع قام بعمل آخر جليل إذ انه وضع، بالاشتراك مع مدير المكتب ونوابغ طلابه، خلاصات بالعربية لدروس الاساتذة الاجانب. وكان للشيخ قبادو أثر كبير في نفس خير الدين، الذي لم يكن طالباً في المكتب وحسب، بل كان يساعد في الادارة والتدريب.

كان العمل التالي لخير الدين هو الانضمام الى لواء الفرسان الذين اصبحت له رئاسته سنة ١٨٤٩. وهنا قام الرجل بتنظيم اللواء تنظيماً حسناً، فأخذ رجاله بالتدريب النافع والنظام الشديد، فخلق منهم جماعة منظمة مخلصة نشيطة.

وجدير بالذكر هنا، على ما يقول السيد أبو القاسم محمد كرّو، «ويحق لنا أن نفتخر بأن تونس كانت في مقدمة الدول التي أبطلت الاسترقاق، وحرّمت استعباد الانسان لأخيه الإنسان، فقد اصدر أحمد باي الأول، الذي امتلك خير الدين ورباه، اصدر امراً سنة ١٢٦٢ هـ/١٨٤٥م بإبطال بيع الرقيق بالقطر التونسي، وبغلق سوق العبيد (الذي يعرف اليوم باسم سوق البركة) وحجر على جميع التونسيين تجارة الرقيق، بل اكثر من ذلك أصدر أمراً آخر بعتق جميع العبيد وإعادة حريتهم اليهم». ومعنى هذا ان خير الدين اصبح حراً، بكل ما في الكلمة من معنى.

على أن عمل احمد باي لم يكن يقتصر على تحسين الجيش بل تعدى ذلك إلى الاسطول والبحرية، وأنشأ داراً للصناعة في تونس. وكان للبلاد في ايامه ١٢ بارجة وباخرة. ووطد استقلال البلاد متأثراً في ذلك بنصيحة الدول الاجنبية. وقد زار الباي باريس سنة ١٨٤٦، فأعجب بما فيها وأراد إدخال الكثير من نواحي الحضارة الأوروبية إلى بلاده. وكانت البلاد يومها ترتع في الجهل، إلا من عصم الله وأتيح له ان يدخل الزيتونة في الحاضرة او مدارس أخرى يقتصر التعليم فيها على شيء من القراءة والدين.

والجدير بالذكر ان هذه الاصلاحات احتاجت الى نفقات كثيرة أثقلت كاهل الدولة والبلاد بالديون. ولم يكن سبب ذلك الفقر فقط، ولكن البلاد بليت بوزير جشع طماع هو مصطفى خزنه دار الذي ولي شؤونها اكثر من ثلث قرن، ورجل آخر شديد الطمع مولع بجمع المال هو محمود بن عباد. وقد شجع هذين وغيرهما الاحتكار الذي كانت الدولة تمارسه خاصة في بيع الملح والصابون، وإغماض الباي عينيه عن تصرفاتهما، ما دام مصطفى يوفر للباي حاجته من المال لمعيشة طابعها البذخ والترف.

ولسنا هنا بمعرض التأريخ للقطر التونسي في هذه الفترة، لكن يجدر بنا أن نشير الى ان محمود بن عياد هجر القطر التونسي إلى فرنسة، وتجنس بالجنسية الفرنسية، وهناك طالب الحكومة التونسية بدين ادعاه يبلغ مليون فرنك. فأرسل الباي خير الدين إلى باريس ليدافع عن تونس، فقضى هناك ثلاث سنين أو يزيد بين (١٨٥٢ و١٨٥٦). وانتهى الامر باللجوء إلى لجنة تحكيم كان خلاصة حكمها أن اضطرت ابن عياد الى اعادة مبلغ ٢٤ مليون فرنك الى تونس، بدل أن يأخذ منها هو أي مبلغ. وكان فضل خير الدين في هذه القضية كبيراً.

لكن اهم من هذا هو أن خير الدين قضى هذه السنوات الثلاث في باريس وهو يتعلم ويلاحظ ويدرس ويقرأ ويتصل بأهل العلم والادارة والقضاء. فجاءت إقامته هناك خيراً وبركة عليه وعلى تونس فيما بعد.

٣

جاء محمد باي إلى عرش تونس سنة ١٨٥٥ وبقي محتفظاً بهذا العرش لحين وفاته سنة ١٨٥٩. فلما عاد خير الدين إلى تونس عيّنه الباي الجديد وزيراً للحربية وهو المنصب الذي ظل فيه الى سنة ١٨٦٢. وقد نظّم هذه الوزارة، وأدخل نظام الاحتفاظ بسجلات وقيود لرجالها وموظفيها، ووسع ميناء حلق الواد.

على أن شيئاً آخر تم في هذه الفترة. فقد اصدر الباي محمد سنة ١٨٥٧ «عهد الامان» وهو شرعة حقوق المواطنين التونسيين والمقيمين في تونس. وقد نص عهد الامان، فيما نص عليه، وجوب انشاء مجلس كبير يكون الى جانب امير البلاد يسدي اليه النصح، ويعينه في ادارة الدولة، ويشرف على شؤون البلاد المالية والسياسية. وبعد وفاة محمد باي، وتسلم محمد الصادق باي شؤون البلاد (١٨٥٩ - ١٨٨٢) وضع هذا الشرط من عهد الامان موضع التنفيذ (١٨٦٠) فانشأ المجلس الكبير، وعين خير الدين نائباً لرئيسه، ثم تولى رئاسته، إلى جانب قيامه بوزارة الحربية.

اراد خير الدين أن يقوم المجلس بواجباته قياماً صحيحاً، واراد له ان يكون هو صاحب القول في قضايا البلاد المالية والسياسية والادارية، ورغب في ان يكون الباي نفسه خاضعاً لتوجيهات المجلس على نحو ما قصد اليه عهد الأمان اصلاً. ولكن

الباي لم يكن يريد ذلك تماماً. فالذي اعتاد الانفراد بالأمر، والذي نشأ على ذلك متذكراً اسلافه، لا يسهل عليه أن يتنازل عن سلطانه وامتيازاته وانفراده. ولكن خزنه دار كان لا يزال الوزير الاكبر، لا اسماً فقط، ولكن فعلاً. فهو صاحب النفوذ العملي في القصر وفي الادارة. ولم يكن يرغب، وقد اعتاد أن ينفذ مشيئته كما يريد، أن يتنازل عن ذلك. فضلاً عن أنه كان حريصاً على زيادة ثروته، بقطع النظر عن الاساليب والوسائل، فكيف يمكنه اذن أن يسمح لمجلس، مهما كان نوعه وتركيبه، ان يتولى الشؤون العامة ويقصيه هو عنها؟ وكان مصطفى خزنة دار ييسر للباي ما يحتاج اليه من النفقات، لذلك كان هذا يؤيده ويثق به.

وجدير بالذكر هنا أن خير الدين كان قد تزوج ابنة مصطفى خزنة دار، وبذلك كان يشعر دوماً بارتباطه بالباي (فهو خليفة مولاه) وبالوزير الاكبر (فهو حموه). ولعلّ هذا مما حفزه على التؤدة والانسحاب، بدل إعلان الثورة والعصيان، وقد كان ذلك في مقدوره.

على أن مقاومة المجلس الكبير لم تأتِ من الباي وخزنه دار فحسب ولكنها جاءت من رجال الدين ايضاً. وفي ذلك يقول المرحوم احمد امين: «فرجال الدين لم يرضوا عنه، لأن بعض احكام القانون سياسية لا شرعية، ولأن القانون يقضي بالحكم بالأغلبية، وقد ترى الأغلبية ما لا يرتضي الدين».

واذا تذكرنا ان فرنسة كانت تتحين الفرص، منذ احتلالها الجزائر سنة ١٨٣٠، لاغتصاب تونس ايضاً، فاننا ندرك انها ما كانت تريد للبلاد أن تصلح امورها وتنظم شؤونها وتنتشر العدالة في ارجائها، وتستقيم ماليتها وتنتعش زراعتها وتتسع تجارتها، فكل اولئك امور لو تمت لتمكنت تونس من الوقوف في وجه الاعتداء. وانما كانت فرنسة تبغي لتونس أن تزداد تردياً إدارياً وتعم الفوضى أجزاءها وتجف مواردها وتغرق في الديون، وفرنسة مستعدة للادانة، لأن ذلك يمكنها من التدخل في شؤونها وادعاء حق حماية المصالح المالية والتجارية لرعاياها، ويتيح لها فرصة الحصول على امتيازات ذات قيمة اقتصادية حالياً وسياسية وعسكرية مستقبلاً. واذن فلم يكن في مصلحة فرنسة وجود مجلس صاحب سلطان حقيقي واقعي، ولا قيام رجل نزيه مخلص امين مدرك لواجباته على رأسه.

وتضافرت تلك القوى ضد خير الدين. فرأى الانسحاب من الميدان فتم ذلك سنة ١٨٦٢ اذ استقال من رئاسة المجلس ومن وزارة الحربية. وبعد ذلك بقليل الغى مصطفى خزنه دار المجلس كليةً.

٤

بعد اعتزال خير الدين الحكم انصرف الى الدرس والتأليف فوضع كتابه «اقوم المسالك في ادارة الممالك». على اننا سنتناول هذا الكتاب فيما بعد، محاولين الآن أن

نتابع عمل خير الدين في الشؤون العامة مباشرة. الا اننا نود أن نشير هنا اشارة عابرة إلى أن تفكيره في شؤون بلاده في ضوء التاريخ الاسلامي والتقدم الأوروبي الذي خبره عن كثب في باريس اولاً، وفي رحلاته التالية الى اوروبة ثانياً، ووضعه آراءه مدونة ـ كل هذا أتاح له أن تكون له نظرة صحيحة إلى المشاكل والقضايا. وترتب على ذلك انه لم يرتجل الأمور ولم يقف من مشاكل تونس موقف المتردد. ولسنا نزعم أن خير الدين لم يخطىء، ولكنه كان خطأ المجتهد أعمل الفكر وقلَّب الأمر وبحث القضية ثم اقدم، فأصاب في أكثر الأحيان واخطأ في اقلها.

كانت المشكلة الأساسية التي تتطلب معالجة حازمة سريعة هي قضية الديون التي تراكمت على تونس، والتي كانت مجالاً للتدخل في شؤون البلاد. وكانت الدول المعنية بها فرنسة وبريطانية وايطالية. أما الديون فكانت قد بلغت ١٢٥,٠٠٠,٠٠٠ فرنك. وكانت الحكومات الاجنبية تحاول أن تضع يدها على الكثير من مرافق البلاد لتضمن حقوق مواطنيها. واخيراً، وبعد لأيٍ، اتفقت الدول الثلاث مع الصادق باي على أن تنشىء لجنة (قوموسيونا) فيها اعضاء تونسيون وفرنسيون وانكليز وايطاليون لإنها هذه المشكلة. فطلب الباي من خير الدين أن يرأس هذه اللجنة، فتردد واعتذر لكنه قبل اخيراً امام الإلحاح الشديد، فتولى رئاسة اللجنة سنة ١٨٦٧. وكان مصطفى خزنه دار لا يزال الوزير الأكبر، رغم ما جرَّه على البلاد من ويلات، وكان قد عطل اعمال عهد الأمان والدستور والمنشآت التي قامت تبعاً لذلك.

ولي خير الدين رئاسة اللجنة، فكان أن نجح في وضع حد لمطامع الأعضاء الأجانب فيما يتعلق برغبتهم في وضع اليد على مرافق الدولة. فوحدت الديون وحددت الفوائد. وانتقل خير الدين إلى المفاوضة والمداورة والجدل والمناقشة فنجح في تنظيم ميزانية الدولة، وبذلك امكنه التعهد بالنيابة عن الحكومة التونسية بدفع الفوائد في مواعيد استحقاقها. وكان هذا نصراً كبيراً في الداخل والخارج، خصوصاً أنه حقق وعوده.

ولكنه اهتم بشيء آخر لا يقل أهمية عن الأمر السابق، بل هو في الواقع اصل له. ذلك ان البلاد كانت قد اقفرت معالم الانتاج فيها، فزراعتها في بوار، وصناعتها في إهمال، وتجارتها في انحلال. والناس يتهربون من الزراعة وغيرها خشية ان تتفتح عليهم العيون، فيكلفون بدفع ضرائب لا تقدر مواردهم على الوفاء بها. لذلك اتجه خير الدين نحو هذه المشاكل «فخفف من الضرائب ونظم طرق تحصيلها... وشجع غرس الزيتون والنخيل، فأعفى كل من غرس منهما جديداً من الضرائب عليها مدة عشرين عاماً.. وأمر بالنظر في شكايات من نكب من الناس على يد الحكومة السابقة ورد ظلامتهم».

إلا ان المصائب التي كانت تتعرض لها البلاد منذ ثلث قرن أو يزيد، ما كان لرجل

واحد ان يحلها دفعة واحدة، وفي هذا الوقت القصير، خاصة أن مصطفى خزنه دار كان لا يزال صاحب القول الفصل في شؤون الدولة. فقصرت الواردات الرسمية عن دفع الفوائد المستحقة في السنة الثالثة، وتشدد العضو الفرنسي فلم يقبل بضم الفوائد الى الدين رغبة في الاستمرار في توحيد المدفوعات حتى لا تختل الامور. وكان مصطفى خزنه دار يحاول التخلص من خير الدين. لكن الوزير الاكبر وقع اخيراً. فقد ضبطته اللجنة المالية في سقطة كبيرة، فلم يكن بد من عزله، بعد ان تولى الامر ستاً وثلاثين سنة، كان فيها صاحب الرأي المسموع، ولكنه الرأي الخاطىء بالنسبة إلى البلاد.

٥

لم يرَ الباي بدأ من تكليف خير الدين بتولي الوزارة الكبرى. فوليها من ١٨٧٣ إلى سنة ١٨٧٧، مع احتفاظه برئاسة اللجنة المالية، وهي سنوات حاول فيها خير الدين إصلاح الحال. فما الذي تم على يده؟

لعل ابرز ما تم في هذه السنوات الأربع هو القضاء على الفوضى والغش في الادارة وجمع الضرائب. بدأ خير الدين في قضية الضرائب فألغى تلزيمها وتضمينها وجعلها عملاً ادارياً يقوم به اناس مشهود لهم بحسن السيرة، وسمح لهم ان يتقاضوا عشر ما يجمعون أجراً لهم. لكن طلب منهم ان يقدموا كشوفاً صحيحة مفصلة تبين ما جمعوه منطقة منطقة وناحية ناحية. وتنظيم الضرائب مكَّن للدولة ان تسدد ما عليها من فوائد الديون في الأوقات المستحقة فيها. وقد ساعدها على ذلك مواسم جيدة في سنوات ١٨٧٣ ـ ٧٤ ـ ٧٥.

وعمل خير الدين على تنظيم القضاء الذي كان يشكو سقماً واستغلالاً وسوء استعمال تحت الادارة السابقة. فنظمت المحاكم وحددت واجبات القضاة وفصلت مؤهلاتهم ورتب امر كتاب العدل. وحاول ان ينظم القضاء فيما يتعلق بالأجانب لكنه اصطدم بالامتيازات الأجنبية، ورأى في النهاية ان يكتفي بنجاح جزئي وهو إنشاء محكمة ثلاثية مختلطة (موقتة) تنظر في القضايا المتعلقة بالرعايا الأجانب. اما الذي كان يسعى اليه فهو انشاء محكمة (للنظر في جميع القضايا) تكون اكثرية قضاتها اوروبيين على ان تكون رئاستها لتونسي. ولكن قصر المدة التي ظل فيها خير الدين وزيراً اكبر حالت دون السير قدماً في هذه الناحية.

واهتم خير الدين بمدينة تونس فأدخل فيها نظام الحراسة والشرطة ونظَّم مجلسها البلدي.

وانصرف الرجل الى موارد الثروة ينميها. فالزراعة تحرس، والأرض تغرس، وهذه اشجار الزيتون تنتشر في الساحل وفي صفاقس. كما انه أعاد الى الصناعات التونسية الكثير من نشاطها، خاصة صناعة «الشاشية» والدباغة وما اليهما ـ ورغب في رفع

الجمارك، لكنه اصطدم، هنا ايضاً، بمقاومة الدول الأجنبية التي باتت تمنعها على اساس الامتيازات الاجنبية. ومع كل ذلك، فان هذه السنوات القليلة التي تولى فيها خير الدين شؤون تونس اعادت إلى البلد أمنه وثقته بنفسه، فانتعش. إذ فضلا عن تقدم الزراعة، فقد عاد إلى التجارة بعض نشاطها، فعادت السفن تلقي بمراسيها في موانىء القطر، ورجعت القوافل تحمل المتاجر إلى مدن تونس. وعاد إلى اسم الدولة احترامه المالي، إذ نفذت تعهداتها. وقد تضاعفت موارد الدولة، ووجدت نفسها وقد أصبح لديها بعض الوفر. وبرهن خير الدين، على ما يقوله غانياج، انه كان مستقلاً ووطنياً، ولم يغره شيء او يحوله عن قصده. وقد كان من نتائج توليه الامور بتونس الدفع بالبلد بضع سنوات الى الامام.

ولعل مما يخلد ذكر خير الدين اكثر من أي عمل واحد هو اهتمامه بالتعليم في تونس. فقد فتح الكثير من المدارس في الحاضرة وغيرها من المدن. وعمل على إصلاح التعليم في الزيتونة، وأنشأ مكتبة عامة (١٨٧٥) وهبها الفاً ومائة مخطوطة من ملكه الخاص. الا ان خير ما تم على يديه في هذه الناحية هو انشاء المدرسة الصادقية (١٨٧٥)، ووقفه الأوقاف اللازمة عليها. وهذه المدرسة فريدة في ذلك الوقت. فانها كانت، الى جانب العناية بالقرآن، تتيح لطلابها دروساً في الفرنسية او الايطالية، وتمكن لهم من درس الرياضيات والعلوم. وهكذا فقد أراد خير الدين ان يكون للشباب التونسي منفذ وطني محلي على هذه الحضارة الحديثة التي سارت بالغرب قدماً. وقد أراد خير الدين ان يكون للبلاد في خريجي هذه المدرسة ما تحتاجه من مدرسين وكتاب وموظفين للدولة يتفهمون العمل ويقومون به عن إدراك ومعرفة.

لكن خير الدين تعرض اخيراً إلى كل ما يمكن ان يتعرض اليه مثله في مثل منصبه ومثل الظروف التي كانت تمر بها تونس. فالباي لم يكن يحب هذه القيود التي يقيده بها وزيره. وحساد خير الدين كثر، والرجل نشيط قوي عنيف، ومطامع الدول لا يمكن ان تتفق والرجل القوي. لذلك انتهى الأمر به أن طلب اليه الباي ان يعتزل المنصب، ففعل (١٨٧٧). وقد قال احد الباحثين الفرنسيين «ان تونس خسرت رجل دولة حقيقيًا ووطنياً مخلصاً» في زمن عز فيه رجال الدولة والوطنيون المخلصون.

٦

عز على خير الدين ان يكون هذا جزاءه على ما فعل وأراد، فتألم كثيراً. وزاد ألمه أن قاطعه الناس بسبب موقف الباي منه. وقد ذهب الى فرنسة مستشفياً غير مرة، وأخيراً استأذن بمغادرة تونس والعودة إلى الاستانة، تلبية لدعوة تلقاها من اولي الشأن هناك. فأذن له الباي. فغادر تونس في شهر آب (اغسطس) ١٨٧٨، كان سفره سفراً حزيناً تعطف عليه قلوب الناس ولا يتيسر لهم وداعه لأن الباي أمر أن لا وداع». وما

كاد يستقر به المقام في الاستانة حتى عين وزير دولة يحضر اجتماعات مجلس الوزراء. ومع انه اعتذر عن قبول منصب وزير العدل على ما يرجح، فإنه أرغم على تولي الصدارة العظمى ـ أي رئاسة الوزراء في الدولة العثمانية في خريف ١٨٧٨، في وقت من احرج الاوقات في تاريخ الدولة العثمانية في عصورها الحديثة. إذ كانت الجيوش الروسية قد انتصرت على جيوش الدولة، وأصبحت تهدد العاصمة نفسها، والاسطول البريطاني على مقربة منها في الجهة الاخرى، وحالة الدولة المالية والاقتصادية سيئة بسبب ما نكبت به من سلاطين وحاشية وكانت مشكلتا مصر وقبرص قائمتين.

ومع ان خير الدين عمل المستحيل ليحل المشاكل في مصلحة تركيا على خير ما يمكن، فقد كان ثمة اختلاف بينه وبين عبد الحميد الثاني، سلطان تركيا (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩) فلم يكن هذا يريد الرجل القوي الحر المفكر العادل الشديد، وهو الرجل الذي يرى ان العناية الإلهية ارسلته للقيام بواجبه. ووقف رجال الدين من خير الدين موقف العداء. وكأن الظروف والأحوال التي ناوءته في تونس انتقلت إلى الاستانة لتحاربه من جديد. وكما نُحي عن منصبه هناك، عزل منه هنا.

وفي سنة ١٨٨٩ توفي هناك ودفن في جامع ايوب. وقد عمر نيفاً وسبعين سنة.

٧

هذا الرجل الذي عاش هذه العقود من القرن التاسع عشر خلَّف لنا، فضلاً عن اعماله، كتاباً حرياً بأن يدرس درساً وافياً، وان كنا هنا نكتفي بعرض ما فيه من آراء عرضاً سريعاً.

الكتاب هو «أقوم المسالك في معرفة احوال الممالك». وضعه خير الدين بعد اعتزاله وزارة الحربية ورئاسة المجلس الكبير. والكتاب فيه مقدمة وفيه تاريخ. والتاريخ يتناول فيه وصفًا مقتضبًا لدول اوروبة، جغرافية وطبيعة وموارد وتاريخاً. وكان يرمي منه الى اسباب تقدم اوروبة.

اما المقدمة فكانت ترمي الى درس أحوال الشعوب الاسلامية واسباب تأخرها وسبل اصلاحها وتقدمها من جديد. وهو فيها ينعى على المسلمين كراهيتهم الأخذ بأساليب المدنية الغربية في الاصلاح، واعتقادهم ان كل ما صدر عن اوروبة حرام، ويعللون ذلك بعلل مختلفة، كأن يقولوا إنها مخالفة للشريعة الاسلامية، أو يقولوا انها اذا ناسبت الأمم الغربية فلا تناسب الأمم الشرقية، لأن لكل أمة موقفها الاجتماعي وعقليتها وتاريخها، أو أن يقولوا ان المدنية الغربية بطيئة الاجراءات وخاصة في طريقة القضاء، او ان يقولوا ان النظم الغربية تستلزم التوسع في الادارة وتقسيم الأعمال، وهذا يستلزم كثرة الوظائف والموظفين، وليس هناك مال يكفي لكل هذا، فلا بد إذا من فرض ضرائب جديدة، والبلاد فقيرة وأهلها لا يحتملون زيادة الضرائب.

ويقول في سبيل ذلك «ان الباعث الاصلي على ذلك أمران آيلان إلى مقصد واحد، أحدهما إغراء ذوي الغيرة والحزم من رجال السياسة والعلم بالتماس ما يمكنهم من الوسائل الموصلة الى حسن حال الأمة الاسلامية وتنمية اسباب تمدنها بمثل توسيع دوائر العلوم والعرفان وتمهيد طرق الثروة من الزراعة والتجارة وترويج سائر الصناعات ونفي اسباب البطالة وأساس جميع ذلك حسن الامارة المتولد منه الأمن المتولد منه الأمل المتولد منه إتقان العمل المشاهد في الممالك الأورباوية بالعيان وليس بعده بيان. ثانيهما تحذير ذوي الغفلات من عوام المسلمين عن تماديهم في الإعراض عما يحمد من سيرة الغير الموافقة لشرعنا بمجرد ما انتقش في عقولهم من ان جميع ما عليه غير المسلم من السير والتراتيب ينبغي ان يهجر، وتآليفهم في ذلك يجب ان تنبذ ولا تذكر، حتى انهم يشددون الانكار على من يستحسن شيئاً منها، وهذا على اطلاقه خطأ محض. فان الأمر اذا كان صادراً من غيرنا وكان صواباً موافقاً للأدلة لا سيما اذا كنا عليه وأخذ من ايدينا فلا وجه لإنكاره وإهماله، بل الواجب الحرص على استرجاعه واستعماله، وكل متمسك بدينه وإن كان يرى غيره ضالاً في ديانته فذلك لا يمنعه من الاقتداء به فيما يستحسن في نفسه من اعماله المتعلقة بالمصالح الدنيوية كما تفعله الأمة الافرنجية، فإنهم ما زالوا يقتدون بغيرهم في كل ما يرونه حسناً من اعماله حتى بلغوا في استقامة نظام دنياهم إلى ما هو مشاهد، وشأن الناقد البصير تمييز الحق بمسبار النظر في الشيء المعروض عليه قولاً كان أو فعلاً، فإن وجده صواباً قبله واتبعه سواء كان صاحبه من اهل الحق أو غيرهم فليس بالرجال يعرف الحق، بل بالحق تعرف الرجال، والحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها».

فإذا انتقل الى المنكرين لأعمال الافرنج الحسنة فهو يرد عليهم بقوله: «على أنَّا اذا تأملنا في حالة هؤلاء المنكرين لما يستحسن من اعمال الافرنج نجدهم يمتنعون من مجاراتهم فيما ينفع من التنظيمات ونتائجها ولا يمتنعون منها فيما يضرهم؛ وذلك أنا نراهم يتنافسون في الملابس وأثاث المساكن ونحوها من الضروريات وكذا الأسلحة وسائر اللوازم الحربية، والحال ان جميع ذلك من اعمال الافرنج ولا يخفى ما يلحق الأمة بذلك من الشين والخلل في العمران وفي السياسة: اما الشين فبالاحتياج للغير في غالب الضروريات الدال على تأخر الأمة في المعارف، وأما خلل العمران فبعدم انتفاع صناع البلاد باصطناع نتائجها الذي هو اصل مهم من اصول المكاسب، ومصداق ذلك ما نشاهده من ان صاحب الغنم منا ومستولد الحرير وزارع القطن مثلاً يقتحم تعب ذلك سنة كاملة ويبيع ما ينتجه عمله للافرنج بثمن يسير ثم يشتريه منه بعد اصطناعه في مدة يسيرة بأضعاف ما باعه به. وبالجملة فليس لنا الان من نتائج ارضنا الا قيمة موادها المجردة دون التطويرات العملية التي هي منشأ توفر الرغبات

منا ومن غيرنا. ثم اذا نظرنا إلى مجموع ما يخرج من المملكة وقايسناه بما يدخلها، فإن وجدناهما متقاربين، خف الضرر. وأما اذا زادت قيمة الداخل على قيمة الخارج فحينئذ يتوقع الخراب لا محالة. وأما الخلل السياسي فإن احتياج المملكة لغيرها مانع لاستقلالها وموهن لقوتها لا سيما اذا كان متعلق الاحتياج الضروريات الحربية التي اذا تيسر شراؤها زمن الصلح فلا يتيسر ذلك وقت الحرب ولو بأضعاف القيمة. ولا سبب لما ذكرناه إلا تقدم الافرنج في المعارف الناتجة عن التنظيمات المؤسسة على العدل والحرية. فكيف يسوغ للعاقل حرمان نفسه مما هو مستحسن في ذاته ويستسهل الامتناع عما به قوام نفعه بمجرد اوهام خيالية واختباط في غير محله.»

ويتحدث عن اسباب تقدم اهل اوروبة فيقول: «وانما بلغوا تلك الغايات والتقدم في العلوم والصناعات بالتنظيمات المؤسسة على العدل السياسي وتسهيل طرق الثروة واستخراج كنوز الارض بعلم الزراعة والتجارة وملاك ذلك كله الامن والعدل اللذان صارا طبيعة في بلدانهم. وقد جرت عادة الله في بلاده أن العدل وحسن التدبير والتراتيب المحفوظة من اسباب نمو الاموال والانفس والثمرات وبضدها يقع النص في جميع ما ذكر.»

ويرى خير الدين أن سياسة الدولة وإدارتها بحاجة الى المشورة فيقول: «ومن اهم اصولها وجوب المشورة التي أمر الله بها رسوله المعصوم وصلى الله عليه وسلم مع استغنائه عنها بالوحي الالهي وبما اودع الله فيه من الكمالات فما ذاك الا الحكمة أن تصير سنة واجبة على الحكام بعده».

ويعتقد الرجل أن التغيير في حياة الدول أمر ضروري. ويؤكد على ذلك بقوله «قلت اولاً التغيير المشار اليه ما استقام للبشر ملك لأن الوزاع ضروري لبقاء النوع الانساني ولو ترك ذلك الوزاع يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لم تظهر ثمرة وجوب نصبه على الأمة لبقاء الاهمال بحالة فلا بد للوزاع المذكور من وازع له يقف عنده إما شرع سماوي أو سياسة معقولة وكل منهما لا يدافع عن حقوقه ان انتهكت فلذلك وجب على علماء الأمة وأعيان رجالها تغيير المنكرات، ونصب الاورباويون المجالس وحرروا المطابع فالمغيرون للمنكر في الأمة الاسلامية تتقيهم الملوك كما تتقي ملوك اوروبا المجالس وآراء العامة الناشئة عنها وعن حرية المطابع ومقصود الفريقين واحد وهو الاحتساب على الدولة لتكون سيرتها مستقيمة وان اختلفت الطرق الموصلة إلى ذلك».

ويقسم الحكام فيقول عنهم: «وبيان ذلك أن حالة الملوك بمقتضى الطبيعة البشرية لا تخرج عن صور ثلاث لأن الواحد منهم إما أن يكون كامل المعرفة والمحبة لخير الوطن قادراً على اجراء المصالح بمراعاة الأصلح أو يكون كامل المعرفة ولكن له اغراض وشهوات خصوصية تصده عن مراعاة المصالح العمومية أو يكون ناقص المعرفة ضعيف المباشرة.»

واذ هو يبرهن عن الحاجة إلى استشارة أهل الحل والعقد، مستمداً آراءه من التاريخ عامة يقول: «فبان بهذا أن الممالك التي لا تكون لادارتها قوانين ضابطة محفوظة برعاية الحل والعقد خيرها وشرها منحصر في ذات الملك وبحسب اقتداره واستقامته يكون نجاحها، ويشهد لذلك حالة الممالك الاورباوية في القرون الماضية قبل تأسيس القوانين فقد كان لهم في ذلك الوقت من الوزراء من لهم شهرة إلى الآن بتمام المعرفة والمروءة ومع ذلك لم يتيسر لهم حسم مواد الخلل المنبعث من صورتي استبداد الملوك المشار اليهما. ولا يقال ان مشاركة أهل الحل والعقد للامراء في كليات السياسة تضييق لسعة نظر الإمام وتصرفه العام لأنا نقول هذا التوهم يندفع بمطالعة الأحكام السلطانية للماوردي فانه قال فيه عند بيان وزارة التفويض هي أن يستوزر الامام من يفوض اليه تدبير الأمور برأيه وامضائها على اجتهاده وليس يمتنع جواز هذه الوزارة فان اللّه تعالى يقول حكاية عن نبيه موسى عليه السلام ﴿وَاجْعَل لي وَزيراً مِن أَهْلي هرُونَ أخي. أُشْدُدْ بهِ أَزْرِي. وَأَشْرِكْهُ في أَمْرِي﴾ فاذا جاز ذلك في النبوءة كان في الأمامة أجوز.

«قلت فاذا جاز تشريك الإمام لوزير التفويض على الوجه المذكور ولم يعد مثل ذلك تنقيصاً من تصرفه العام كان تشريكه لجماعة هم أهل الحل والعقد في كليات السياسة اجوز لأن اجتماع الآراء إلى مواقع الصواب أقرب».

٨

ولعله من حق القارىء علينا، وقد عرضنا هذه الصورة للرجل، أن نضع امامه هذا السؤال: من اين جاءت خير الدين هذه الآراء.

لنذكر اولاً أن خير الدين أعد اعداداً دينياً صحيحاً. ومعنى هذا، بالنسبة إلى رجل واعٍ مفتح القلب، انه أخذ نفسه بالاهتمام بمسلمي تونس. ولنتذكر، ثانياً، أن خير الدين تعلم في المكتب العسكري في ايام احمد باي، وانه لم يكن هناك متعلماً فحسب، ولكنه كان يشارك في اعمال المكتب. وهذه المدة التي قضاها هناك فتحت عينيه على العلم على انه علم برياضياته وطبيعياته وجغرافيته وتاريخه وعلومه العسكرية. وفي هذا المكتب احتك باساتذة اجانب احتكاكاً مباشراً. وهذا مكّنه من فهم المسائل فهماً أعمق. لكن يجب أن نذكر امرين آخرين. أما اولهما فهو أن خير الدين قضى سنوات في باريس يرافع ضد ابن عياد ويدفع تهمه. وهناك عاش المدنية الغربية عيشاً مباشراً. فرأى خيرها وشرها، وذاق حلوها ومرها. وكان الرجل يعرف الفرنسية معرفة مكنت له من قراءة آثار القوم مباشرة، وادراك الأسس التي تقوم عليها حياتهم. وقد رحل خير الدين إلى اوروبة بعد ذلك غير مرة، فأمكنه أن يرى غير فرنسة وسوى الفرنسيين.

اما الأمر الآخر فهو أن خير الدين قرأ مقدمة ابن خلدون. وكثيرون ولا شك

قرأوا المقدمة، ولكن خير الدين قرأها وأمعن فيها وأدرك الكثير من المشاكل التي جابهها التونسي القديم، فأراد هو أن يطبق نظرة المؤرخ الكبير على معاصريه وبلاده في القرن التاسع عشر.

ومن هنا كانت آراء خير الدين الناضجة ونظرته السليمة، بالنسبة الى ايامه. فهي مزيج من عقل وقاد وإيمان قوي وملاحظة دقيقة ومعرفة عميقة وأفق واسع ورغبة في الإصلاح صادقة. رأى العيب فأدرك أسبابه وعالجها نظرياً في «اقوم مسالكه»، فلما ولي الأمر كان له، على حد تعبيرنا اليوم، «برنامج ومنهاج وفلسفة». وقد أراد وضع هذه كلها في عمله. ومن هنا كان التوفيق حليفه في أكثر ما فعل، أما انه اخطأ فذلك، كما قلنا، هو خطأ المجتهد المدقق، لا خطأ المرتجل المتبدل المتغير.

ولعل من حق خير الدين علينا أن نختم هذه الدراسة السريعة بما ختم به كتابه، ليظهر للقارىء ما أخذ به الكاتب نفسه من عناية واهتمام في وضع كتابه. قال: «يقول جامع هذا الكتاب الهمه الله الى الرشد والصواب هذا ما تيسر لنا جمعه بحول الله من تصاريف الممالك الاسلامية والاورباوية مستعينين في تهذيب الفاظه ببعض ابناء الوطن والمظنون بمن رمقه بعين الانصاف أن يرى فيه إفادة كافية في معرفة المهم من أحوال تلك الأمم وان يغتفر في جنب ذلك ما لا يخلو عنه كلام مترجم من قلق العبارة وعدم الانسجام سيما وغالب ما ترجمناه يشتمل على مدلولات مستحدثة لم توضع لها الفاظ عربية حتى انا نلتجىء بذلك إلى نقل اللفظ بحاله اتكالاً على اشتهاره ولو عند خصوص المستعلمين لحوادث الوقت ولا نمنع ان يكون منشأ ذلك عدم اطلاعنا على الرديف العربي. وبالجملة فاغضاء ذوي العرفان مأمول لمثلنا ممن لم يجرئه على موقف الاستهداف الا القيام بواجب النصح لله ورسوله ولائمة المسلمين وعامتهم. وبناء على كون ذلك مصدر التأليف نعلن لمن عسى ان يعثر فيه على شيء من الهفوات بأنا نرى له المزية علينا في الإرشاد إلى إصلاحه بما يكون أعون في استجلاب النصيحة مستوجباً بذلك ثناءنا ثم الثواب من رب العباد. أنجز هذا التأليف باعانة الله تعالى عشية يوم الاثنين عاشر جمادى الأولى سنة اربع وثمانين ومائتين والف [١٨٦٧م].

القسم الثالث

رحلات حديثة

جربه

هذه رقعة من الأرض يدور بها البحر من جميع جهاتها، فيسرع اليها ممرغاً وجهه على جسمها الناعم، فاذا أحسن ارتواء انحسر عنها، ولا يلبث ان يعاوده الشوق اليها فيعود لينعم بها. وهكذا يقضي أيامه ولياليه وهو بين شعور بالارتواء وإحساس بالشوق. ويطل القمر بدراً من خلال هذه الغيوم المتناثرة في رقعة السماء، ليتأكد من هذه الأشباح الواقفة على الجزيرة هل هي عذارى نثر الريح شعورها يمنة ويسرة، أم وهي أشجار نخيل تطعم الناس لذيذ ثمرها، وتسكرهم بخمرها؟، ومع انه ينزوي خلف غيمة خجلاً دون أن ينال بغيته، فإنه يبدو ثانية وكأنه يسترق النظر إلى هذه الأشياء المتكورة البيضاء ليرى أهي صدور العذارى شرعتها للهوى أم هي قباب هذه البيوت التي أوى اليها أهل العمل والأحلام! ويظل القمر يحار في الأمر فلا هو قادر على إدراك الحقيقة ولا هو قادر على طرد الاحلام.

وهذه الشمس تلفحها عند الشروق فتثير ما فيها من شوق إلى الحياة، وتحرقها عند الظهيرة فتسترخي كسلاً، وتودعها عند الغروب تاركة لها شفقاً وردياً يحبب اليها اللذائذ والملاذ.

وهذه الجزيرة تختبر الحياة، فتحب وتكره، وتسر وتألم، وتحيي وتميت. وهي في كل هذا تتململ راضية حيناً، غاضبة حيناً. فاذا كان في تململها غضب أو ألم ظهرت آثار ذلك على جسمها أرضاً قاحلة أو صبراً شائكاً. ولكنها يغلب عليها تقلب الرضى، وعندها تنفجر ينابيع صغيرة تروي الزرع والضرع، أو تنبت نخيلاً ينعم الناس به غذاء ووعاء وكساء، أو تغذي شجر الزيتون الذي يتبارك الناس به ثمراً وبلسماً وحطباً.

وتحركت جربة، وقد أحست بخفيف الوطء على أديمها، وابتسمت وتكلمت قائلة:

«أنا قديمة قدم الأسطورة. الأسطورة التي ترتبط بزهرة اللوتس اللطيفة. ألم يسمني الناس جزيرة أكلة اللوتس؟ لقد أدركوا ما في جسمي من نعومة، وما في نفسي من طهارة، وما في قلبي من شوق، وما في دمي من نشاط، فربطوني بزهرة اللوتس الجميلة الانيقة. ان الاقدمين كانوا كثيري الاحترام للمثل العليا التي أدين بها، فاحترموني من أجلها».

فقلت لها، وقد أثارت كلماتها بعض ما سمعت عن هذه الجزيرة: «ولكنك لم

تحافظي دوماً على مُثلك. ألست أنت التي أسرت يوليسس، وقد كان في طريقه إلى زوجته؟».

فتحركت الجزيرة، وبدت على وجهها إمارات الغضب الهادىء وقالت «لم آسر أحداً في حياتي. كل ما هناك ان الناس، قبل يوليسس وبعده، يقعون في التجربة، ويفتنون. ويبدو ان بي فتنة وإغراء، لذلك وقع يوليسس كما وقع غيره، وفتن كما فتن غيره. ومع ذلك فما الذي حدث له؟ لقد كان خصومه يقتفون أثره، ويحاولون القضاء عليه، فخبأته هنا، وأنقذته. لقد كان مشرفاً على الموت فعادت له الحياة، وكان يائساً فأعدت له الأمل، وكان تعباً فعاد اليه النشاط. أمن اجل ذلك أُلام؟».

وصمتت قليلاً ثم اضافت: «وهذا شأن كل من يسكن هنا. سيغرب ويشرق، ويغيب اياماً وشهوراً وسنين، ويعود بعد ذلك إليّ. هؤلاء هم ابنائي ينشئون اعمالهم في جهات الأرض، ثم هم لا يهدأون ولا يقر لهم قرار حتى يعودوا هنا ليتمتعوا بالطمأنينة والهدوء. وها انت قد زرتني هذه المرة. ولكنني واثقة من انك ستعود في المستقبل».

هكذا أصغيت لصوت جربة - جربة الاسطورة والواقع. وبينهما، بين الاسطورة والواقع، تاريخ طويل عريض، وحياة مديدة، وجهاد كبير. جهاد لدفع الاذى ورد العدى، وجهاد لإخراج الحب وجهاد في سبيل العيش.

وتذكرت الكثير من هذا التاريخ الذي يحدثنا ان اول من استوطن الجزيرة البربر الليبيون، وكانوا قوماً اصحاب زراعة وبعض صناعة محلية. ولأنهم لم يبنوا البيوت الحجرية، فهم لم يخلفوا آثاراً عمرانية. ذلك انهم اصطنعوا بيوتهم او اخصاصهم على الأصح، من الجريد. ويبدو ان هذا الطابع ظل الغالب على بيوت الجزيرة حتى اليوم. ولا يزال الزائر لجربة يعثر على بعض الاخصاص.

ما كانت جربة، بموقعها القريب من البر التونسي، والمحمي من هجمات سكانه بالبحر المحيط بها، لتغيب اهميتها عن الشعوب التي وصلت تونس وليبيا نازحة او فاتحة. لذلك هبطها الفينيقيون واليونان تجاراً وصيارفة، وأقاموا في شواطئها الشمالية يشرفون على أعمالهم. وقد خلف الفينيقيون صناعة الفخار في الجزيرة. ولا تزال هذه الصناعة قائمة إلى اليوم وخاصة في القلالة.

وقد كانت إقامة الرومان أطول وأمتن أصولاً وأعرف جذوراً. فنحن إذا تذكرنا انهم ذهبوا الى افريقية فاتحين وأنهم منذ منتصف القرن الثاني ق.م. أصبحوا حكام المنطقة بأسرها، واذا اعتبرنا أن الفترة الرومانية البزنطية هي فترة واحدة، كان لنا من ذلك نحو ثمانية قرون خضعت فيها الجزيرة لهذا النوع من الحضارة التي يرجع اليها على ما يبدو، فضل كبير في ترسيخ الأسس العامة للمدن التي قامت في الجزيرة. ذلك أن أكثر المؤرخين اتفقوا على أن الرومان انشأوا في الجزيرة ما لا يقل عن ست مدن لا تزال هي او آثارها قائمة إلى الآن. وقد قال الاستاذ محمد المرزوقي

في مقدمته لكتاب مؤنس الاحبة «وتنبه الرومان إلى اهمية هذه الجزيرة مدة احتلالهم لافريقية وقضائهم على دولة قرطاجنة سنة ١٤٦ ق ـ م، فنزلت بها أساطيلهم وشرعوا حال نزولهم في إدخال حضارتهم وأسباب عمرانهم اليها فأسسوا بها الضيعات الزراعية والمراسي التجارية والمدن وربطوا بينها وبين البر بجسر بني بالحجارة في مكان (القنطرة) فكان المسافر يستطيع أن يسلكه على الرجلين. وفي وسط هذا الطريق بنوا حصناً للحراسة أوصلوه بالطريق بواسطة جسر متحرك يرفع بالسلاسل عند الحاجة فيقطع الطريق وينزلونه، حين يريدون المرور. ونحن لا تعرف كثيراً عما أحدث الرومان بجربة من الحصون والمدن ما دامت مصلحة الحفريات لم تتجه بعنايتها إلى التنقيب عن هذه الآثار».

ولما جاء دور حديثه عن البزنطيين قال «حتى قدم البزنطيون فأحتووا على تراث الرومان وعمدوا إلى العمران من جديد على غرار عمران من سبقهم ولا نعرف شيئاً عن حياتهم في جربة إلا ما نعرفه عن حياتهم العامة في كامل أفريقيا من ميلهم إلى إنشاء المدن والهياكل والحصون. كما أن الحفريات لم تعتنِ لحد الآن بالبحث عن عمران جربة لتوضع لنا ما يرجع الى عصر الرومان وما هو راجع إلى مدة البزنطيين. ومن أيدي البزنطيين أفتك الجزيرة المسلمون سنة ٤٧ هـ [٦٦٧م]».

اعتور جزيرة جربة ما أعتور البر الافريقي من خير وشر نتيجة للفتح العربي الاسلامي الذي تم سنة ٤٧/٦٦٧م على يد رويفع بن ثابت، وقد جاء الجزيرة بحراً من طرابلس فاحتواها وما بها. وكانت الجزيرة تخضع للدولة القريبة منها اذا كانت هذه قوية، فاذا آنست من الدولة ضعفاً أو تهاوناً استقلت عن البر، وقامت بأمورها منفردة. ويصدق هذا بشكل خاص على الفترات التي كان يتنازع فيها السلطان كثيرون، فيشغلون بالقتال عن الاهتمام بشؤون الجزيرة. وعلى كل فلنذكر الأمور التالية عن الجزيرة بين الفتح العربي والفتح العثماني.

(١) فمن ذلك ان الحامية الاسلامية الأولى التي تركها رويفع هناك أخذت بتعليم الناس مبادىء الدين الاسلامي، فكانت الخطوة الأولى لانتشار الاسلام هناك. ولما كانت جربة قريبة من مركزي النشاط الفكري الاسلامي، القيروان وحاضرة تونس، فقد وصلها من العلماء من نشر فيها الاسلام تدريجاً. ومع انتشار الاسلام انتشرت فيها اللغة العربية. ومع أن بعض سكان جربة كانوا إلى أجيال قليلة خلت يتكلمون اللغة البربرية، فإن اللغة العربية هي الغالبة اليوم على السكان.

(٢) في أواسط القرن الثاني للهجرة وصلت الاباضية الى الجزيرة وتأصلت فيها. ولا تزال جربة مركزاً من مراكز المذهب الاباضي الى يوم الناس هذا. ولا شك ان انتشار هذا المذهب في البر الافريقي ـ التونسي والطرابلسي ـ واعتناق رجال الحكم له، مكّنا له في جربة. ولما كانت جربة تستقل بشؤونها، مبتعدة عن

السلطات المجاورة، فقد مرت عليها اوقات تمتعت فيها بالحرية الدينية، ومن هنا نجد انه حتى الاباضيون كانوا من مذهبين مختلفين.

(٣) يبدو ان الفترات التي تمتعت فيها الجزيرة باستقلالها كانت طويلة متعددة. فالقرون الثلاثة الأولى كان يغلب عليها فيها إما استقلال أو حكم ذاتي مع اعتراف اسمي بالدولة القريبة. واهتم بها الفاطميون فاحتلوها في مطلع القرن الرابع الهجري لمدة قصيرة. واهتم بها المعز بن باديس الصنهاجي سنة ٤٣١ هـ/١١٣٥م فأخضعها مدة لحكمه. لكننا نجد أحد خلفائه يعاود فتحها سنة ٥٠٩ هـ/١١١٥م. وقد روى التجاني الرحالة انه «لما ولي ابو الحسن علي ابن يحيى تميم بن المعز وذلك في آخر سنة ١١١٥/٥٠٩م وأستتب له أمره وأستوثق ملكه أمر بأعداد الاساطل لغزو جزيرة جربة، وحركه في ذلك ما ترادف عليه من قطع أهلها في البحر وإخافتهم المسافرين فيه، فتم ذلك وقدم على الاسطول قائد الجيش، ابراهيم بن عبدالله وأصحابه من أهل الدولة للمشورة فلان وفلان، فساروا اليها وذلك في سنة ٥١٠ هـ/١١١٦م فحاصروها وأخذوا بمخنقها إلى ان أقر أهلها بالطاعة للسلطان وانقادوا لامره ونزلوا على حكمه وضمن اشياخهم ومقدموهم قطع جميع الفساد الواصل الى ساحل افريقية من قطاعهم وأشرارهم وأن لا يتعدوا بمتاجرهم المهدية، وأعلم السلطان بذلك فكف عنهم ورجع الاسطول وصلح البحر وارتفع الفساد وأمن المسافرون».

(٤) تعرضت جربة لهجوم الاوروبيين ايضاً. فقد عرفوا قيمتها الحربية والاقتصادية، فحاولوا انتزاعها من أيدي أصحابها. فمن ذلك احتلال روجار النورماني لها سنة ٥٢١ هـ/١١٣٣م. وقد ظلت تحت حكم النورمان الى سنة ١١٦٠/٥٥٥ اذ انتزعها الموحدون منهم. لكن الهجوم تكرر غير مرة وفي سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م احتلها الاوروبيون وبنوا فيها حصن القشتيل في جنوبها (ولا يزال قائماً إلى يوم الناس هذا).

(٥) ومع ان الحفصيين اهتموا بالجزيرة، فان انشغالهم في الحروب الأهلية ترك للمغيرين الفرصة للهجوم عليها. ولعلّ من أشد الحملات على الجزيرة الحملة التي شنها الاسبان سنة ٩١٦هـ/١٥١٠م. وقد جاءها الأسبان من طرابلس بأسطول ضخم عدة وعدد، لكن الجزيرة وأهلها ردوهم على أعقابهم. وقد تكررت الحملة بعد ثلاث سنوات، لكن الفشل كان نصيبها ايضاً.

(٦) وأخيراً قدم العثمانيون إلى تلك الديار. جاؤها من طرابلس بقيادة درغوث (طرغود) الذي كان قد قلد ولاية طرابلس سنة ١٥٥٣/٩٦٠. لكن فتح العثمانيين للجزيرة ثم سنة ١٥٦٠/٩٨٦. وقد قتلوا جماعة من الاجانب كانوا فيها يقدر عددهم بنحو ٢٠٠٠ وبنوا برؤوسهم برجاً كالمنارة من الرؤوس والأيدي والأرجل

على سـاحل البـحـر. وقـد كـان مكانه على مـقـربة من حـومـة السـوق وظلت جـمـاجم القـتلى هناك الى سنة ١٢٦٥/١٨٤٨ حيث نقلت بأمـر المشيـر أحـمـد باي الأول إلى مـقـبرة قـريبـة. وقـد شـاهدنا مكانها نصـبـاً تذكـارياً عليـه تاريخ الحـادثة وتاريخ دفن الجماجم. ويسميه أهل الجزيرة «برج الروس».

وتاريخ جربة متصل بتاريخ القطر التونسي منذ ذلك الوقت.

جربة جزيرة عامرة: فيها قراها المنتشرة في ربوعها وبساتينها التي تكسو اجزاء كثيـرة منها ومنازلها الأنيقة وصناعاتها التقليدية ـ غزل صوف ونسجه وتطريزه وصنع فخار، وتجـارتها وهي العمل الرئيسي للسكان خـارج الجزيرة، وصيدها البـحري ـ سمكاً واسفنجاً. فثمة ٦٠٠ زورق تستعمل في هذا الصيد.

وليس أدل على نشـاط الجـربيين من انتـشـار التعليم في الجـزيرة ـ أسـوة ببـقـيـة انحـاء الجمـهـورية التونسيـة. ففيـهـا ٢٥ مدرسـة ابتـدائيـة واعدادية ومـدرسـة ثانوية في حومـة السـوق (مركز الجزيرة الاداري) تضم نحو ٨٠٠٠ تلمـيذ منهم الخمس من البنات. وفي حـومـة السـوق مـدرسـة للبنات يتلقـين فيـهـا فنون الصنـاعـة وعلى الاخص الخـيـاطة والطرز وصناعة الزربية [البسط].

ساحل تونس

كانت الشمس قد ارتفعت في الافق الشرقي، وانعكست أشعتها على مياه المتوسط التي تغسل شاطىء مدينة صفاقس، لما تركنا هذه المدينة ميممين شطر عاصمة الديار التونسية. وصفاقس، التي كنا قد قضينا فيها ليلتنا، تنظر إلى الماضي فتجد له في نفسها ذكرى متمثلة في سور يحيط بالبلد يرد عنها عادية الأيام، وفي جامع أنيق البناء والزخرف يرجع إلى أيام الحفصيين. فاذا عمقت الذكرى وجدت في ضميرها البعيد صدى حضارة أقدم من ذلك تعود إلى يوم كانت تقوم في ارجائها مسارح للتمثيل ومسابق للفرسان. على أرضها تحارب القرطاجيون والرومان، وما ذلك بغريب على بلد انطوى على البحر فطوق البحر خاصريه، وقبل النيرين فصب النيران ضوءهما في ناظريه، وأحاطت به الغابة والزياتين، وزينته أشجار النخيل والبساتين.

تركنا صفاقس واتجهنا شمالاً محاذين للشاطىء، في سيرنا، متعمدين البطء في تنقلنا، راغبين في أن نرى القسم الكبير، طامعين في أن نذكر مما نرى الكثير.

وتهادت السيارة بنا، وان كان سائقها تضايق، فقد كان يحب السرعة. والسرعة في رأيي عدة المتعة، وخاصة في تنقيل العيون بين مغاني الجمال التي تعرضها عليك تلك المنطقة الشرقية من الساحل التونسي. وكان البحر كمن أفاق من حلم لذيذ، يتمطى متثائباً ويغمض عينيه رغبة في استعادة الرؤى. فاذا لمح اننا ادركنا ما به غمزنا إغراء، مطالباً اياناً بأن نعدل عن السير لنرتمي في احضانه. وما أكثر ما يغري البحر! ولكن كان علينا ان نسير.

وسرنا حتى وصلنا المهدية، فوقعنا على مدينة جليل قدرها شهير ذكرها، تحمل في قلبها ذكرى جماعة من السادة النجب الذين كان لهم على حضارة العرب والاسلام فضل، أي فضل! إن المهدية من بناء عبيد الله المهدي أول الفاطميين واليه تنسب. وقد روى المؤرخون قصة بنائها قالوا «خرج عبيد الله المهدي بنفسه سنة ثلاثمائة إلى مدينة تونس فاجتاز قرطاجنة وغيرها ومر على جميع السواحل يرتاد موضعاً على ساحل البحر يتخذ فيه مدينة تحصنه وتحصن بنيه من بعده... فأقام يلتمس ذلك مدة فلم يجد موضعاً أحسن ولا أحصن من موضع المهدية فبناها هنالك وجعلها دار مملكته، وكان أول ما ابتنى منها سورها الغربي... وعندما وضع أول حجر منه أمر ناشباً كان بين يديه ان يوتر قوسه ويقف على ذلك الحجر ويرمي سهمه. ففعل الرامي

ذلك، فانتهى السهم إلى المصلى ووقع قائماً على نصله. وأمر المهدي بقياس مسافة هذه الرمية فكانت مائتين وثلاثة وثلاثين ذراعاً. وكان المهدي يقف على فرسه فيأمر الصناع بما يصنعون. وأمر بعمل باب الحديد للمدينة».

حرص المهدي، فيما حرص عليه من بناء المهدية، على ان يحفر لها مرسى في الحجر الصلد ليكون ثمة حصن لمراكبه الحربية، وأقام على فم المرسى سلسلة من حديد يرفع أحد طرفيها عند دخول السفن ثم تعاد كما كانت. وانشأ فيها دار صناعة كانت من عجائب الدنيا. وكانت المدينة كثيرة الجباب التي ملئت ماء وكانت اهراؤه مختزنة طعاماً.

وما أكثر ما وهبتنا المهدية من تاريخ وأدب وشعر، وليس المجال مجال عرض هذا كله ولكن بضعة أبيات للقيسي اللياني قد تلذ القراء. قال متشوقاً لبلده وهو بعيد:

سرّح دموع العين مبتدراً — وبذكر ماضي عهدهم فاشدُ
والثم على شغف مواطئهم — ان عاق عن مقصودك البعد
لم أنسَ يوم وداعهم سحراً — والدمع أسلم دره العقد
هز الصبا أغصان بانهم — فتعانقت وتواجد الرند

اخترنا من صور المهدية ما استطعنا اليه سبيلاً، وتابعنا السير لنقف ثانية أمام سوسة. وسوسة تتكىء على تل صخري، وتعتمد على بحر رضي، الأول يحميها والثاني يطعمها. وتحوط بها بساتين غناء وحدائق جميلة، وحوانيتها كثيرة الأقمشة المصنوعة فيها، ومقاهيها المنتشرة على الشاطىء فيها متعة للجسم والنفس.

وسوسة، مثل اخيات لها كثيرات في المغرب العربي، تستطيع ان تقلب في التاريخ صفحات كثيرة مجيدة. فقد بناها الأغالبة وكانت مركز أسطولهم. ومنها ركب أسد بن الفرات البحر غازياً الى صقلية سنة ٨٢٧/٢١٢ فافتتح الكثير من معاقل الجزيرة وتغلب على كثير من مدنها، وتوفي وهو في حصارها.

وما أكثر ما تعرضت هي للغزو والحروب. فبلد هذه حصانته وهذا موقعه لا بد أن يحاول الخصوم انتزاعه، فقاومت مرة وغلبت على أمرها أخرى شأن المدن العظيمة المنيعة. وعلى ما مر بها من قراع الدهر كان منها شعراء مجيدون، نظموا الشعر في حربها وسلمها. فقال أحمد بن أفلح بعد أن ردت سوسة غزوة قوية:

مدينة سوسة بالغرب ثغر — تدين له المدائن والثغور
اتاها الغاصبون ليملكوها — فكان من الآله لها نصير
ولولا نصره لدهت دواهٍ — يشيب لهولها الطفل الصغير
سيبلغ ذكر سوسة كل أرض — ويغشى أرضها الجم الغفير

اما الشاعر المعروف بالقطان فقد قال متحرقًا:

أهدي الى الغـصن الرطيب قـوامـا والى فـؤادي لوعـة وغـرامـا
ظبي أعـار الظبي منه مـحـاجـراً وأعـارني من سـقـمـهن سـقـامـا
مـا ضـره لو كـان مع كلفي به يهـدي إلي مع الرياح سـلامـا

غادرنا سوسة وفي النفس على هذا الظبي الذي لا يهدي السلام نقمة، لكن كيف يمكن للنقمة ان تستمر في نفسك وانت تسير على هذا الساحل الجميل؟ وكيف تستطيع ان تذكر سوى الخير وأنت تقترب من المناستير، وفيها الكثير من ذكريات التاريخ التونسي قديمه وحديثه. وحديثه ان الرئيس الحبيب بورقيبة ولد هناك، اما قديمه فبعيد الأثر.

ذلك ان المناستير كانت رباطاً يقطنه المناضلون المدافعون عن المنطقة، يسهرون على البلد لحمايتها، ويرتلون القرآن الكريم تبركاً به، ويروون الحديث الشريف تمثلاً بصاحبه عليه الصلاة والسلام، ويتدارسون التفسير وغيره. وهكذا اجتمعت للمرابطين في غيره من الرباطات، رياضة الروح والعقل والجسم، وكلها ترمي إلى الحفاظ على وطن والدفاع عن بلاد وحراسة للايمان.

وقد أحس أهل المنطقة بقيمة المناستير وأهميتها، فعزوا اليها الكثير ونسبوا اليها حتى الأحاديث. فقد قال في كتاب الرقيق «يقال ان بأفريقية ساحلاً يقال له المناستير هو باب من أبواب الجنة».

وصلت ذلك المساء تونس، وفي نفسي صور كثيرة تتلاحق متتابعة وكأنها تكمل بعضها البعض. فالمناظر جميلة منعشة، والألوان فيها متكاملة، والتاريخ حي على ما مر به من زمن، والناس كلهم لطف وإيناس. فما الذي يحتاجه المرء بعد هذا كله سوى ان يطبق جفنيه ويسلم نفسه للذكرى مستعيداً في أحلامه ما رآه في يقظته؟

وهذا ما فعلته يومها!

ثروة تاريخية

نقلب الطرف في المكتبات طالبين كتباً تونسية تبحث تاريخ هذه الديار وتطورها الفكري والاقتصادي والاجتماعي فلا نقع إلا على محاولات قليلة. ونسأل العارفين عن ذلك فيضربون كفاً بكف أسفاً وألماً. ونحن نعرف ان القطر الذي عرف القيروان وتونس، والذي زخر بالزوايا والمدارس والربط، والذي طلع على الناس بتصوف عميق، والذي وهب العالم عشرات من رجال العلم والأدب والتاريخ، في القديم والحديث، ان قطراً هذا شأنه لا يمكن ان يكون قد عقم عن التأريخ لتعسه أو وقف دون التعبير عن مآتيه. ويصدق حدسنا ويخيب ظن المرجفين متى جشموا انفسهم مشقة نفض الغبار عن المخطوطات التى تغني دور الكتب في تونس ـ عاصمة وقطراً.

هذه المخطوطات لا تزال تنتظر في اكثر حالاتها العالم المنقب، على ان لا يقتصر العمل على افراد قلة، بل يجب ان يطرق الميدان جماعات، ويجب ان يقوم بينهم شيء كثير من التعاون. عندها يمكنهم ان يفعلوا الشيء الكثير: وأن يثمر عملهم.

هذه المخطوطات ثروة لا تقدر. تجدها في مكتبة جامع القيروان، والمعروف من محتويات هذه المكتبة قليل واكثره ما عني به امناء المكتبة لأنهم نظروا إلى ناحية الزخرف. وهذا بحد ذاته ذو قيمة. ولكن نحن نستطيع ان ندرس الكثير عن تطور الكتابة والخط من دراسة مجموعة القرويين مثلاً. اما ما في المخطوطات من محتويات علمية فلم تتح له العناية الكافية بعد. وهذه مخطوطات جامع الزيتونة الكبير. لقد فهرس بعضها قبل مدة، لكن الفهرست هذا نفسه لم يطبع بعد، فضلاً عن ان الباقي لم تتم فهرسته. وثمة ثروة دار الكتب الوطنية، وهي المجموعة الوحيدة المفهرسة المصنفة المبوبة.

ذكرت هذه المكتبات العامة للتمثيل، ومما يجري مجراها، ولا نشك في ذلك، مكتبات مطوية اخبارها وإن كانت لم تعف آثارها. نقصد بذلك مكتبات الرباطات والزوايا والمساجد التي كانت تنتشر في كل مكان تعلم وتفقه وتحدث وتؤرخ. فهل مَن جردها وحصرها وأنبأنا عنها. وأحسب ان الأوراق على اختلاف انواعها وتباين اشكالها المتعلقة بأملاك الدولة تعطي المؤرخ ما يحتاجه للكتابة عن تونس تاريخاً اجتماعياً اقتصادياً، فقد حدثنا الاستاذ عثمان الكعاك عنها فوصفها بأنها تتناول كل

شؤون المجتمع التونسي من حيث الحارات والسقايات وتوزيع الماء وحفر المجاري والعسة أي الحراسة وتبين توزيع المسؤوليات وواجبات هذه كلها، لم تمس بعد بمعنى الدرس، أي الفهرسة والتنصيص والتبويب اولاً.

وأنت قلما تدخل بيت عالم من علماء تونس إلا وتجد في زاوية من زوايا الغرفة التي يخصصها للاشتغال بالعلم مجموعة من المخطوطات تختلف نوعاً وكمية باختلاف هواية العلماء. وهذه المكتبات الخاصة لا تزال مجهولة.

نُشر مؤخراً في تونس كتاب مؤنس الأحبة في أخبار جربة، وقد جاء في تقديم الكتاب، بعد تعداد مؤلفات كثيرة تبحث عن تواريخ القيروان وتونس والمهدية وصفاقس وتوزر المنستير وأكثرها مخطوط وبعضها لم يشهد اليه - قول المقدم: «وفي المخطوطات التاريخية في تونس معين لا ينضب، فلو كلف الانسان نفسه جمعها وتنسيقها لألف لكل «بلد» تاريخاً مستقلاً حافلاً. وهذا ما نرجوه من حزم شبابنا المجتهد، ونأمله من غيرته الوطنية، خدمة لإثبات مجد البلاد، وتنشيطاً لعزائم الاجيال الصاعدة المتشوقة الى ماضي وطنهم المفدى».

انحصر حديثنا الى الآن عن المخطوطات الخاصة بالتاريخ والأدب والفقه والحديث والعلوم الدينية الأخرى. لكن ثمة ثروة كبيرة أخرى يجب ان يتجه اليها الباحثون والمهتمون بشؤون المجتمع، هي ما حفظه الشعب في ذاكرته وضميره وعاداته وتعبيره البسيط. هذا ما يسمى عادة بالفولكلور. وتونس غنية بذلك غنىً كبيراً. واذا كان الفولكلور يمثل ما يحتفظ به الشعب واعياً او لا واعياً من اعياد ومواسم وعادات وتقاليد وأمثال وقصص، فإن ذلك يمثل الحضارة العملية والتفكير الثقافي للجماعة. وقد يكون في الفولكلور الجيد الذي يجب أن يقوى، والحسن الذي يجب ان ينمو، وقد يكون فيه الشر الذي يجب أن يقضى عليه. وفي هذه الحالات جميعها يجب ان يُعرف ويُجمع ويُدرس ويحلل ويرتب ويصنف، ويتحتم على الذين يحاولون ان يفهموا حياة المجتمع الذي يرغبون في اصلاحه من عيوبه ان يفهموا، لا العيوب فقط، ولكن الأسس التي تقوم عليها، حتى يأتي الاصلاح أدق وأصح.

قلنا ان تونس غنية بالفلولكلور، وسبب ذلك تجارب الشعب التونسي الكثيرة المتعددة المتنوعة. فالبلد عرف الحضارة منذ آلاف السنين واختلط بالعالم الخارجي منذ طفولة الحضارة فيه والتقت فيه شعوب وأديان ومعتقدات وآداب ولغات، وغزته جيوش وقواد، فردّ عن نفسه من رد، وقبل من قبل، وخرج من ذلك كله شعب مستقل سياسياً، له طابعه وشخصيته وحياته وفلسفته. لكن أليست هذه كلها ـ الطابع والشخصية والحياة والفلسفة نتيجة لهذه الاختبارات على تنوعها وتباينها قوة وضعفاً وبناء ونسفاً؟. ألم يترك كل جرح ندباً وكل انتصار نشوة؟ ألم يسجل ذلك كله أدب

تونس وشعر تونس وقصص تونس؟ ألا ترى في اختلاف الأزياء وتباين الحلي ما هو نتيجة لهذه الاختبارات التي تبلغ من العمر على أقل تقدير ثلاثة آلاف من السنين؟.

واذا كان لكل قطر ادب فولكلوري يكون موضع عناية أهله، ففي تونس ادب فولكلوري خاص به وببقية اقطار المغرب العربي هو الفولكلور الرباطي أو الزاوي. اصعد إلى أعلى أي سور الرباط في أيّ مدينة تونسية، وخاصة الساحلية منها، وانظر من تلك النقطة إلى الاجزاء المجاورة. فما الذي تقع عليه عينك؟ أمور كثيرة ولا شك. جنان وحدائق وبساتين وزياتين وبحر لطيف وامواج تتكسر على شواطئه. ولكن الرجل يأتي من الشرق، عندما يطل من مثل هاته النقطة تلفت نظره كثرة الزوايا والإربطة الصغيرة والكبيرة والربط مثل الأسوار، هي للحراسة والدفاع. والزوايا المحيطة بالربط والاسوار تحوي في غالب الحالات، قبور اناس بذلوا حياتهم للدفاع عن البلاد في اوقات الخطر، أو لنشر العلم في اوقات اليسر. والدفاع عن البلاد تختلف وسائله باختلاف الاحوال والظروف والامكانات. فقد يكون الدفاع بالسيف وقد يكون بالدعاء للنصر وقد يكون بتشجيع المقاتلين.

أرأيت ما يمكن أن يتمخض عنه تسجيل مثل هذا الأدب الرباطي لو أتيح أن يتوفر على ذلك المعنيون به؟. نعم هذه ثروة كبيرة. فيها ما احتفظ به ضمير الشعب لاولئك الذين دافعوا عنه وحموه. وليس غريباً أن يكرمهم الناس بالعناية بأضرحتهم ووقف القراءة أو التدريس عليها. فلتجمع كل القصص التي يعرفها أهل كل مكان عن صاحبهم، وليكن منها ناحية من نواحي التاريخ القومي.

في المغرب العربي ناحية من الأدب طريفة تبدو في الفهرسة المغربية والكناش التونسي. ولست أزعم أن هذا النوع من الأدب مقصور على هذه الرقعة من الأرض، ولكن الذي أقول انه موجود هنا ويجب أن يكون موضع الاهتمام. أما الفهرسة فهي ترجمة ذاتية علمية للرجل العالم. ذلك بانه كان يدون فيها اسماء شيوخه والكتب التي قرأها عليهم، ويذكر طرفاً من حياتهم. وقد يطرزها بأخبار وقصص عنهم. أما الكناش فهو أقرب إلى المذكرة الشخصية التي يدون فيها الرجل اخباره واخبار اسرته. فأولاده وتاريخ ولادتهم واسماؤهم مدونة فيها. وتاريخ ختمهم القرآن ودخولهم المدرسة تبين فيها، واعراسهم مع اسماء الزوجات أو الأزواج مسجلة فيها. وستجد فيها أسعار الحاجيات واشارات الى دعوات قبلت أو صنعت في البيت، ومن حضرها. وثمة امور خصوصية كثيرة. تونس عاصمة وقطراً غنية بذلك. وفي دار الكتب الوطنية في تونس نماذج ممتازة لهذا الذي ذكرت. ولعل من اثمن محتوياتها الكناشية عشرون مجلداً من هذا النوع كتبت بالخط الجميل الأنيق، هي كناشات البايات التونسيين.

قد تكون الخطوط الكبرى للتاريخ الاسلامي معروفة، والعصور اصبحت صورها

العامة مبيّنة، لكن نحن بحاجة إلى معرفة التطورات الاجتماعية والاقتصادية والشعورية والفكرية. نحن بحاجة إلى رسم الصور الصغرى التي توضح لنا ما تم في مكان محدود في وقت معين. نحن بحاجة إلى فهم تاريخنا على انه تاريخ أفراد يكوّنون شعباً، لا على انه تاريخ أفراد بعيدين عن الشعب. ولوضع هذا يجب أن تدرس تواريخنا الصغيرة.

والشباب التونسي، مثل غيره من معاصريه، مدعو لدرس هذه التواريخ الصغيرة لبلاده ليتكون من مجموعها تاريخ كبير طويل عريض واضح المعالم مبين الحدود.

بعلبك و وليلي

جدّ بنا السير، وقد مالت شمس الظهيرة نحو المغيب. لكنه كان يوماً من ايام الخريف طاب اصيله، وخف حره، فلم نألم من المشي ولا أزعجنا التجوال. واشرفنا من زرهون في المغرب على سهل منبسط. ان الجبل الأشم تكسو سفوحه اشجار الزيتون حتى بلغ الوادي، الذي يدور به ويفصل بينه وبين الجبال الأخرى المحيطة به.

ألقيت نظرة إلى الجهة التي تخلى عنها الوادي، فوقع نظري على سهل جليل عامر، فيه خصب وفيه ماء وفيه تاريخ. اما الماء والخصب فهما اللذان صنعا التاريخ إلى حد ما. فقد تحلق الناس حول الماء، فلما كثر عددهم حفروا للماء سبلاً وصل بها إلى رقعة أوسع أوى اليها من الناس عدد كبير. وكان ان تعددت الوان السهل والجبال المحيطة به، فاخضرار الشجر والزرع تحاوره التربة الحمراء حتى لكأنها قلب تفتح الحب فيه فجرى في الوجنات. وإلى جانب هذين تقف الصخور الدكناء والمغبرة والبيضاء، وهي صخور ما كانت لتقول الكثير لو انها بقيت في امكنتها. أما وقد عملت بها أيدي الناس فاقتلعتها من مكانها، وسوّت اطرافها وهذبت حواشيها ورفعتها حجراً جنب حجر، وصفاً فوق صف، فبدت بنياناً مرصوفاً - فكانت معبداً وسوقاً وحماماً وقصراً وقوس نصر وسوراً وشارعاً تحوط به الأروقة. هذه هي وليلي، وتسمى ولوبلس. وهي فينيقية الأصل، ولكنها من الناحية التاريخية أهم مدينة أنشأها الرومان في المغرب. فقد نالت مدينة الزيت والزيتون عناية أباطرة رومة في القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد، فأغدق عليهم انطونيوس بيوس وسفيروس ومرقص اوريلوس وكركلا المال الكثير لإقامة مبانٍ أنيقة جميلة فخمة. وقد استمرت المدينة مركزاً للحياة الرومانية الوثنية والمسيحية مدة طويلة. لكن الزمن عفّى عليها، فاختفت معالمها تحت التراب وسمّاها الناس قصر فرعون. ولم يتعرف العالم الحديث اليها ثانية حتى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، اذ عملت فيها المعاول بانتظام، ونظفت شوارعها أيدٍ مدربة، فخرجت تعلن للعالم أن الحضارة وصلت تلك الجهات في ما غبر من القرون وفات.

وقفت على انقاض وليلي وأجلت ناظري حولي - قريباً وبعيداً - فرأيت عجباً. هناك في رقعة أخرى من الأرض بعيدة ينبسط امامك سهل فسيح واسع كثير المياه والخيرات، جميل المنظر والمخبر حيي خفر مع منعة وقوة، اسمه سهل البقاع. وفي

ركن منه، بقية كبيرة من مدينة عبد الناس فيها الله عشرات السنين، وبأشكال متغايرة. لكنهم عبدوه بفن وقدسوه بالفن. وقد تعاورت على بعلبك الايام وتبدل الاحكام، ولكن الأعمدة ظلت مرفوعة الرأس والهامة منتصبة القامة، تتجه نحو السماء شأنها في ذلك شأن النفوس العلوية.

بعلبك ووليلي وبينهما آلاف الاميال، هما نتاج عصر واحد، ومع ان اليد التي اقامت بعلبك كانت أمهر، فان الاله الذي صنعهما واحد في الاساس.

وكما انطلق التاريخ من بعلبك غير مرة فقد انطلق التاريخ من وليلي كذلك. فان هذه كانت موطن المولى ادريس الأكبر الذي وصل هناك في أواخر القرن الثامن للميلاد واستقر به المقام بين اهلها، وكان بينهم اتباع الأديان على اختلافها، لكنه علّمهم الاسلام فقبلوا ذلك منه وملكوه عليهم.

وهكذا فنحن نطل على وليلي فنشرف على تاريخ طويل ينتهي منه فصل ليبدأ فصل. في هذه الرقعة انتهت حضارة الرومان، لتبدأ حضارة العرب. وانتهت الوثنية والنصرانية، ليبدأ الاسلام. ولكن ظل من كل ذلك الماضي شيء في الذي تلاه، لا في الآثار فحسب، ولكن في الحياة. فالتاريخ لا يقف فجأة ليبدأ فجأة. والحضارات أمور تتلو فيها الاجزاء بعضها البعض ليتم منها كل أو ما يشبه الكل، ومن هنا كان هذا الاعجاب الذي شاهدناه بانفسنا ونحن نرقب اخواننا المغاربة وهم يتجولون بين انقاض ولوبلس، ويدركون أن شيئاً من اولئك الذين رفعوا تلك العمد وأقاموا تلك الأسوار وبنوا تلك القاعات وشيّدوا تلك الهياكل لا يزال يسري في دمائهم ويقيم في نفوسهم.

أشرف ابن زاكور على مقام مولانا ادريس بن عبد الله بزرهون، وهو على مقربة من وليلي، فقال فيه:

هذا هلال المغرب	هذا مجلي الغيهب
هذا الذي أنواره	تفوق كل كوكب
هذا الذي من أمَّهُ	لا يختشي من نوب
هذا الذي من زاره	ليس يرى من تعب
هذا رفيع الرتب	هذا عظيم المنصب

وحظيت بعلبك أيضاً بشاعر يصف خربها هو خليل مطران الذي قال من قصيدة طويلة:

خِرَبٌ حارت البريّة فيها	فتنة السّامعين والنّظار
معجزات من البناء كبار	لأناس ملء الزمان كبار
ألبستها الشموس تفويف درّ	وعقيق على رداء نضار

وتحلّت من الليالي بشاما ت كتنقيط عنبر في بهار
وسقاها الندى رشاش دموع شربتها ظوامىء الأنوار
زادها الشيب حرمة وجلالاً توّجتها به يد الأعصار
ربّ شيب أتم حسناً وأولى واهن العزم صولة الجبّار
معبد للأسرار قام ولكن صنعه كان أعظم الأسرار
مثّل القوم كلَّ شيء عجيب فيه تمثيل حكمة واقتدار
صنعوا من جماده ثمراً يجنى ولكن بالعقل والأبصار
وضروباً من كل زهر أنيق لم تفتها نضارة الأزهار
وشموساً مضيئة وشعاعاً باهرات لكنها من حجار
تلك آياتهم وما برحت في كل آن روائع الزوّار
ضمّها كلّها بديع نظام دقّ حتى كأنه في انتشار
في مقام للحسن يعبد بعد العقل فيه والعقل بعد الباري
منتهى ما يجاد رسماً وأبهى ما تحجّ القلوب في الأنظار

ومن وليلي ومن بعلبك انطلق التاريخ، فما وقف عند حد ـ وهكذا التاريخ لا يقف ابداً ولا يمكن أن يوقفه أحد.

من تونس

زرت تونس من قبل، وزرتها ثانية مؤخراً.

كان اول ما فعلته في تونس، بعد وصولي اليها بقليل، أن خرجت إلى الشوارع أستجلي معالمها وأستعيد ذكرياتها. ودرت بالمدينة اتزود منها فراعني وراقني أمر هام. إن السور الذي كان يحيط بالمدينة فيفصلها عن العالم الخارجي قد زال. راعني ذلك أول الأمر لانني أرى في آثار التاريخ شيئاً من القداسة، لكنني لم ألبث أن راقني ذلك إذ أدركت معنى إزالته ـ في اجزاء منه. ذلك ان هذه المدينة وسكانها ليس ثمة ما يفصل بينهم وبين العالم. لقد كان عالمهم ينتهي من قبل داخل بوابة المدينة، وكان عالم غيرهم يبدأ خارج هذه البوابة. أما الآن فقد اصبح لهم الحق في أن يمتدوا قلباً وعقلاً وروحاً وجسماً إلى المدى الذي تطيقه اجسامهم وتقوى على تحمله نفوسهم. إنهم اصبحوا أحراراً ـ وهذا هو الذي راقني، حريتهم.

وتطلعت يمنة ويسرة، وحدَّقت امامي، وتلفت خلفي، فرأيت العلم التونسي يرفرف في كل مكان وفوق كل بناء حري به. وأهم من رفرفة العلم تعلق ارواح الناس به، حتى لكأنك ترى في رأس كل علم روحاً مستعدة لتدرأ عنه الخطر.

ودخلت المكتبات افتش عن الكتب، فهالني كثرة الكتب العربية التي تصل تونس من الاصقاع العربية المختلفة. ولكن أمراً آخر لفت نظري، كتب مدرسية باللغة العربية يضعها الاساتذة التونسيون للطلاب التونسيين. واذن فقد اخذت المدرسة التونسية تستعمل اللغة الوطنية في التدريس، واصبح للطالب التونسي الحق في أن يقرأ بلغته ويحسب بلغته. وهذه حرية جديرة بالاهتمام، حريَّة الصغير التي تنمو معه قوة واتساعاً وعمقاً فتكون حرية الجيل الصاعد أقوى بكثير من حرية الجيل الحالي، فحرية الجيل الحالي هي حرية اقتلاع للأوضاع التي كانت قائمة وتهديم لها، أما حرية الجيل الصاعد فهي حرية للنمو المتأصل الجذور المتين.

وتفضل علي مدير دار المعلمين العليا بساعة قضيتها معه نتحدث عن معهده، وهو الى الآن قمة التعليم العالي في تونس، وسيظل كذلك إلى أن تتوج الجامعة هامته الحاضرة، وما ذلك ببعيد. تحدث المدير بحماسة وتؤدة تلفتان النظر. قال بأنه ليس المهم فقط أن نعرف الذي قمنا به وأديناه، ولكن الأهم هو أن نعرف أين قصَّرنا وأين

فشلنا لنتجنب ذلك في المستقبل. المدير الشاب يدرك مسؤوليته، ولكنه يدرك فوق ذلك مسؤولية الجيل الصاعد، ويحاول أن يخرق بثاقب بصره حجب الغد البعيد ليخطط لهذا الجيل الجديد ما يمكنه من تحمل مسؤوليته بكاملها. وفي مقدمة المشاكل التعليمية بالنسبة للتعليم العالي هي مشكلة الاستاذ الذي يدرِّس بالعربية. لا يمكن إنكار الواقع. ان هذا النوع من الاستاذ نادر، وإعداده يتطلب الوقت، ولذلك يجب أن نرضى بالاستاذ الذي يدرس بالفرنسية ريثما نعد الاستاذ الذي نحتاج. ولكن مع ذلك فالتعريب في التعليم يسير. ثمة مواد كانت تعلم بالعربية على مستوى الثانوي، فلماذا لا تعلم بالعربية في دار المعلمين العليا؟ واذن فالتعريب هنا يسير على اساس التعميق بدل التوسيع. وهذا هو جزء من التخطيط الحكيم.

وتحدثت مع آخرين عن الجامعة المقبلة. وجامعة تونس على وشك الظهور. فوجدت حماسة واندفاعاً، لكنهما لم يبلغا حد الضرب بالتعقل عرض الحائط. ان المشاكل والقضايا معروفة مفهومة مدروسة. فيدرسها ويحلها ابن الوطن. يستعين بالاجنبي على انه للاستشارة والخبرة.

ودار الكتب الوطنية في تونس! انها احدى واجهات الاستقلال في البلد! هذه الدار التي كانت فيها مجلدات قليلة باللغة العربية يوم انشئت، اصبحت اليوم تضم نيفاً ومائة وخمسين الفاً من المجلدات. وكم يسرك، وانت تتبع مديرها الاستاذ عثمان الكعاك في أروقتها، أن ترى القاعات تحمل اسماء اناس بذلوا عصارة عقولهم ودمائهم في سبيل البلاد بدءاً من القرون الخوالي وامتداداً إلى الحاضرة.

من معالم تونس الهامة عبر تاريخها الطويل جامع الزيتونة. فقد مرت عليه قرون وقرون وهو يمد البلد وما جاوره بأهل العلم الديني والأدب والشعر. ففيه تخرج جماعة يعدون من اقطاب الفقه المالكي وعلم الكلام، وهو الذي نفح عالم الفكر والأدب بعشرات من كبار رجال الاصلاح والقضاء في القرن التاسع عشر بشكل خاص. ويكفي أن يذكر الواحد منا البيرميين وكبار الشيوخ من امثال سالم وحاجب والطاهر بن عاشور والحداد وابن مراد، حتى يدرك الخير العميم الذي جنته تونس خاصة وجيرانها عامة من جامع الزيتونة. نحن عندما نذكر كبار الشعراء في تونس في القرن الماضي واوائل القرن الحاضر من أمثال مصطفى الخزندار والسنوسي، لا يسعنا الا أن نقف إجلالاً أمام العمل العظيم الذي قام به جامع الزيتونة. وقد أدرك القائمون على شؤونه منذ أواخر القرن التاسع عشر أن هذا الجامع الجامعة بحاجة إلى الكثير من الاصلاح والتغيير والتبديل لكي تتم الفائدة من وجوده.

والجهود التي بذلت خلال عقود من السنين في سبيل السير بجامع الزيتونة ليقوم بواجبه، وكانت دوماً تعرقل، قد آتت أكلها. إن جامعة الزيتونة ومن عليها وما

اليها حرة اليوم تقرر وتفصل في شؤونها. وهكذا فالمسجد الذي كان في تونس في سنوات جهادها نادياً سياسياً، يتوج اليوم عمله بان يلقي مقاليد أموره إلى الجامعة الزيتونة.

وهكذا فقد شعرت وانا اتنقل في تونس واتحدث إلى اصدقائي واتطلع إلى الأماكن المختلفة واركب السيارة،أن الاستقلال والحرية شيئان حقيقيان، وان مسؤولية الاستقلال والحرية يدركهما اخواني ادراكاً خاصاً. فالتونسيون ذوو نضج سياسي اجتماعي خاص بهم. وهذا النضج يمكّنهم من تحمل المسؤولية وادراك الواجب.

عيد استقلال في تونس

١

تحتفل تونس اليوم بالذكرى السادسة (٢٠ آذار ـ مارس) لاستقلالها. ويشارك التونسيين في ذلك اصدقاؤهم في مشارق الأرض ومغاربها. واصدقاء تونس المحبون لها الذين يفرحون فرحتها كثر ولله الحمد. والاحتفال بذكرى الاستقلال امر محبب إلى النفوس: فيه ذكرى التخلص من نير، وفيه فكرة الانعتاق من ماضٍ، وفيه شعور التحرر من قيد، وفيه رغبة الانطلاق نحو مستقبل. وعيد الاستقلال في تونس يوضح هذه الأمور توضيحاً قلما يتمثل في قطر عربي آخر استقل في الآونة الاخيرة.

وقعت تونس تحت نير الحماية الفرنسية في سنة ١٨٨١/١٢٩٩. كان الاحتلال، كما نصت عليه معاهدة باردو، موقتاً وجزئياً. لكنه ما عتم أن أصبح دائماً وكلياً، ثم صيغ حماية فرضت على البلاد فرضاً. وقامت تونس تحارب الحماية بوسائلها المحدودة، فغُلبت على امرها مادياً، واستقرت فرنسة هناك. لكن تونس لم تغلب روحياً ولا فكرياً. وتاريخ مقارعة التونسيين لفرنسة، تاريخ حافل قام به نفر من رجال البلد الكبار وأهل القلم فيه من أيام الحاضرة إلى ايام الشيخ عبد العزيز الثعالبي ورفاقه إلى أن تولى الزعامة الحبيب بورقيبة.

وتونس تتذكر اليوم تحررها من القيد الذي وضع في عنقها فغلها طوال المدة التي كانت فيها فرنسة تسيطر على امورها. كان القيد قاسياً في ناحيتين: فمن الناحية الواحدة منع التونسيين من الخير الذي كانت بلادهم تدره. ومن الناحية الثانية مكّن للفرنسيين أن يتمتعوا بالخير التونسي على هواهم. ولذلك فالتونسيون يذكرون اليوم هذا التحرر من القيد.

والتونسي ينظر إلى العشرين من شهر آذار (١٩٥٦) على انه يمثل انعتاقه من ماضٍ. وكانت تونس قد اخذت قبل سنة ١٨٨١/١٢٩٩ بأسباب التقدم والنهوض، وكانت قد قطعت شوطاً لا يستهان به. لكن الاحتلال الفرنسي في تلك السنة والحماية التي امتدت اربعاً وسبعين سنة اوقفا هذا التقدم، ولو استطاعت لأعادت تونس إلى الوراء. فقد شجعت فرنسة كل العناصر والعوامل الرجعية في البلد، من جهة، وحالت دون الثقافة الحرة الصحيحة والانتشار في القطر التونسي. كانت فرنسة مستعدة أن تقدم

لتونس فكراً «يفرنسها» ويؤدي إلى «تجنسها»، وحضارة تغير شخصيتها. ولكن تونس كانت تريد أن تتعلم وتتحضر وتتمدن وتتثقف على أن تظل لها شخصيتها التونسية ومقوماتها الأصيلة. لذلك فهي ترى في كل ٢٠ شهر آذار يوماً انعتقت فيه من ذلك الماضي.

٢

اهم من هذا كله، فاليوم يمثل في تاريخ تونس الرغبة في الانطلاق نحو المستقبل. لقد تخلصت تونس من النير، وتحررت من القيد وانعتقت من الماضي ـ كل هذا صحيح. ولكن المهم انها جمعت كل ما تمثله هذه الأمور من قوة لتتخذ منها سبيلاً لتنطلق نحو مستقبل بناء مخطط يجاري ركب الحضارة. إنه انطلاق فيه المقومات الصحيحة والأسس الواضحة البينة، دون ضجة وصخب، دون جلبة وجعجعة.

في سنوات استطاعت تونس أن تقفز قفزات جبارة. ان الكثير من الدول العربية تحدثت سنين عن توطين القبائل الرحل، وكتبت عن ذلك التقارير الوافية. وتونس، في ست سنوات، استطاعت أن تقوم بالكثير من هذا الذي تحدث الناس عنه. لقد وطنت الآلاف من هؤلاء الرحل في جنوب البلاد واواسطها. لقد غيرت البعض من عادات القوم في التنقل وربطتهم في مكان ثابت، وبذلك اصبحوا عنصراً فعالاً في البناء.

ومثل ذلك يقال في الحقول الكثيرة المتعددة ـ في التعليم، في الصحة، في أمور العمل، في اطارات الدولة وفي البعثات. هذا مع العلم بأن تونس ليست بلداً غنياً.

وهذه تونس أعدت في العام الماضي، لمناسبة الذكرى الخامسة للاستقلال، مشروعاً عشرياً (أي لعشر سنوات) لتطوير الحياة التونسية والنهوض بها. هذا المشروع أعده الخبراء، ودرسه المختصون، لكن الأمر تعدى ذلك. فقد أُرسل هذا المشروع إلى فروع الحزب الحر الدستوري لإبداء الرأي. وفروع الحزب ١٢٠٠ تقريباً. وبذلك تمكن التونسيون المقيمون في أقاصي الجنوب وأقاصي الشمال أن يبدوا رأيهم في المشروع ويقدموا ملاحظاتهم.

٣

والسؤال الذي يخطر في البال هو: لماذا تتخذ الحياة السياسية التونسية هذا الطابع البناء.

والاجابة عن هذا السؤال تقتضي التعرف بالعناصر والصفات التي يتمتع بها الشعب التونسي والتي أوجدت صيغة العمل السياسي وأدت إلى هذه النتائج.

أول ما تجب ملاحظته هو أن تونس عرفت في تاريخها الطويل استمراراً في حياتها الثقافية ترك فيها خميرة حضارية هامة، هي التي مكّنت للقوم هناك أن يكون

لهم استعداد لأن يتفهموا قضاياهم بشكل منتج بناء، ويسعوا إلى هدف موحد لا تتقاسمه الاهواء. فالتونسيون يتمتعون بنضج سياسي لا يعرفه الا القلة من الشعوب العربية. ومن هنا كان هذا الشعور بالمسؤولية والاحساس والانضباط والتقيد به.

وثاني هذه الأمور هو أن تونس أتيح لها، في جهادها وكفاحها وتنظيم أمورها بعد الاستقلال، زعامة حكيمة نيّرة متفتحة، زعامة تحكِّم العقل في الأعمال التي تقوم بها، ولا تخضع للعاطفة ولا تندفع وراء الكلام المعسول. إنها تزن كل امر بميزان الواقع والمثالية، وتعتمد دراسة القضايا، ثم تقوم بالعمل بعد صدور الحكم الدقيق. اتضح هذا في زعامة القضايا السياسية في تونس في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، ولكن الزعامة الرشيدة، التي أفادت من جميع الخبرات والمعرفة وقادت السفينة التونسية الى مرافىء الخير، هي الزعامة التي تولت الأمر بعد مؤتمر قصر بني هلال قبل ثلاثين سنة.

والزعامة الحكيمة تبدو اكثر ما تبدو في التنظيم الحزبي الذي تعرفه تونس معرفة جيدة. والتنظيم الحزبي في تونس أساسه الوصول إلى جميع انحاء البلاد عن طريق الشُعب الكثيرة للحزب، ولكن ليس المقصود بالاتصال بهذه الشعب أن تصدر اليها الاوامر، ولكن أن يعرف رأيها أيضاً. لقد شاهدت هذا بنفسي في أنحاء الجمهورية التونسية، وما أنا عنها بغريب. شاهدت كيف يرسل المشروع العشري (المذكور قبلاً) إلى الشعب فيناقش فيها على أيدي لجان خاصة، ثم يبعث بالآراء الى المركز الاصلي. فالتنظيم الحزبي في تونس يقوم على أساس المشاركة والانتشار والامتصاص. فالكل يشارك، والشُعب تنشر المعلومات والشعب تمتص الآراء وترسلها إلى العاصمة.

٤

ثمة أمر آخر حري بأن لا يغيب عن بالنا رأيته في تونس، وهو الدور الذي يقوم به الشباب في حياة تلك البلاد. ففي زيارتي لها مؤخراً تحدثت إلى كثيرين من الذين أُلقيت اليهم اعباء هامة وحملوا مسؤوليات كبيرة فوجدتهم شباناً بمعنى السن والهمة والنشاط. ووجدت الشبان في مصالح الدولة المختلفة، ووجدت الشبان في منظمات الحزب ووجدت الشبان يشرفون على التوجيه الاجتماعي ووجدتهم يخططون للتعليم العالي، ورأيتهم يقومون على أعمال الاذاعة وكانوا في الصحافة وفي التجارة، فقلت في نفسي ان تونس اليوم هي بلد الشباب، بارك الله لتونس في شبابها وبارك لشبابها بها.

دخلت مكتب رجل عهد اليه أمر تنظيم شؤون الشباب والرياضة. تحدث اليّ ساعة موضحاً برامج إدارته، شارحاً مشاريعها، مبيِّناً ما أنجز منها وما لا يزال ينتظر الانجاز. ثمة أطفال حملوا من الشر إلى الخير ومن التعاسة إلى السرور والسعادة.

وثمة التخطيطات الرياضية العامة التي تنتقل بالمنظمات والهيئات الرياضية من الفوضى إلى التنظيم، ومن العمل الجزئي إلى العمل الكلي، والتي تتيح لكل هيئة رياضية ان تتم ما عليها دون التدخل بحرية العمل. وهناك الاتصال على المجال الدولي الذي تقوم به هذه الادارة. حدثني عن ذلك كله، حديث عارف مدرك مخلص نشيط عامل فعال. وهو شاب. ثم عرفني بالبعض من مساعديه، فكانوا شباباً أيضاً. واستبشرت الخير. لا لأن الشيوخ لا يبشرون بالخير، ولكن لان تمرس الشباب بالمسؤولية، معناه رغبة شديدة في الاندفاع.

جلست إلى مندوب للحزب في عاصمة احدى الولايات التونسية فلخص لي ما تفعله المندوبية والشُّعب للشعب. ان كثيراً من المشاريع الكبيرة انما نمت في الشعبة أو المندوبية، من مثل إقامة المستوصفات او بناء المدارس. فاذا حظي المشروع بالدرس وبتبادل الرأي عمل على تنفيذه. فتبنى المدرسة محلياً وتكلف وزارة التربية والتعليم أن تجهز البناء بمعلميه وأثاثه وكتبه. وهكذا يقال في المستوصف. الفكرة تَنْبُتُ في رأس أحد أولئك الشباب، ويدرسها من معه من الشباب، وتنفذ بعزم سواعد أولئك الشباب. فاذا وصل الامر إلى وزارة الصحة أو التربية لقيت هناك من اهتمام الموظفين الشباب ما يدفعها إلى الامام دفعاً. فيتم للقرية مدرسة ومستوصف، وقد يتم لها أمور أخرى كثيرة.

وجلست إلى معتمد مسؤول عن قضاء، وهو الذي يقابل القائمقام في المشرق، وعهدي بمثل هؤلاء، في اكثر بلاد المشرق، جماعة متقدمون في السن. لكن المعتمدين الذين تعرفت اليهم في تونس كانوا شباباً، ومن هنا كان اندفاعهم في تأييد ما قد يصدر عن الشُعب من مشاريع وبرامج.

هذه الاعمال عادية في الاحوال العادية، لكن تونس ليست في وضع عادي. إنها دولة تنشىء في كل يوم مشروعاً، وتكتشف كل يوم مشكلة تحتاج إلى حل، وتنمي في كل يوم شجرة أو تستصلح أرضاً أو تعلم طفلاً أو تؤوي مشرداً. وهذا كله جهد كبير، وكأن هذا لم يكف حتى فوجئت في صيف هذا العام بقضية بنزرت. فما الذي تكشفت عنه هذه القضية؟ ما الذي ظهر نتيجة لهذا الاعتداء الاثيم الآثم؟

هبّ الشعب هبة واحدة لدفع الاذى عن نفسه ووطنه. اشترك في ذلك الجميع، لم يتأخر احد. لكن الدور البارز كان دور الشباب ـ طلاباً وطالبات عمالاً وعاملات، جنوداً وممرضات. أقاموا في لظى المعركة وسقط منهم الشهداء، واستأسد الاحياء. والذين كانوا في الخطوط نفسها سجلوا شيئاً هاماً في تاريخ الكفاح. سجلوا شجاعة الصمود في وجه الخطر المحدق.

مع شهيد

شعرت بالتعب يسري في جسمي، وأحسست بعضلاتي وقد تخدّرت، وراود النعاس أجفاني فأثقلها، فحملت نفسي إلى فراشي حملاً، وخلّفت ورائي سفرة طويلة من العاصمة التونسية الى صفاقس، ووقفة تأمل في الجسم وما له وما فيه، وجولة طويلة جداً في مدينة صفاقس القديمة، وجلسة في ساحة المدينة الجديدة. تركت كل ذلك ورائي، وألقيت بجسمي في الفراش، ولست أحسب انني احتجت إلى وقت طويل قبل أن أخذتني سنة من النوم.

ورأيتني، كما يرى النائم نفسه، انتبذ من دون القوم زاوية قصية في قاعة اتسعت بنياناً وضاقت مكاناً، وأمامنا، على منصة مرتفعة قليلاً، وقف شيء لا هو بالجسم ترسم له المعالم واضحة، ولا هو بالشبح له خطوط دون معالم، وإنما هو شيء بين بين. وعلى كل فلم أستطع ان أتعرف إلى صاحب هذا الوجه. وكنت أود أن تتقراه يداي بلمس. فما أمكن ذلك. زممت عيني فما أسعفتاني. وسمعت صوتاً ضعيفاً يخرج منه، ولكنه صوت واضح الكلمات، وإن كانت كأنها تهمس همساً. وضعت اذني لأتأكد مما يقوله، فوقعت كلماته على نفسي وقعاً هادئاً. كان يقول: «وهكذا تم لك النجاح بسبب هذه المثابرة، والمثابرة الواعية. تعرفون ان حركتنا حركة تونس الوطنية، بدأت منذ ان وطىء الاجنبي تراب الوطن. وسبب ذلك انه سبقها وعي الشعور بوجودنا. هذا الوعي الذي يرجع الفضل فيه إلى أهل القلم الذين عاشوا في هذا البلد قبل قرن ويزيد. لقد نبهوا اجدادنا وآباءنا إلى شخصيتهم وكيانهم ونواحي حياتهم وامجادهم القديمة. لقد نظموا الشعر وكتبوا في الأدب والتاريخ وما اليهما. لذلك لما احتل الاجنبي بلدنا كانت ردة الفعل عندنا قوية، وكانت منظمة. كانت بالسيف وكانت بالقلم، وكانت بالقتال وكانت بالمفاوضة، وكانت بالأفراد وكانت بالجماعات. ثم زرعت بالبذور الأولى. وهي بذور خيرة طيبة، تعهدها الزارعون يومها بكل ما استطاعوا من قوة وما ملكوا من أساليب.

بدا كأن الجهد أخذ من المتكلم بعض الشيء. وظننت، كما ظن كثيرون فيما اعتقدت، أنه سيقف. لكن ظننا كان إثماً وكان خطأ. فشيء في مثل هذا، ليس هو بالجسم ولا هو بالشبح، لا يمكن أن يجهده، ولا يمكن ان يضعف. ولذلك لم يلبث أن استمر، قائلاً «نعم تعهدوا البذور بالقوة والوسائل، إلا ان الجيل الذي تلاهم كان يملك

وسائل تختلف. وكانت الاحوال قد تغيرت. لذلك أخذ الجيل الجديد هذه النبتة الطيبة الخيِّرة الصالحة وانصرف اليها ينميها بقواه ووسائله. فأينعت وأعلمت هذه الثمرة الناضجة التي تتمتعون بها».

ولعل المتكلم أدرك أن الموجودين، وأن أكثرهم كان يعرف ما الذي يريد ان يقوله كانوا راغبين في السماع عن قصة يحبونها... يحبونها لأنها آتت أكلها، ويحبونها لأنهم عاشوها، ويحبونها لأنهم يريدون أن يستمر أولادهم في الاهتمام بالقصة والنبتة والثمرة. شعر المتكلم بذلك، ولم يحب ان يخيب آمالهم، فانصرف إلى حديثه يتمه. وشعرت كأن شيئاً قد اختلف في الذي تلا. نعم شعرت كأن شيئاً من الحرارة قد دب إلى الحديث. سمعته يقول «لعلكم تريدون ان تعرفوا ما الذي طرأ على القضية في دورها الثاني. دورها الثاني الذي يبدأ في قصر هلال. اصبحت القضية مسألة نمو مستمر تكفله الشعب التونسي بأجمعه. ولم تعد قضية شعب يعنى بها قلة من الزعماء فقط. اما كيف كفل الشعب التونسي بأجمعه القضية فأمدها بروحه، وأمدها بأمواله، ودفع دمه ثمنها، فأمر يذكره كبيركم وصغيركم. اشركتم بالامر فعلاً. فقامت الخلايا والشُعب والمندوبيات التي انشأتموها للحزب، فصارت هذه المراكز العصبية للاتصال بين جزء من اجزاء البلاد وآخر، وجهة أخرى، وفئة وأخرى. وإذن فقد اصبحت النبضة واحدة متصلة واصبحت الفكرة واحدة مرتبطة، واصبح العمل واحداً متآلفاً، وصار التخطيط واحداً منظماً. وهكذا فالاتصال والارتباط والتآلف والتنظيم ساعدت على نقل الآراء من اطراف البلاد إلى المركز ومن المركز إلى اطراف البلاد. وأصبح الرأي يمحص على اكثر من مستوى واحد، ويتجه في طريقين بدلاً من ان يكون ذا طريق واحد. وكان ثمة خطر ان يعتقل البعض من اعضاء الهيئة المشرفة على العمل، فبدلاً من ان يؤدي ذلك إلى تعطيل العمل احتيط للأمر بأن تم الاتفاق مسبقاً على من يتولى الأمر في حالة الاعتقال. لذلك كان يحار اصحاب السلطان اذ يعتقلون ستة فيقوم ستة اي اذا غُلب سيد قام سيد، وكان الجديد كالقديم فعولاً مسؤولاً. وعرفتم هؤلاء الناس على اختلاف درجاتهم واعمالهم، يقفون في الميدان، يتعرضون للقتل فيقتلون، ويتعرضون للاعتقال فيعتقلون، ويتعرضون للسجن فيسجنون. ولكن قتلهم لا يؤدي إلى قتل الفكرة، واعتقالهم لا ينتهي باعتقال القضية، وسجنهم لم يكن معناه سجن الحركة الوطنية. بل كان حادث من هذه الأحداث يدفع بالقضية الى الامام لانه يمدها بالقوة».

والتفت حوله وعلت وجهه ابتسامة أو شيء يشبه الابتسامة فقال «وهذه السنوات الثمان التي مرت عليكم نقلت البلد من استعمار إلى استقلال. لقد حاربتم تحت قيادة صادقة مخلصة، ودفعتم ثمن الاستقلال. لكنكم نلتموه. لقد حارب كل واحد منكم بامكاناته وطرقه. لكنكم لم تحاربوا وحدكم، ولم تقاتلوا وحدكم. لقد حاربت الأرض معكم فأمدتكم بما يلزمكم. وحاربت الاشجار والغابات فسترتكم عن أعين الخصوم،

ومكنتكم من ضـربهم وايذائهم. بل لقد حـارب الاولياء معكم. ألم يأتكم خبر أهل طبلبة الذين قالوا انهم رأوا سيدي عياش في نومـهم، وقد نزف الدم الغزير من ساعديه، فلما سـألوه في ذلك أجـاب أنه يدافع عن ابنـائه وأولاده ضـد رصـاص العـدو؟ ولا بد انكم لو سـألتم ابناء البـلاد الأخـرى لحـدثتكم عن الدور الـدي قـام به اوليـاؤها. ولـمَ لا؟ اليس الوطن للجميع؟ والجميع قاتلوا». وبدت على محيا المتكلم إمارات الألم والأسف. فانني لم استطع التفـريق او التأكد، وخفض رأسه حياء وخفراً، وقال بلهجة متواضعة ونبرات خفيفـة رقيقـة وان كنت آلم لشيء فانني آلم لأنـه حيل بيني وبين القـتال معكم جنباً إلى جنب الى النهـاية، ولكن من يدري لعلي كنت احارب الى جـانبكم من عـالمي هذا». قـال هذا واختفى اختفـاء هادئاً، بحيث لم يحدث ضـجـة. اما الحضـور فقد اخذوا بذلك، بحيث لـم يتحركوا من اماكنهم ولكنـني رأيتهم يرفـعون ايديهم كأنـهم يقرأون الفاتـحة ثم يرددون، همسـاً على طـريقة صـاحبهم نفسه، «رحـمـه الله لقد مـات شـهيـداً وانضم إلى قائمة الشهداء الابرار.»

ولم ادرِ مـا الـذي يجب ان افعله. أأغـادر القـاعـة فـأقطع هذا الصـمت الـذي خيم ولم يدم، ولم يتح لي المـجـال لتـقـرير مـصـيـري فـقـد أفقـت وكـانت الشـمس تـخلع على الأفق الشرقي اشعتها الأولى. فهرعت الى النافذة. وتطلعت الى السـاحة.

تذكـرت عندهـا انني في صـفـاقس وأدركت أن المـتكلم كـان المـغـفـور له الهـادي شـاكـر. لقـد جـاءت روحـه في يوم ذكـراه فـتحـدثت إلى كل من هؤلاء الناس في ذكـرى استشهاده. فقلت رحمه الله ورحم الشهداء اجمعين...

تونس الشباب

من الاخبار ما يستقر في القلب اسطورة يتغنى بها، ومنها ما ينفذ إلى العقل تاريخاً يفكر فيه، وقد تمتزج الأسطورة بالتاريخ فيجتمع للخبر غناء القلب وعقل التاريخ فيكون عبرة وعملاً. من هذه الاخبار قصة عن امرأة اسمها اليشع قامت على انشاء مدينة قرطاجنة في شمال البر التونسي. يقولون إن اليشع كانت جميلة وقد تكون، ولكن الذي نعرفه انها لما انشأت المدينة الجديدة كانت بعد شابة. وكان من الرجال الذين انجبتهم قرطاجة هنيبعل وقد قاد الجيش وهو بعد شاب. وبعد ذلك بقرون جاء شاب آخر إلى تونس وانشأ مدينة جديدة فيها هي القيروان. وهكذا كتب لتونس ان يكون للشباب يد في إنشاء المدن الأولى الكبرى فيها. وكتب للحاضرة ان تنجب ابن خلدون وهو الرجل الذي بدأ حياته السياسية والعلمية الحافلة وهو في الرابعة والعشرين من عمره. وثمة كثيرون غير ابن خلدون قبله وبعده.

تحدثت إلى كثيرين من الذين القيت اليهم اعباء هامة وحملوا مسؤوليات كبيرة فوجدتهم شباناً بمعنى السن والهمة والنشاط. وجدت الشبان في مصالح الدولة المختلفة، ووجدت الشبان في منظمات الحزب ووجدت الشبان يشرفون على التوجيه الاجتماعي ووجدتهم يخططون للتعليم العالي، ورأيتهم يقومون على أعمال الاذاعة وكانوا في الصحافة وفي التجارة فقلت في نفسي إن تونس اليوم هي بلد الشباب، بارك الله لتونس في شبابها وبارك لشبابها بها.

دخلت مكتب رجل عُهد اليه أمر تنظيم شؤون الشباب والرياضة في تونس. وتحدث إلي ساعة موضحاً برامج إدارته، شارحاً مشاريعها، مبيناً ما انجز منها وما لا يزال ينتظر الانجاز. ثمة أطفال أبو رقيبة، الذين حملوا من الشر الى الخير ومن التعاسة إلى السرور والسعادة. وثمة التخطيطات الرياضية العامة التي تنتقل بالمنظمات والهيئات الرياضية من الفوضى إلى التنظيم ومن العمل الجزئي الى العمل الكلي، والتي تتيح لكل هيئة رياضية ان تتم ما عليها دون التدخل بحرية العمل. وهناك الاتصال على المجال الدولي الذي تقوم به هذه الادارة. حدثني عن ذلك كله حديث عارف مدرك مخلص نشيط عامل فعال، وهو شاب. عرّفني بالبعض من مساعديه. فكانوا شباباً ايضاً. واستبشرت الخير، لا لأن الشيوخ لا يبشرون بالخير، ولكن لان تمرس الشباب بالمسؤولية معناه رغبة شديدة في الاندفاع.

زرت أحـد اصـدقـائي فـي وزارة التـربيـة فـوجـدته يكاد يخـتـفـي تحت أكـداس الأوراق... وقـد يكون من السـهل ان تكدس الأوراق على أي طاولة فـي أي مكتب. لكن ذلك يتضح حالاً لذي البصيرة. لا، ما كان صديقي يكدس الأوراق ليظهر بمظهر الكثير الأعمال. إنه شاب عـهد اليه بأمر البحث مع زملائه عن حل لمشكلة الطلاب الذين يتلقون التعليم العالي خارج تونس. أتدري أيها القارىء الكريم ما معنى هذه المهمة؟ إن الأزمـة التي مـرت بها تونس في هذا الصـيف جعلتـهـا بحـاجـة إلى عـدد كبـيـر من المدرسين فلجأت الى طلابها في الخارج تجندهم للعمل في التدريس مع توقيف اتمام دراستهم العالية الآن. ثم هناك عدد كبير من الطلاب قد يكون من المناسب البحث عن معاهد جديدة لهم فيما اذا اقتضى الأمر تبديل معاهدهم. كل هذه المشاكل وما يترتب عليها يشرف عليها بضعة من الشباب في وزارة التربية في تونس.

في دار الاذاعـة التـونسـيـة تجـد الشـبـاب فـي كل مكان. وتجـدهـم فـي المنـاصب المسؤولة يعملون إلى جانب الشيوخ مفيدين من خبرة هولاء منتفعين من معرفتهم، مكملين ما يلزم بهمتهم وحماستهم واندفاعهم. وهم يقومون بتهيئة الأحاديث والبرامج ونشرات الاخبار وغير ذلك وترتيبها وتنفيذها. ومن عرف ظروف الأزمة الاخيرة لمناسبة بنزرت، عرف ما تحمله هؤلاء من جهد ونصب ومسؤولية ولكن سواعد الشباب قوية.

وهذا المكلّف بشؤون الجامعة التونسية تتراكم عليه المشكلات الطارئة، فضلاً عن مـشكلات جامعـة في دور التكوين، فـتراه يرتبهـا ويصنفهـا ويدرسـهـا ويلائم بين الحاجة والموجود، والممكن والصعب، ليخرج عن هذا كله بما يعتقد انه خير ما يمكن عمله لبلاده.

هذه الأعمال تكون مألوفة في الاحوال العادية، لكن تونس ليست في وضع عادي. انها دولة تنشىء في كل يوم مشروعاً، وتكتشف كل يوم مشكلة او تؤوي مشرداً. وهذا كله جهد كبير، وكأن هذا لم يكفِ حتى فوجئت في صيف هذا العام بقضية بنزرت. فما الذي تكشف عنه هذه القضية؟ ما الذي ظهر نتيجة لهذا الاعتداء الاثيم؟.

هبّ الشعب هبة واحدة لدفع الأذى عن نفسه ووطنه. اشترك في ذلك الجميع، لم يتأخر أحد. لكن البارز كان دور الشبـاب ـ طلاب وطالبات، عمالاً وعاملات، جنوداً وممرضات. أقاموا في لظى المعركة وسقط منهم الشهداء، واستأسد الأحياء، والذين كانوا في الخطوط نفسها سجلوا شيئاً هاماً في تاريخ الكفاح. سجلوا شجاعة الصمود في وجه الخطر المحدق.

ولكن الذين لم يكونوا في الخطوط قـامـوا بأعـمـال أخـرى، لم يكن اقلهـا هذه الملتقيات والاجتماعات والمؤتمرات التي عقدها الطلاب ورتبتها منظمات الشباب والشابات في نواحٍ مختلفة من البلاد. ولم تكن الغاية من عقدها ارسال برقيات تأييد هنا وهناك، أو توجيه رسائل احتجاج على هذا وذاك، وانما كان المقصود منها درس

ما حدث والتخطيط لمجابهة ما يمكن ان يحدث، ووضع البرامج التي من شأنها أن تسير بالبلاد قدماً.

ايام قضيتها في تونس رأيت فيها الشباب يعملون فقلت في نفسي بارك الله بالشباب. وتذكرت قول المتنبي، ان لم تخني الذاكرة:

ليس الحداثة من حلم بمانعة قد يوجد الحلم في الشبان والشيب

وقد دلت تونس على ان رأي المتنبي صحيح.

ايام في فزان

اقلعت الطائرة بنا من مطار طرابلس الغرب وفي برديها عزم وهمة وفي جوفها ركاب أسلموا نفسهم لله بعد ان ارتفعت هذه الآلة الضخمة عن الأرض. وقد كان في الطائرة من عرف الطريق غيباً ومن كان تعباً منهكاً، فلم يهتم بما تحته او بما فوقه. أما انا فقد سمرت عيني على ما هو خارج الطائرة. الجو صاف والسماء زرقاء. وتحتنا مزارع خضراء وزيتون يغطي الأرض مسافات واسعة. ولكن ما الذي حدث؟ إنها خمس وعشرون من الدقائق أو نحو ذلك واذا بالمزارع تختفي والزيتون يغيب. ولمَ كل هذا؟ ان الصحراء بدأت. وأكدت النظر إلى ما تحتنا، فاتضح لي أننا نطير فوق رمال ورمال ورمال. لكنها ليست كلها رمالاً ناعمة تنقلها نسمة الهواء او تسفيها الرياح. ان بعض هذه الرمال صلبة قاسية، بل ثمة منها ما يتحد ويتجمد ويرتفع بحيث يكون تلالاً وجبالاً تلقي على ما أمامها أو خلفها ظلالاً. وانت تطير على ارتفاع ثلاثة آلاف من الأمتار، ومع ذلك يملأ الفرح نفسك اذا لمحت في هذه الرقعة الشاسعة الممتدة تحتك شجرة أو ظل شجرة. أما اذا وقعت عينك على واحة ـ وقد تقع ـ فأنت ترقص من الفرح مشاركة لمن يمكن ان يكون سائراً فوق تلك الرمال. وظل الشجرة نادر وأندر منه، في الطريق الذي طرناه، مجتمع الأشجار في واحة.

وظلت الطائرة مستقيمة هادئة، إلا من جيب هوائي هنا أو هناك، حتى وصلنا فوق الزلاف، وهو جزء من الصحراء فيه كثبان من الرمل الناعم، يقع بين سبها وبراك في منطقة الشاطىء. كان النهار قد تجاوز منتصفه، وكانت الرمال قد امتصت من الحرارة ما زاد عن حاجتها، فنقلته إلى الهواء فوقها، وهذا كثرت الثقوب في جيوبه وهو صاعد، فأخذت الطائرة تنفذ إلى هذه الجيوب فتتهادى وتتمايل بل وترقص. وقال قائل القوم انه الزلاف، وقلت «اذن فهذه رقصة الزلاف». وزاد في رقصتها انها اضطرت إلى الانحدار التدريجي لأنها قاربت الوصول إلى هدفها. ولم نلبث ان رأينا واحة، فقال جاري: سبها، وبعد ساعتين ونصف الساعة على خروجنا من طرابلس هبطت الطائرة على مدرج رملي طبيعي في مطار سبها.

سبها بلدة صغيرة بعد، لا يتجاوز عمرها بضع سنوات. فهي بنت من بنات استقلال ليبيا، بني أول ما بني فيها دار لواليها الأول التي يقطنها الوالي الحالي. ثم أضيفت، تدريجياً، بيوت وابنية لدوائر الحكومة والمدارس والموظفين. لكنها بلدة تنمو

وتطور. تقف في اعلى نقطة من قلعتها، فتشرف على شوارع لطيفة وبيوت انيقة وحوانيت مرتبة. وترى طرقاً رملية مخططة، وان لم تكن مزفتة، تخرج منها متفرعة إلى غات ومرزق وبراك وهون وغيرها. وعند أول كل طريق اشارة تبين لك المسافة الى المكان الذي تقصده.

وخرجنا من سبها الى البحيرة. والبحيرة مجتمع ماء تحيط به أجمة من النخيل. وفي الشتاء يتسع بحيث يكون بحيرة لطيفة، لكن ماءها ملح وان لم يكن أجاجاً. اما في أواخر الصيف، وهو الوقت الدي وقفت فيه على ضفتها، فقد كان فيها بعض الماء الآسن. ولكن نحن في صحراء، في جوف الصحراء، وكل ماء مهما قل وملح، فانه مدعاة للسرور والطرب. ونحن في بلادنا نقطف بعض الثمار باليد ونأكلها، وهناك، على شاطىء البحيرة، قطفنا التمر عن شجر النخيل دون تسلق او اعتلاء.

ولم اكتفِ بالوصول الى قلب الصحراء في سبها. ذلك انني اردت أن أتوغل فيها قليلاً. وتلطف رئيس الحكومة فوضع تحت تصرفنا - انا وصديق لي عزيز علي - سيارة قوية نقلتنا الى مرزق. فكنا على بعد ٩٠٠ ك. م. عن الشاطىء.

مرزق كانت عاصمة الولاية في أيام العثمانيين. كان فيها قائمقام تركي وقاضٍ تركي ورئيس جند تركي. وكانت القلعة التي بناها الاتراك، ولا تزال جُدُرها قائمة، مركز الحكم ومستودع الهيبة ومهبط آمال العدل، ولم تحقق دوماً كل ذلك. لكن مرزق كانت، بالإضافة إلى ذلك، منفى تبعث اليه الحكومة العثمانية في أواخر القرن التاسع عشر ببعض اولئك الذين يغضب السلطان عليهم، فيقضون أياماً وشهوراً وسنوات، وقد ينسون هناك، وقد ينتقلون الى العالم الآخر رأساً من مرزق.

القلعة التركية في مرزق مكان للزيارة لا للاقامة، والجامع التركي المبني من اللبن المجفف أثر لا مصلى فيه. والوقفة على القلعة تكشف أمامك منبسطاً لا حد له، ومتسعاً ينتهي عند الأفق. ولا شك انه مكان يعشق، إن لم يرغم المرء على الإقامة فيه.

مرزق تمثل، في تاريخ ليبيا الحديث، حكم الاتراك وحكم الايطاليين وحكم الفرنسيين، لكنها تحكي ايضاً حكايات بطولات انتهت بالاستقلال. وهذه الحكايات حرية بأن تُسمع وحرية بأن تدوّن.

ومع ان قصَصَ التاريخ وقصص البطولات محبب الى النفس أخاذ جذاب، فإن قصص الواقع والانشاء قد يفوقه. ولعلّ ما تم في فزان في السنوات العشر الاخيرة مما يستحق عناية خاصة. الواقع ان كل ما تم في ليبيا يستحق ذلك، لكن فزان حالة خاصة. بلد بعيد عن البحر، كان يعيش على القوافل وما تحمله الى واحاته، ولا تزال الواحات مراكز العيش والتجمع. لكن سبها، قلب فزان الاداري، ترتبط اليوم بالعالم بغير القوافل. فالطائرة تنقل الركاب المدنيين منها إلى طرابلس وبالعكس. ومعنى هذا انها اصبحت مرتبطة بالعالم كله. وهذا البريد يصل اليك مرتين في الاسبوع وانت

هناك. وخط التلغراف او خطوطه تربط أنحاء المملكة الليبية ببعضها البعض، ولذلك فانها تيسر العمل. وثمة طريق، على وشك ان ينتهي، يصل طرابلس بسبها عن طريق هون. وهون منطقة غنية بالتمر الجيد، لذلك أنشىء فيها مصنع للتمر المحشو باللوز وغيره، ينتج إنتاجاً جيداً. وقد حملت منه هدية صغيرة أعجب بها كل من ذاقها.

وفي سبها ورشة ميكانيكية المقصود منها تدريب الشباب على الآلات وما يلزمها من تسيير وإصلاح ودربة وخبرة. ويتم ذلك نظراً وعملاً. ومع انه يتم على آلات حديثة. إلا أن القائمين بالأمر هناك لا يريدون ان يعقدوا الأمور، فلا يدربون هؤلاء الشبان على آلات معقدة قد لا يرونها ثانية في حياتهم، وإنما يقتصرون على ما يقع تحت السمع والبصر.

زرنا في سبها مصنعاً للأقمشة والبسط. وهذه صناعة تقليدية هناك. إنما أدخل النول الحديث وأخذ الناس بالتدرب عليه. والنماذج التي رأيناها من المصنوعات هناك كانت جميلة جيدة. وقد حافظت على نقشها التقليدي.

وقد لفت نظري التقدم في التعليم الذي خطته فزان، كجزء من ليبيا طبعاً، في هذه الفترة. فقد كان في الولاية كلها سنة ١٩٥٣ سبع عشرة مدرسة، فإذا فيها اليوم خمس وستون مدرسة. وكان عدد الطلاب الفاً، فتجاوز اليوم السبعة آلاف. وقد فُتَحت أول مدرسة للبنات في سبها سنة ١٩٥٤ فأصبح عدد مدارس البنات الابتدائية اليوم اثنتي عشرة مدرسة فيها ما يزيد على الف طالبة. وفي سبها معهد للمعلمين ومدرسة ثانوية. وفي المدينة مكتبتان إحداهما لليونسكو والثانية مكتبة اميركية. وكم سرني أن أرى إقبال الشباب الفزاني على القراءة في المكتبتين. ولكن الذي سرني اكثر هو هذا النشاط الهائل الذي رأيته في عيون الصغار والصغيرات لما زرت المدارس المختلفة في سبها ومرزق وغدوة.

القسم الرابع

كتب من المغرب العربي

ادب من شنقيط

كان مما وقع في أيدينا، ونحن بعد على مقاعد الدراسة الثانوية، كتاب شرح المعلقات العشر للشنقيطي. فكانت تلك المرة الأولى التي نسمع بها بهذا الاسم. وكان مدرِّسنا يعرف الدنيا بعض المعرفة، فدلنا على شنقيط، فأدركنا أنها من هذه البلاد التي وصلت اللغة العربية والاسلام اليها، فأنارا حياتها، ونشرا فيها المعرفة والعلم.

وقد أتيح لي، فيما تلا ذلك من السنين، أن أشرق في دنيا العرب وأغرب، وأن أعنى بتاريخ شمال افريقية عناية خاصة، فاقتربت من شنقيط وإن لم تحطّ رحالي بها بعد. لكنني لقيت من أهلها غير واحد في المغرب والجزائر وتونس، فعرفت فيهم قوماً متعلمين يفصحون اذا تحدثوا، ويبينون اذا كتبوا، ويجيدون اذا نظموا. ولست أدعي انني اطلعت على أدبهم الى الدرجة التي أحب، ولكنني عرفت بعض هذا الذي وصل إلى يدي، فإذا به شعر جيد. وإذا هذا الشعر فصيح سليم، وإن كان يقوم إلى جانبه شعر عامي. وأنت تقرأ لأدباء شنقيط فتحسب انك للمشارقة تقرأ - أسلوب جزل وبيان ناصع وإيقاع حنون. وقد رأيت أن أشرك إخواني في هذه المتعة التي تلذذت بها، وهذا الغذاء الذي كان لنفسي زاداً.

وشنقيط وردت غير مرة عند الرَّحالة والجغرافيين القدامى فقيل عنها «مدينة من مدن آدرار واقعة فوق جبل في جهة غرب الصحراء الكبرى». وبحسب رواية الشنقيطي، صاحب كتاب «الوسيط في ادباء شنقيط»، فان هذه المدينة بنيت قبل نحو ستة قرون، وكانت قبل ذلك عيوناً تشرب منها الخيل. ويبدو انها هي التي اشتهر امرها فسميت المنطقة باسمها. اما الاسم الحديث لها فهو موريتانية، وقد استقلت السنة الماضية وعرفت باسم «جمهورية موريتانية الإسلامية». وعرفت المنطقة بالتجارة والزراعة وتربية المواشي حيث يمكن ذلك. وتجارتها، بطبيعة الحال، تقوم على القوافل التي كانت تحمل الملح وريش النعام والأقمشة للتبادل بين الشمال والجنوب والشرق والغرب.

وما نقله الشنقيطي ان في بعض صحارى أدر أودية عامرة من النخل لا انيس بها. ويبدو انها كانت قرى فدفنتها الرياح.

ولننتقل الآن إلى الأدب الشنقيطي نمتع أنفسنا بنماذج منه. فمن ذلك قول محمد

ابن الشيخ سيدي الابييري، من أهل القرن التاسع عشر، وقد هاجه الشوق إلى وطنه، وكان بعيداً عنه:

هاج التذكر للأوطان في الحين — برق تألق من نحو الميامين
برق يحاكي اغتداء الطير آونة — ونبضة العرق في بعض الاحايين
فقلت اذ شمته وهناً أخاطبه — دور الميامين أو دور الكناوين
سقياً لها أربعاً شطت بساكنها — عن نازح مستهام القلب محزون

ويعتبر محنض الديماني من علماء شنقيط وأهل المعرفة بها. وقد ضبط أحدهم شغله في يوم فقال «فرأيته في وقت الصباح، يسوق بقرة إلى موضع الرعي، ثم يذهب، والقدوم على عاتقه، يقطع بها أعواداً من الشجر الرطب، ليطوي بها بئراً يحفرها في محل صعب، ثم يعود بكثير منها على عاتقه، ثم يرجع إلى البئر ليقف على عبيده المكلفين بحفرها، ثم يرجع ليدرس للطلبة، ثم يشتغل بقرى الأضياف، لأنه كان موروداً، ثم يبقى هكذا إلى أن ينام الناس، فيشتغل بتصنيف كتابه «ميسر الجليل على مختصر خليل» وكان لا تأخذه في الله لومة لائم».

كان ابن حبيب الله، الذي عاش في ايام سيدي محمد بن عبدالله، سلطان المغرب، كثير النقلة، وقد رحل إلى المشرق، على عادة الكثيرين من المغاربة يومها، فتذكر بلاده وأصحابه فنظم قصيدة مما يسميه أهل الصحراء الغناء بالعربية، منها قوله:

يا من يرى ولا يرى — عني الكروب نفس
لقد نفي عني الكرى — شوقي لأهل تيرس
واجعل الأمر عسرا — يسراً بلا تعكس
لهفي عليهم نبلا — مهذبين فضلا
ان قيس معبد على — غرّيدهم كالأخرس
أو قيس سحبان على — بليغهم لم ينبس
حب المهيمن جرى — في الدم منهم وسرى
وامتثلوا ما أمر — به أجلّ قبس
واجتنبوا ما حظرا — من خبث ورجس
منزلهم رحب الذرى — وكومهم شم الذرى

ولمحمد بن الطلب اليعقوبي مقطوعة غزلية لطيفة، منها قوله:

لا القلب عن ذكر أم المؤمنين سلا — ولا أرى عاذلاتي تترك العذلا
بل لا أرى لوم من يلحو ومن عذلا — ألاّ يزيد عليّ الهمّ والخبلا

ولا أراني أرى رســـمــاً ولا طللا إلا وسـاءلتُ عنهـا الرسم والطللا
هي التي أنا لا أبغي بهـــا بدلاً من غيد عثمة ذات الضال من أجلا
هي التي للقـاها أفـرح الجـذلا ونيلي الوصل منهـا نيلي الأمـلا
هي التي ألبست غيد الورى الخجلا وتحت أخمـاصهـا اليافوخ من زحلا
فـإن تكن تبـتـغي ان تدرك الأمـلا فلتـتبـعن حيّـهـا أيّان مـا ارتحـلا
وارحل مـراحله واعـمل كـمـا عـمـلا وانـزل منـازلـه أيّـان مـــا نـزلا

وابن الطلب هذا كان حريصاً على تقليد العرب القدامى في شعره، وكان يتقن ذلك، حتى انه تمنى، بعد أن نظم غرر قصائده، ان يقعد هو والشماخ بن ضرار في نادٍ من أهل الجنة فينشدا بين ايديهم قصيدتيهما ليعلم أيهما أحسن.

ولنختم هذا الحديث بوصف لمدينة شنقيط اليوم، مأخوذ عن كتاب شعراء موريتانية للسيد محمد يوسف مقلد، إذ يقول «ومع ان مدينة شنقيط تعيش اليوم وهي في الرمق الأخير من شدة وطأة الرمال الحمراء العاتية عليها من الشرق، فهي لا تزال تحتفظ بالبقية من المكتبات التاريخية. وقد حشرت فيها الكتب المطبوعة وأكثر من ألفي مخطوط من المؤلفات القيمة ضمن صناديق خشبية وحقائب جلدية (التاسفرات) كدست فيها كما يكدس التمر في الأكياس».

ولا يزال كبير علماء شنقيط الشيخ منا القاضي يلازم مسجد شنقيط الكبير الذي ارتفعت أكوام الرمل إلى منتصف جدرانه!.

وإلى جانب شنقيط تقوم مدينة بوتليميت اختها، وولية عهدها اليوم، وكذلك مدينة تيشيت الصحراوية المعروفة بآثارها التاريخية التي نافست تومبوكتو. وهي مركز إشعاع للعالم العربي والمعرفة في قلب الصحراء، يرتادها الطلاب الأفارقة من قلب افريقيا، يسيرون اليها على اقدامهم مسافة شهر أو شهرين وهم يسوقون أمامهم النياق الحلوب أو البقر، كل حسب طاقة أهله، ليستعين بحليبها على ظروفه العلمية طول مدة التحصيل.

هذا شأن الصحراء: تقوم فيها المدينة، فتنبت الزرع وتحيي الضرع، ويأتيها الناس من كل فج لعلم أو تجارة، ثم لا تلبث الرمال ان تطغى عليها فتلفظ أنفاسهم بطيئاً، بينما تكون بقعة أخرى تعد نفسها لتخلفها.

رحلة التجّاني

نسارع فتقول إن هذا الكتاب مع أنه قد مر على نشره بعض الوقت، فانه حري أن يتعرف اليه قراء «العالم».

أبو محمد عبدالله بن محمد بن أحمد التجّاني تونسي من أهل القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلادي، نشأ في بيت علم وفقه وأدب رفيع. ولي مناصب متنوعة في ديوان الإنشاء في تونس، على نحو ما تم لابيه وعمومته وجده من قبل، حتى كان في خواص كتاب شيخ الموحدين الامير زكريا بن اللحياني. فلما اعتزم الأمير الرحلة في تونس وطرابلس اختار التجّاني لمصاحبته، وفوض اليه الاشراف على رسائله. فكانت رحلة امتدت من منتصف سنة ٧٠٦ هـ (اواخر ١٣٠٦م) وانتهت في صفر سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨م). وكان التجّاني يسير مفتح العين والأذن والقلب والعقل، ويدون ما يرى ويسمع ويستعذب. ولما كان له اسلوب رائق وذوق رقيق وقلم انيق فقد خلف لنا ثروة مدهشة هي تاريخ سياسي علمي اقتصادي اجتماعي لهذه المنطقة الممتدة من تونس إلى طرابلس الغرب.

ونحن، بعد أن نشكر لمؤرخ تونس الاستاذ الكبير حسن حسني عبد الوهاب هديته القيمة لقراء العربية بنشره هذا السفر النفيس، نرى أن خير ما يمكن أن نصنعه انصافاً للتجّاني هو أن ننقل عنه بعض الذي كتب، فذلك أشد امتاعاً وأبعد في النفس اثراً.

فهو يقول في وصف توزر: «وتوزر هي قاعدة البلاد الجريدية وليس في بلاد الجريد غابة اكبر منها ولا أكثر مياهاً، وأصل مياهها من عيون تنبع من الرمل وتجتمع خارج البلد في وادٍ متسع وتتشعب منه جداول كثيرة، وتتفرع عن كل جدول منها مذانب يقسمونها بينهم على املاك لهم مقررة، مقاسم من المياه معروفة، ولهم على قسمها أُمناء من ذوي الصلاح فيهم يقسمونها على الساعات من النهار والليل بحساب لهم في ذلك معروف، وأمر مقرر مألوف، وعلى ذلك الماء أرجاء كثيرة منصوبة، ومن العجب أن هذا الوادي يحتمل ما يحتمل عن غثاء أو غيره فاذا انتهى إلى المقسم افترق هنالك اجزاء بالسوية على عدد المسارب فمضى كل قسم منها إلى مسرب منها، وهذا مما شاهدته فيها عياناً. وكثير من أهلها انما يسكنون بغابتها ولا مناسبة بين مباني الغابة ومباني داخل البلد، فان مباني الغابة اضخم واحسن. وبداخل البلد جامعان للخطبة

وحمام واحد ومتفرجهم بموضع يعرفونه (بباب المنشر) وهو من احسن المتفرجات لأن مجتمع الماء هنالك ومنه يتفرع كما تقدم، ويجتمع فيه القصارون فينشرون هنالك من الثياب الملونة والأمتعة الموشية ما يعمه على كبره فيخيل للناظر انه روض تفتحت ازهاره، واطردت انهاره، وليس بتوزر احسن من هذا الموضع وهو خارج عن غابتها، والغابة ملاصقة لسور المدينة فهي بذلك تمت حصانتها».

ويتحدث عن حمامات طرابلس وشوارعها فيقول: «ودخلت حمام البلد وهو المجاور للقصبة فرأيت حماماً صغير الساحة إلا أنه قد بلغ من الحسن غايته، وتجاوز من الظرف نهايته، وكان هذا الحمام من منافع القصبة فبيع من جملة ما بيع منها، وهو الآن محبس على بعض المساجد، وبالبلد حمامان آخران غيره إلا انهما في الحسن دونه، ورأيت شوارعها فلم أرَ أكثر منها نظافة ولا أحسن اتساعاً واستقامة، وذلك أن أكثرها تخترق المدينة طولاً وعرضاً من أولها إلى آخرها على هيئة شطرنجية... ورأيت بسورها من الاعتناء، واحتفال البناء، ما لم اره لمدينة سواها، وسبب ذلك أن لأهلها حظاً من مجباها، يصرفونه في رسم سورها، وما تحتاج اليه من مهم امورها، فهم لا يزالون ابداً يجددون البناء فيه، ويتداركون تلاشيه بتلافيه.»

صحافة ليبيا في نصف قرن

تأليف: علي مصطفى المصراتي

هذا كتاب يلقى من الترحيب الشيء الكثير. فنحن بحاجة إلى مثل هذه الدراسات التي تتناول مصادر التاريخ السياسي والأدبي. وكل من اتيح له أن «ينبش» عن تاريخ ليبيا الحديث في صحافته يدرك الجهد والعناء والنصب الذي بذله الاستاذ المصراتي في سبيل إخراج هذا السفر القيم.

يبدأ المؤلف كتابه ببحث العوامل والمؤثرات التي عملت في تطوير الصحافة في ليبيا. فمن ذلك انشاء مطبعة الولاية بطرابلس (١٢٧٧/١٨٦٠) وافتتاح فرع لجمعية الاتحاد والترقي في ليبيا وكثرة الضباط والموظفين الذين ابعدوا في ايام عبد الحميد إلى تلك الديار وأثر المتخرجين من الجامع الأزهر وجامع الزيتونة من الليبيين واهتمام حكومة الولاية بتقديم المساعدة المادية للصحفين وانتشار جرائد مصر ومجلاتها، وتقديم المساعدة المادية للصحف وكون أكثر الكتاب والمراسلين لم يكونوا يتناولون اجراً على ما يكتبون. وينتقل المؤلف بعد ذلك إلى الحديث عن اسلوب الصحافة والقضايا التي كانت تعالجها والصعوبات معرفاً ايانا بأحوالها واصحابها ومحرريها واتجاهاتها. وليس بالقليل أن يتناول المؤلف نحواً من سبعين من هذه الصحف، وإن كان حديثه المفصل شمل نحو ثلاثين فقط، ذلك انه لما وصل إلى الصحف التي صدرت في ليبيا في فترة الإدارة والانتقال وفي عهد الحرية والاستقلال اكتفى بذكر بعضها واشار إلى البعض الآخر بالاسم فقط. ويعتبر الاستاذ المصراتي فترتين كانت فيهما الصحافة نشيطة مجدَّة. أما الفترة الأولى فتمتد من ١٩٠٨ إلى ١٩١١ أي منذ اعلان الدستور ثانية إلى الهجوم الإيطالي على ليبيا، أما الفترة الثانية فتمتد من سنة ١٩١٩ إلى ١٩٢١ وهي الفترة التي أصدرت فيها ايطاليا القانون الأساسي وجربت الصحافة وحزب الاصلاح الوطني وزعماء ليبيا أن يتعاونوا مع الحكومة الايطالية في سبيل انجاح المساعي لإقامة حكم صالح في البلد. واذا كانت الفترة الأولى قد عرفت عشر صحف (منها اربع أصدرها صحافيون ليبيون خارج ليبيا) فان الفترة الثانية عرفت تسع صحف صدرت كلها في ليبيا. ويلاحظ المؤلف أن صحيفتين كبيرتين صدرتا في ليبيا في ايام الحكم الايطالي المباشر ولكنهما كانتا تحت إشراف الحكومة الشديد، ولكنهما جريتا أن تقوما بالواجب عليهما نحو القطر الليبي.

ويذكرنا المؤلف بان أول ما صدر في ليبيا، مما يمكن أن يسمى صحيفة، كان في

سنة ١٨٢٧/١٢٤٣ وهي نشرة دورية كان يصدرها قناصل الدول الاجنبية باللغة الفرنسية وكانت خطية. وفي سنة ١٨٦٦/١٢٨٣ بدأت حكومة الولاية بنشر صحيفة اسبوعية اسمها «طرابلس غرب» صدرت بالتركية أولاً ثم اضيفت إليها اللغة العربية واستمرت تصدر زهاء خمسة واربعين عاماً. وهي بطبيعة الحال جريدة رسمية كانت تحتوي مبدئياً على النشرات الرسمية وأخبار السلطنة وتنقلات الموظفين، وكانت تابعة لغرفة الوالي. وطبعت اعدادها الأولى على مطبعة حجرية ثم اصبحت تطبع بالمطبعة العادية. وأول صحيفة شعبية صدرت في ٢٦ محرم ١٣١٥ هـ/٢٦ حزيران ـ يونيو ١٨٩٧ م. وفي السنة التالية صدرت مجلة الفنون وكانت مجلة شهرية خاصة بالعلوم والفنون والزراعة والطبيعة واستمرت في الصدور زهاء عامين.

ولما لم يكن باستطاعة الأستاذ المصراتي أن يوفي كلاً من الصحف التي تحدث عنها حقها، بسبب قلة المواد ونقص المصادر وتجنباً للاطالة، فقد خص هذه بشيء من التفصيل. فصحيفة الترقي تشغل الصحفات ٢٦ ـ ٧٠، وصحيفة اللواء الطرابلسي، التي بدأت حياتها سنة ١٩١٩، والتي كانت لسان حال حزب الاصلاح الوطني تشغل الصفحات ١٤٥ ـ ١٧٤. وقد خص المؤلف صحيفة الأسد الإسلامي، وهي التي اصدرها سليمان الباروني في القاهرة، وصحيفة دار الخلافة التي كان صاحب امتيازها عبد الوهاب عبد الصمد والتي اصدرها في اسطنبول، بالصفحات ١١٨ ـ ١٤١. ومما يشكر للأستاذ هذا التحليل الذي قدمه إلى القارىء عن كثير من الصحف. ومن ذلك ايضاً انه نقل بعض مختارات من الصحافة الليبية هي ذات قيمة لا من حيث دلالتها على الاتجاه والاسلوب فحسب، ولكن من حيث قيمتها التاريخية. فمن ذلك انه نقل صفحة من جريده البلاغ عن مؤتمر غريان. وجريدة البلاغ صدرت خطية بالحبر الأزرق على آلة البالوظة. وكاتب هذه السطور يعرف ما يكلف ذلك من عناية وجهد، ذلك لأنه استعمل آلة البالوظة في إعداد المذكرات لطلابه اوائل عهده بالتعليم. أما رئيس التحرير لهذه الجريدة فلم يرد اسمه فيها ولكن كتب تحت اسمها في العدد الأول «احتجبت اللواء في غياهب الاستبداد فنطق البلاغ في ربوع الحرية». واللواء المقصود هنا هو اللواء الطرابلسي. أما البلاغ فقد صدرت من مدينة مسلاته واستمرت بالصدور نحو ستة اسابيع (ص ١٩٦ ـ ٢٠٢).

وقد ألحق المؤلف بكتابه اربعة ملاحق اولها في مصطلحات وعبارات وردت في الصحف الليبية، وثانيها قائمة بأسماء الصحف التي صدرت في ليبيا مع ذكر المطابع والمطابع الموجودة، وثالثها قوانين المطبوعات، من العهد العثماني ومن عهد الإدارة البريطانية من حكومة برقة، ورابعها، قانون المطبوعات والنشر في عهد الاستقلال (ص ٢٥١ ـ ٢٩٠).

الكتاب قيم والجهد كبير والفائدة منه أكبر. وان كان لنا ما نأخذه على المؤلف

فأمران نأمل أن يتلافاهما في طبعة لاحقة. فأما اولهما فهو تكرار وإعادة يمكن الاستغناء عن كثير منهما. أما الأمر الثاني فهو انه يتحدث، في بعض الحالات، عن الصحافة الليبية ويحملها آراء ووجهات نظر كانت هي في نجوى عنها. ونأمل أن يعنى الناشرون في المستقبل بالطبع فلا يكون في الكتاب مثل هذه الأغلاط المطبعية الكثيرة.

ديوان رفيق

جمعه محمد الصادق عفيفي

فقدت ليبيا قبل مدة شاعرها الغريد وأحد شعراء العرب المحدثين الكبار، أحمد رفيق المهدوي. ورغبة منا في إحياء ذكرى هذا الرجل الكريم، وفاء لصلة كانت تربطنا به، ولا تزال تربطنا بليبيا، رأينا أن نتحدث عن ديوانه، آملين ان يقبل قراء العربية على قراءة هذا الديوان، فيشاركون في إحياء ذكرى هذا الوطني الجريء.

ولد احمد رفيق المهدوي في فساطو بليبيا سنة ١٣١٦ هـ/١٨٩٨م، وتغرب عن بلده غير مرة طالب علم أو مشرداً منفياً. ونظم الشعر دفاعاً عن ليبيا وشوقاً إليها، وأخيراً استقر فيها مع الاستقلال، وعين عضواً بمجلس الشيوخ، فكان الرجل العامل المصلح المجلجل الصوت كما كان الشاعر الغريد.

ونحن مدينون بجمع الديوان ـ والجزء الأول فقط هو الذي ظهر - للأستاذ محمد الصادق عفيفي، الذي حصل على القصائد من الشاعر نفسه، وقد طلب الجامع من عزيز اباظة وعمر الدسوقي أن يقدما للديوان، فكتب كل منهما صفحات جديرة بالقراءة. فمما قاله عزيز أباظة: «ولعل أروع ما يتضح لنا في هذا الديوان القيم.. تلك التجارب الشعورية التي صوَّرها الشاعر فأحسن تصويرها.. وحاول ما وسعته طاقته العامرة أن يبرزها في إطار شائق جذاب، دون أن يحيد بها عن نطاق الحقيقة والصدق والاصالة تعبير زائف، أو فكرة مشوبة.. فنحن ازاء شاعر يطل على مرائي الطبيعة، ومجالي الكون، ومواكب الحياة.. من خلال أحاسيسه اليقظة الواعية.. ثم يرسم بريشته الصناع ما انبثق في وجداناته من خلجات وخفقات وما التمع في عقله من لمحات وومضات..»

وقد حلل عمر الدسوقي شعر المهدوي تحليلاً قيماً وأشار بشكل خاص إلى شوق الشاعر إلى بلده. فمما جاء في كلام الدسوقي: «ويصف لك كذلك كثيراً من عادات قومه وتقاليدهم، وبعض المناظر الخلابة التي هاجت شاعريته، ولا يسعنا في هذه العجالة أن نلم بكل موضوعات شعره، ونقف على كل منها وقفات تحليلية طويلة، ونعرف إلى أي حد جدّد أو قلّد، ومدى ما فيها من عاطفة وخيال، وما في أسلوبها من قوة وضعف، فان ذلك يحتاج إلى كتاب خاص، وبحسبنا هنا أن نشير إلى غرضين هامين من أغراض شعره، ولعلهما أقوى هذه الأغراض وأجلها وأقربها إلى معنى الشعر لما فيهما من عاطفة متدفقة، وشعور صادق، وهما الوطنية والوصف».

«أما وطنيته فقد أوذي من أجلها، وآثر الغربة عن وطنه على عيشة الضيم والمهانة في ظل الاحتلال الطلياني، وقد اختار (جيحان) دار إقامة، إذ كان له بها أقرباء، ولكن الغربة زادت لوعة شوقه إلى وطنه الحبيب، فأخذ يزفر زفرات حارة يعبر بها عن لهيب شوقه، ويتتبع أخبار وطنه في لهفة، وكان برماً بأخلاق أهل جيحان، ولعلهم لم يشاركوه عواطفه، ورأى أخلاقهم لا تنسجم مع أخلاقه وكان يحن إلى وطنه ومواطنيه، وقد عبَّر عن ذلك كله في عشرات من القصائد تذكرنا بحنين البارودي في منفاه بسر نديب، أو بأندلسيات شوقي، ولا يقل المهدوي في عاطفته ولا جمال تعبيره عنهما، وإن كان لكل أسلوبه وطريقته».

شعر المهدوي حري بالقراءة لأنه شعر رجل عف نبيل كريم مؤمن بوطنه وبقومه. وبما ان المكان لا يتسع للكثير من الشعر، فإننا نكتفي بمقطوعة واحدة. قال المرحوم المهدوي من قصيدة في وصف درنه:

وعلونا على يفاع فلاحت ... باسقات النخيل تهتز لينا
تحت خضر الجريد صفر العراجين ... لها منظر يسرّ الحزينا
خضرة الموز والنخيل تليها ... زرقة البحر في الجبال يمينا
منظر البحر من علو يثير الشعر ... في النفس، والغرام الدفينا
ضمها البحر من شمال فكانت ... كاعباً ضمها المشوق حنينا
يعطف الموج كالمقبِّل للسا ... حل في سرعة ويرتد حينا
وتجلّت لنا بدائع صنع ... الله تدعو لربها المؤمنينا
قلت: آمنت بالبديع كما آ ... من موسى الكليم في طور سينا
وتذكرت عند ذلك فرعو ... ن وقد قال: قولة الجاهلينا
زاغ فرعون حينما شاهد الأنهار ... تجري من تحته والسفينا
غلبت نفسه على العقل والنفس ... إلى طبعها تميل يقينا
كل شخص مهما تثقف ... سوف تلقاه للطباع رهينا

النبوغ المغربي في الأدب العربي

لعبدالله كنون

هذا كتاب جليل في موضوع جليل لمؤلف جليل. نقول هذا ونحن مطمئنون إلى اننا لا نبالغ. فالأستاذ عبدالله كنون مؤرخ الأدب المغربي غير منازع، وصاحب نظرة فيه هي نتيجة لهذا الانصراف الطويل والاطلاع الواسع والرأي الثاقب والجد الذي يأخذ به نفسه كما يأخذ به غيره. والموضوع الذي انصرف اليه في هذا الكتاب هو التأريخ للأدب العربي في المغرب رغبة في أن يبرز مجالي النبوغ فيه من حيث مشاركة ذلك القطر العزيز في التراث العربي العريض. وهو يكتب لأبناء بلده كما يكتب لغيرهم من الناطقين بالضاد في ديار العرب. ومن هنا تأتي ضخامة الموضوع. أما ان هذا الجهد انتهى بهذا الكتاب الكبير الجيّد، فأمر حري بأن يثلج صدر صاحبه أولاً، ويثلج صدور القراء ايضاً. فكم كنا بحاجة إلى مثل هذا الكتاب. وجدير بالذكر أن «النبوغ» طبع قبل نحو ربع قرن في تطوان، لكن طبعته الجديدة منقحة ومزيدة، بحيث يكاد أن يكون ضعفي ما كان عليه.

والكتاب في حلته الجديدة في ثلاثة أجزاء: أولها خصصه المؤلف بالدراسات والثاني بالمختارات، والثالث بالمختارات الشعرية. وجدير بأن نذكّر أنفسنا بأن الحصول على هذه الكميات الكبيرة من المختارات ليس بالأمر السهل. فدواوين شعراء المغرب ومنتجات قرائح الأدباء هناك، لا تزال في مخطوطات تتوزعها المكتبات العامة والخاصة. فجمع مثل هذه الكمية معناه سهر مضنٍ وجهد وتنقيب واختيار وتذوق وحكم. وليست هذه بالأمور اليسيرة. لكن الأستاذ كنون تغلب عليها.

وإذا نحن أخذنا الجزء الأول وجدنا أمامنا هيكلاً حسن التخطيط تام البناء أنيق الزخرف. يمسك عليك نفسك متى بدأت قراءته، فتسير مع المؤلف في يسر اسلوبه على أن تقف مرات لتلحق به متى اخذك بالرأي والنظر. ويحملك على أن تعمل الرأي، وأن تحاول النظر فيما يقول. فهو يكتب قصة شيقة نافعة لكن يعالجها معالجة أهل المنطق والبحث. والخطة التي سار عليها المؤلف في الأول هو أن يتناول حياة المغرب عصراً عصراً فيوضح الاتجاهات السياسية أو ما هو في حكمها ثم يعرض علينا الحركة العلمية والفكرية والأدبية، ويوجز تراجم أهل العلم وآثارهم ويلحق كل فصل بثبت بالكتب الهامة التي وضعت في ذلك العصر.

والاستاذ كنون ينظر إلى الحياة السياسية في المغرب، في عصوره المختلفة،

نظرة واسعة الافق. فهو عندما يتحدث عن الموحدين يصورهم موحدين للمغرب العربي سياسياً، ومدافعين عن الإسلام ضد خصومه. فهو يقول عنهم «ان هذا الاستعراض السريع لما بذله رجال الدولة الموحدية من جهود جبارة في سبيل اقرار الوحدة المغربية والدفاع عن تراث الإسلام في اسبانيا لمما ينبىء عن عقيدة راسخة وايمان قوي بالمهمة السامية التي كان على المسؤولين في الدولة الجديدة أن يضطلعوا بها. فما كانت دعوة المهدي إلا دعوة توحيد وتجديد للمفاهيم الإسلامية التي تبعث روح القوة والعزم في نفوس المسلمين فينهضون للعمل بجد لحماية بيضتهم وحفظ كيانهم المادي والمعنوي. وتحت تأثير هذه الدعوة اندفع الموحدون لمقاومة القوات المسيحية الحليفة من ممالك قشتالة وليون ونبارة وأراغون التي تدفقت على بلاد الأندلس، معززة بعطف البابا وبالفرسان الصليبيين الذين جاءوا من مختلف بلاد أوروبا يريدون سحق المسلمين. كذلك كانت مملكة النورمان الناشئة في صقلية أوائل القرن السادس الهجري قد اقتحمت مدن الشاطىء الافريقي واستولت على ثغر المهدية أعظم حصن في هذا الشاطىء. فلولا قيام الدولة الموحدية التي استطاعت ان توحد الصفوف وتجمع الكلمة وتكوّن من أقطار افريقية الشمالية هذه القوة العتيدة التي حاربت في آن واحد في كلتا الجبهتين الاندلسية والافريقية لعصفت القوات النصرانية ببعض تلك البلاد أو بها جميعاً في ذلك الحين».

وإذ يعرض المؤلف علينا العلاقة بين الفقه والتصوف في أيام الموحدين يقول «وبما ان النظر الفقهي قد تطوّر فان التصوف لم يبقَ بعد منكراً كذي قبل، ولم يبقَ للفقهاء على أهله تلك الصولة. فظهر جماعة من الصوفية الكبار أصحاب النزعات الفلسفية وانبثت مذاهبهم المختلفة في الناس. ولا نقصد الأندلسيين منهم كابن عربي الخاتمي وابن سبعين والتشتري وغيرهم، فان في الصوفية المغاربة من كانوا ذوي آراء وأنظار غريبة فلسفية واجتماعية ورياضية، كأبي الحسن المسفر وأبي العباس السبتي وأبي محمد صالح الآسفي. والجدير بالذكر هو أن النهضة الموحدية أثرت على العقول في الأندلس والمغرب تأثيراً متشابهاً فأصبح الفكر الإسلامي في كلا القطرين محرراً من القيود التي كانت تجعله يثور لأقل بادرة من الخروج عن دائرة المسلمات والقواعد والرسوم المتعارفة».

ويورد الاستاذ كنون امثلة لاعداد لها تدل على احتفاء الموحدين بأهل العلم والمعرفة.

وها نحن نصل مع المؤلف إلى عصر بني مرين، ولنترك هنا السياسة والفقه والتصوف، ولنرَ ما يقوله عن العلوم الكونية في ذلك العصر: «إنما الذي لا مرية فيه أن معظم النشاط العلمي في هذا العصر كان منصرفاً إلى الرياضيات من حساب وجبر وهندسة وفلك، والنابغون فيها كانوا أكثر من غيرهم، وكان على رأسهم الإمام ابو

العباس بن البناء العددي ذلك الفلكي المشهور، والحاسب المعروف الذي بذّ أهل عصره ومن بعدهم بكثرة تحقيقه وطول باعه في العلوم الرياضية والإسلامية جمعاء، فحسب الآتين بعده، أن يقتصروا على كتبه وما خلّفه من تراث علمي طائل. فكان حاسباً عددياً لا ينافسه في هذا أحد كما أقرّ له فطاحل أهل العلم من معاصريه، وكان فلكياً بارعاً أتى بتحقيقات عديدة خالف بها كثيراً مما تقار عليه أهل الفن قبله. ولا ريب فانه كان مفكراً جباراً لا يؤمن الا بما يهديه اليه فكره بعد البحث الدقيق، والاستنتاج الصحيح. وقد خلّف أكثر من مائة كتاب كلها مثال التحرير والاتقان، وشهد ابن خلدون لكتبه الحسابية بالجودة، وبها كانت الدراسة في عصر ابن خلدون».

على ان مشاركة المرينيين الأدبية جعلت البلد وسطاً أدبياً ممتازاً لم يجاره عصر آخر. وها نحن أولاً ننقل لك، ايها القارىء العزيز، عبارة المؤلف نفسها حيث يقول: «وفوق ذلك فان الوسط الأدبي في المغرب، لم يبلغ من الرقي في عصر من العصور ما بلغ في هذا العصر، فقد اشترك في تكوينه جميع الطبقات من الملوك فمن دونهم إلى السوقة. أما الملوك فقد علمت أن أكثر سلاطين بني مرين كانوا من أهل العلم والمعرفة والمشاركة في فنون الأدب، وبالطبع فان وزراءهم وحجابهم وقوادهم فضلاً عن كتّابهم وقضاتهم كانوا كذلك، اذ يستحيل أن يقرب بساط الملوك، اذا كانوا ملوكاً بمعنى الكلمة، غير أهل الكفاآت النادرة من أرباب المعارف المتنوعة. وكذلك كنت لا تجد في منصب من مناصب الدولة الا رجلاً كفوءاً لا يؤتى من قصور، ولا يعاب من تقصير، حتى ذوو البيوتات الذين كانوا يتوارثون الرياسة في هذا العصر كبني العزفي وعبد المهيمن وأبي مدين والمكودي والقبائلي».

«والحاصل أن في هذا العصر بلغ الأدب المغربي كماله، فتخلص من سائر التأثيرات الأجنبية عن النفس المغربية، وشق لنفسه طريقاً نحو الغاية المقصودة، وهي سد حاجة تلك النفس الظامئة إلى حياة أدبية حرّة تتمثل فيها عواطفها ومشاعرها وسجاياها ومزاياها مصورة بصورة طبق الأصل لا رياء ولا تصنع ولا ادعاء ولا تقليد، فبلغ تلك الغاية وأوفى عليها بمزيد التفنن والابداع، ولا سيما في الشعر الذي حمل الطابع المغربي وحده منذ هذا العصر، فتجد الحقيقة فيه تسبق الخيال، والطبع يغلب الصنع والقصد إلى الوضوح أكثر من التعمق، والرقة والجزالة والسهولة في غير ضعف ولا غرابة ولا فسولة ولا ننسَ وصف الشاعر ابن زمرك لطريقة أدباء المغرب بأنها عربية، وهو الذي نقلناه في الكلام على الحياة الأدبية في العصر السابق، ويكفي ان في هذا العصر نبغ ذلك الشاعر الذي يحق أن يقال عنه، أنه شاعر المغرب الأكبر، ونعني به مالك بن المرحل الذي طبقت شهرته العالم العربي على رغم ما مني به أدباء المغرب من خمول الذكر، والذي لم يسع ابن خلدون الا أن يعترف بشاعريته

على ما علم من تحفظه الشديد. ولكن يا أسفي لضياع شعر هذا النابغة الفذّ وغيره من شعراء هذا العهد».

ويستمر الأستاذ كنون في سيره مرافقاً الدولة السعدية. ثم الدولة الشريفة العلوية.

على اننا نود ان نبدي عتباً رفيقاً على بعض ما جاء في كتاب الأستاذ كنون من تحامل على الأندلسيين (الجزء الأول ص ١٧٥ و١٨١). فالوضع الذي كانت تعانيه تلك البلاد والهجوم العنيف الذي كانت تتعرض له جعلا موقف سكانها وبعض حكامها يختلف عن موقف جماعة موحَّدة موحِّدة تندفع بكل قوتها ولاتخشى هجوماً خلفيًا. أما حماسة الأستاذ المؤلف للمغرب فلا نلومه عليها، فبلد فيه هذا الخصب وهذه المشاركة في مجالي المعرفة والعلم والأدب حري بأن يتحمس له ابناؤه. ونحن نضم صوتنا إلى صوت الأستاذ وان كانت صلتنا بالمغرب لا تعدو صلة زيارة وصداقات.

وكم كنا نحب ان ننقل إلى القراء كثيراً من هذه المختارات اللطيفة التي جمعها المؤلف من مظانها واقتنصها من مرابضها. ولكن المجال لا يتسع لذلك، فنكتفي بقطعة من النثر ومقطوعة من الشعر لعلهما ان تكونا فاتحة لقراءة الكتاب بكامله.

خطبة للمهدي بن تومرت مؤسس دولة الموحدين. قال: «ان الله سبحانه وله الحمد منَّ عليكم ايتها الطائفة بتأييده وخصكم من بين أهل العصر بحقيقة توحيده وقيض لكم من ألفاكم ضلالاً لا تهتدون، وعمياً لا تبصرون، لا تعرفون معروفاً ولا تنكرون منكراً قد تفشت فيكم البدع واستهوتكم الاباطيل وزين لكم الشيطان أضاليل وترهات أُنزه لساني عن النطق بها وأربأ بلفظي عن ذكرها فهداكم الله به بعد الضلالة وبّصركم بعد العمى، وجمعكم بعد الفرقة وأعزكم بعد الذلة ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين وسيورثكم أرضهم وديارهم. ذلك بما كسبته أيديهم وأضمرته قلوبهم «وما ربك بظلام للعبيد» فجددوا لله سبحانه خالص نياتكم وأروه من الشكر قولاً وفعلاً ما يزكي به سعيكم ويتقبل اعمالكم وينشر امركم. واحذروا الفرقة واختلاف الكلمة وشتات الآراء، وكونوا يداً واحدة على عدوكم، فإنكم ان فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرعوا إلى طاعتكم وكثر أتباعكم وأظهر الله الحق على ايديكم، وإلا تفعلوا شملكم الذل وعمكم الصغار واحتقرتكم العامة فتخطفتكم الخاصة».

أما المقطوعة الشعرية فهي ابيات من قصيدة لمنديل أجروم يصف الطبيعة خارج باب الفتوح بفاس. يقول:

أيها العارفون قدر الصبوح ... جددوا عهدنا بباب الفتوح
جددوا ثَمّ أنسنا ثم جددوا ... نسرح الطرف في مجال فسيح
حيث شابت مفارق اللوز نوراً ... وتساقطن كاللجين الصريح
وبدا منه كل ما احمر يحكي ... شفقاً مزقته أيدي الرّيح

وكأن الذي تساقط منه نقط لحن من دم مسفوح

ثم حطوا رحالكم فوق نهر كلّ في وصفه لسان المديح

فوق حافاته حدائق خضر ليس عنها لعاشق من نزوح

وكأن الطيور فيها قيان هتفت بين أعجم وفصيح

وهي تدعوكم إلى قبة الجو زهلموا إلى مكان مليح

فيه ما تشتهون من كل نور مغلق في الكمام أو مفتوح

وغصون تهيج رقصاً اذا ما سمعت صوت كل طير صدوح

فأجيبوا دعاءها أيها الشَّرْبُ وخلوا مقال كل نصيح

واجنحوا للمجون فهو جدير وخليق من مثلكم بالجنوح

الورغي الشاعر

تأليف: محمد الحبيب ابن الخوجة

كان تأسيس الشركة القومية للنشر والتوزيع في تونس في العام الماضي حدثاً كبيراً. فالقطر الشقيق كان بحاجة إلى دار كبيرة للنشر تقوم على طبع نتاج الأدباء والمؤلفين وتوزيع هذه الآثار في ديار العرب. وقد بدأت هذه الكتب تصل الينا وإلى غيرنا بشكل يبشر بالخير الذي أملناه يوم اجتمعنا إلى القائمين على شؤون الشركة القومية في تونس في الصيف الماضي. وقد قدمنا من قبل لقراء العالم «برق الليل»، وها نحن اليوم نقدم لهم الورغي، من سلسلة ادباء المغرب العربي، وهي سلسلة يشرف عليهم علم من أعلام تونس هو الشيخ محمد الفاضل بن عاشور عميد كلية الشريعة التونسية.

والورغي، الذي هو موضوع هذه الرسالة، عاش في تونس في القرن الثاني عشر للهجرة (الثامن عشر للميلاد)، وهو قرن عرف القطر في أوله اضطراباً انتهى بانتقال الأمر من المراديين إلى الأسرة الحسينية، ثم خصاماً بين حسين بن علي وابن اخيه علي. لكن انتهى الأمر إلى شيء كثير من الاستقرار افادت منه البلاد.

ومع اننا لا نعرف متى ولد عبدالله الورغي محمد بن أحمد الورغي، فمن الواضح، على ما أظهره ابن الخوجة، مؤلف هذه الرسالة، ان الرجل ظهر نجمه في بلاط علي باشا، وفيه نظم أكثر شعره.

وليس المهم أن أوضح لنا المؤلف حياة الورغي وجمع لنا قسطاً وافراً من شعره، ولكن المؤلف صنع أكثر من هذا، فقد عقد ثلاثة فصول تحدث فيها عن تونس في القرن الذي عاش فيه الورغي مبيناً الوضع السياسي (ص ١١ ـ ٢٨) والوضع الاجتماعي والثقافي (ص ٢٨ ـ ٣٥). وقد نقل ابن الخوجة عن حمودة بن عبد العزيز في كتاب التاريخ الباشي (وهو مخطوط بعد) وصفاً للتدريس في الزيتونة حيث تلقى الورغي العلم، جاء فيه قوله: «ليس الأزهر اليوم بأعمر بمجالس الدروس من جامع الزيتونة ولا علماؤه في تحقيق المسائل وحل مشكلاتها واستجلاء عويصات الشروح والحواشي واستخراج نكاتها كعلماء تونس. وذلك ان اكثر توجه الطلبة بالقاهرة إلى تحصيل ما يقرره الشيخ ويقوله، فتراهم مثابرين على كتابة ما يلفظ به ويتخطفونه من فيه ويقيدونه وهم أحذق الناس بذلك واسرعهم فيه فيشغلهم ذلك عن البحث وتدقيق النظر. وأما أهل فاس والمغرب الأقصى فأكثر عنايتهم بالحفظ، فحفظهم ابلغ من

حفظ سواهم لشدة عنايتهم به وظنهم انه المقصود من الملكة العلمية فاذا فاوض أحدهم أو ناظر تجد ملكة تصرفه قاصرة في الأكثر».

والعصر الذي عاش فيه الورغي لم يكن، من حيث الأدب والذوق الأدبي، عصراً خصباً؛ بل كان على العكس عصراً ضعف فيه الامران وتهلهل فيه الأسلوب في دنيا العرب شرقها وغربها. لكن الورغي خرج عن ذلك، بحيث يعتبره ابن الخوجة علم التجديد في المغرب. تصدر ديوان الإنشاء بتونس فأفاده بعلمه ومعرفته فأجاد كتابة الرسائل وأبدع في الشعر لأنه كان صاحب طبع جيد وملكة صناع. وقد حاكى في شعره القدامى والمولدين فأحكم التفصيل واعتنى بالبديع ولم ترهقه القوافي لتمرسه في اللغة. وشعره فيه المديح الكثير، فهو شاعر الأمير، والأمير ينتصر فلا بد من تهنئة.

ولعلنا لا نظلم الورغي الشاعر ان نحن اقتصرنا على مقطوعة واحدة نختارها من شعره. قال من قصيدة لمناسبة انتصار الباشا علي بن حسين على أهل جبل عمدون:

حاجة المدح لحلو الغزل	حاجة الصب لأولى القبل
ما على مانعها لو سمحت	نفسه يوماً بها من ثقل
منية ماطلني الدهر بها	مطل عيلان برجع الطلل
أكتفي منها بوعد كاذب	أشغل البال به عن عذلي
يا عذولي لا يضع وقتك في	ما تعاني انني في شغل
ان أبت نفسك من نصحي لها	فانا ذا عاذل في العذل
واذا لم تذق المعنى فلا	تنفرد بالرأي فيه وسل
ان عقلاً واحداً لا ينثني	لعقول الكل بادي الخبل
لا تقل لي ملغزاً قد جمعت	كل أوصاف النهى في رجل
هل ترى بين البرايا ثانياً	لعلي بن حسين بن علي؟

أدب المغاربة والأندلسيين

تأليف: محمد رضا الشبيبي

هذا الكتاب هو عرض لطيف دقيق لجماعة من أهل الأدب من المغاربة والاندلسيين انتزعه الأستاذ الشبيبي من الخريدة وحلّل اجزاءه وعلق عليه.

و«خريدة القصر وجريدة أهل العصر» من تصنيف العماد الكاتب، وضعه أواخر القرن السادس للهجرة «وترجم فيه للشعراء والأدباء الذين عاشوا في العراق والشام ومصر والمغرب والأندلس وصقلية في تلك الفترة. وقد نشرت أو كادت الأقسام الخاصة بالعراق والشام ومصر، وظلت الأقسام التي تتناول المغرب والأندلس تنتظر من يعنى بها. لذلك اختار الأستاذ الشبيبي ان يعرفنا بها في هذه الدراسة. والذي رمى إليه المؤلف من تقديم هذا البحث هو التعريف بهذا المخطوط النادر وتوضيح أصول البحث التي عوّل عليها المؤلف في هذا الجزء من كتابه ونقل طرفاً من شعر المغاربة والأندلسيين للقراء. فقد استجاد الشبيبي هذا الشعر والأدب فاراد ان يشركنا في هذه الاستجادة وهذا السرور.

والذي يمكن استخلاصه من هذا الكتاب الجيد هو أمور حرية بأن يعنى بها مؤرخو الأدب والعاملون فيه.

فأول ذلك ان مؤلف «الخريدة» اعتمد في هذا الجزء من كتابه، أي في درسه لأدباء المغرب والاندلس، على «أصول مصرية بحتة أو مآخذ مغربية وأندلسية، بيد ان مصنفيها جاوروا في مصر أو لجأوا فيمن لجأ إلى الديار المصرية من أهل الأندلس وجزيرة صقلية». «وثاني هذه الأمور هو ان المشارقة، والعماد منهم، كانوا إلى الاحاطة والاستيعاب في مناهجهم، فكتبوا عن شعراء اقليم معين». ومن ذلك «ان أعلام الأدب من الأندلسيين وأهل المغرب... لاحظوا ولع الأندلسيين وفتنة أهل المغرب بأدب المشرق أكثر من التفاتهم إلى أدب ابناء جلدتهم».

ويحدثنا الشبيبي عن اسلوب العماد في جمع المعلومات فيقول: «للعماد الكاتب صاحب الخريدة طريقة لطيفة في تصنيفها ودأب عجيب في جمع مادتها لا نعرفه عن ابن بسام، فكان وهو مقيم بالعراق يتسقط مجريات مصر وأخبار الحركة الأدبية فيها مستنداً إلى رواية علماء أو أدباء عراقيين من أهل بغداد أو من أهل واسط أو غيرهما من الحواضر العراقية التي تقلد - أعني العماد - مناصب التدريس والعمل فيها أو زارها، فكان يلقى هؤلاء العلماء والأدباء أو يتحرى لقاءهم في الحواضر المذكورة أو

يتحدث عنهم أو عن شيوخهم يروي بواسطتهم أشعار الشعراء المصريين». ومن فصول قسم شعراء مصر من «الخريدة» فصل عنوانه: «جماعة كتبت ما نقل إليّ من شعرهم بالعراق»، وقد يستخدم هذه الطريقة وهو في العراق في رواية شعر شعراء الاندلس عن قوم من العراقيين أو من الطارئين على العراق من المغاربة والاندلسيين. هذا وإلى مركز العماد الكاتب ومناصبه التي تقلدها في العراق والشام ومصر مرد تمكنه من هذا الاسلوب الذي يتميز به تميزاً ظاهراً عن ابن بسام. ولا تخفى أيضاً مكانته من القاضي الفاضل فإنه كان قريباً منه كثير الاتصال به حضراً وسفراً، ولا يخلو اجتماعهما عن بحث أو مفاوضة أو كتابة أو مناقشة في شاعرية شاعر أو ترسل مترسل مما يدخل في منهجه في تأليف «الخريدة» وذيلها، وكثيراً ما يجد في مجلس القاضي زائراً يستفيد من مذكراته في ذلك على أنه كان يقضي جانباً من أوقاته بالجمع والكتابة ماشياً في الطريق أو واقفاً على باب مسجد أو جالساً في سوق».

ويبدو انه كان للقاضي الفاضل البيساني فضل على العماد في تصنيف الخريدة. فقد اعترف بذلك العماد اذ افرد القاضي الفاضل بترجمة استهل بها القسم الرابع من كتابه. ويقول الشبيبي في ذلك: «ولا نبالغ اذا قلنا ان القاضي الفاضل كان قسيم العماد في تأليف «الخريدة» وشريكه في ذلك، زوّد العماد بأصول بحثه من الكتب النادرة ووافاه بمادة غزيرة من محفوظاته وأحاديثه وانتفع بعلمه وتجاربه الكثيرة، فانه كان من أحفظ أهل عصره للشعر والأخبار والأنساب، وكانت له خبرة واسعة بأحوال شعراء عصره مشارقة ومغاربة بل كان ديوانه أو مجلسه لا يخلو من جماعة من هؤلاء. وما عدا ذلك فإنه اهدى للعماد كتباً نفيسة استعان بها على وضع كتاب الخريدة بجميع اقسامه كما تشهد بذلك ترجمة العماد لصاحبه القاضي الفاضل. وفي هذه الترجمة يقول العماد عن رئيسه المذكور: «أهدى إليّ تسع (كذا) مجلدات من الكتب النفيسة تشتمل على أشعار أهل العصر المغربيين وآدابهم، وهو يثني فيها على أعرابهم وأغرابهم».

ويتنقل بنا الشبيبي في كتابه معلقاً محللاً موضحاً مبيناً نواحي لطيفة طريفة فريدة في هذا الجزء من الخريدة. ومن تعليقاته المفيدة قوله عن شعر المغاربة توسع العماد الكاتب في ترجمته لابن اللبانة شاعر المعتمد بن عباد وأكثر من إيراد أشعاره في الخريدة على وجه يستفاد منه أن هذا الشاعر الأندلسي المغربي ملك أعجاب صاحب الخريدة الذي كان سيىء الظن بشعر المغاربة وأنه شعر تعوزه السلاسة ـ على حد تعبيره ـ فلما قرأ شعر هذا الشاعر غيّر رأيه. فاذا هو يرى شعر ابن عمار أصفى من العسل وأحلى من الضرَب وانفى للكرب».

وهكذا فانك تنتقل مع المؤلف في كتابه وكأنك تجني ثمراً اينع ودنا قطافه. يضاف إلى ذلك ان الشبيبي يختار نماذج من الشعر والنثر مستجادة. ومنها هذه

المقطوعة في وصف النار، وهي لابن سارة:

لابنة الـزند في الكونـين جـمـر كـالدراريّ فـي دجى الظلمـاء
خـبـروني عنهـا ولا تـكذبوني ألديهـا صناعـة الكيـميـاء
سكبت فـحـمـهـا صـفـائح تبـر رصـعـتـهـا بالفـضـة البـيـضـاء
سـفـرت في عـشـائهـا فـأرتنا حـاجب الشـمس طالعـاً في العـشـاء
لو ترانا من حـولهـا قلت شَـرْبٌ يتـعـاطون أكـؤس الصـهـبـاء

الأدب المغربي الحديث

بماذا يفكر الأديب المغربي؟ ما هي المشاكل التي تثير كوامنه؟ ما هي القضايا التي تشغله؟ وكيف يعبر عن أحاسيسه وهواجسه وخواطره؟ ترى ألا يزال يقف باكياً بين الدخول وحومل أم أنه انطلق مع القرن العشرين، مع مسؤولية الاستقلال، مع بناء الوطن؟ وهذا الأدب الذي ينتج هناك ـ هل هو رومنطيقي أم واقعي؟ ما هي اتجاهاته؟

هذه اسئلة تخطر في بال الكثيرين من القراء عندما يمر اسم المغرب أمامهم (كما تخطر في بالهم عندما يمر اسم الجزائر أو تونس أو ليبيا أيضاً). وها نحن نحاول وضع بعض الأجوبة أمامهم.

خرجت علينا المطبعة العربية مؤخراً بكتاب اسمه «احاديث عن الأدب المغربي الحديث» للاستاذ عبدالله كنون، وهو الذي أريد أن أعرضه على القراء اليوم. والاستاذ كنون مؤرخ لادب بلاده واصحاب القلم فيها. فقد وضع النبوغ العربي في الأدب المغربي، ووضع ذكريات رجال المغرب، فضلاً عن عشرات المقالات التي تناول فيها حقباً منسية من تاريخ تلك الديار الأدبي فأزال عنها الغبار وأخرجها لنا نقية سائغة طعماً وأسلوباً. وكتابه الأخير هو سلسلة من المحاضرات ألقاها المؤلف في معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة في هذا العام.

يعالج المؤلف في هذا البحث القيّم اربع قضايا رئيسية وهي: (١) أسباب تأخر النهضة في المغرب عنها في اقطار المشرق العربي (٢) تباشير الفجر الأول في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع العشرين والعوامل التي ادت إلى ذلك والآثار التي ترتبت على ظهور تباشير الفجر. (٣) فجر النهضة الذي عرفه المغرب في العقد الثاني من القرن العشرين. (٤) الانطلاقة الجديدة التي بدأت في أوائل الثلاثينات ولا تزال تنطلق.

وقد رتبنا هذه القضايا ترتيباً تاريخياً، متبعين في ذلك النهج الذي سار عليه المؤلف. وقد يزور البعض من هذا المنهج التاريخي وهم يحبذون معالجة قضايا الأدب على أساس فنونه. ونحن مع احترامنا لوجهة نظر هولاء نرى أن الفنون الأدبية نفسها لا يمكن ان تفهم الا في اطار تطورها التاريخي. ولعل اختلاط القيم الأدبية عند شبابنا اليوم يعود إلى ان مدرسي الادب تخلوا عن تطور الزمن وانقضوا على تدريس الفنون يشبعونه لفاً ودوراناً متنقلين من فن إلى فنن، الأمر الذي قديطرب موقتاً ولكن لا ينشىء ذوقاً ولا يحدد قيماً ولا يضع مقياساً. وكل ما فيه انه يضيع وقتاً ويقتل نبتاً.

ولعله من حق المؤلف علينا ان نوضح نهجه الخاص في هذه الدراسة التي قدمها لنا. ولنوضح نهجه بكلماته عينها. قال الاستاذ كنون: «ها هي ذي الأحاديث... عن الأدب المغربي الحديث، لم آلُ فيها جهداً ان أوضح العوامل التي أثرت في تكوين هذا الأدب والاتجاهات الجديدة التي اتخذها. ولم أحد قيد شعرة عن نهج الانصاف فيما حكمت أو علقت فلا تبجح ولا دعوى يكذبهما الواقع، ولا بخس ولا اجحاف بحق من الحقوق. وقد آثرت ان ادرس الأدب ـ او اقدمه على الاصح ـ في آثار أعلامه، بدلاً من ان ادرس الأدباء في آثارهم، ولذلك فأنا لم اذكر من الأسماء إلا ما اقتضاه الموضوع أو تطلبه الشاهد. ولو ذهبت اقدم الادباء بشخصياتهم لما وفيت بواحد منهم، ولطال الأمر جداً من غير ان يمكنني الإلمام الا بعدد محدود منهم».

اما وقد عرفنا المؤلف ونهجه، فلنلقِ نظرة عجلى على الكتاب نفسه من حيث اطاره ومحتوياته، قبل أن ننتقل إلى المحتوى نفسه فنضعه بين ايدي القراء.

في الكتاب مقدمة قصيرة يشير فيها المؤلف إلى ان الأدب المغربي متفرق في بطون الأوراق وأنه لم ينل بعد حظه من الدرس. ومعنى هذا ان الاستاذ كنون هو رائد في هذه الحلبة. والبحث الأول في الكتاب يتناول العزلة التي ضربت على المغرب فأقعدته عن اللحاق بالمشرق العربي. ويلي ذلك بحث عن فجر النهضة والعوامل التي أدت إلى ذلك، معرجاً على الأدب النثري الذي عبر به القوم عن هذا الفجر، ويتبع المؤلف ذلك بحديث مستفاض عن الشعر.

وكأني بالمؤلف يعتبر هذه الأمور مقدمات، لذلك فهو يخص الجيل الجديد بالقسم الأكبر من الكتاب. والجيل الجديد في رأي الاستاذ كنون هو الجيل الذي جاء في اعقاب ١٩٣٠ والذي لا تزال موجته تمتد وتتسع. وفي هذا القسم من الكتاب يتابع المؤلف العوامل الفعّالة التي احدثت هذه الموجة الجديدة كالقصة والاقصوصة والمسرحية، كما يعنى بالاساليب الشعرية الجديدة، وما تضمنه الشعر من جديد الرأي أو حديث المنحى.

ومما يسر له القارىء ان الكتاب يكثر فيه النموذج. فالاستاذ كنون لا يكتفي بالحكم على الأثر الأدبي أو الاشارة إليه فحسب، بل هو يقدم للقارىء نماذج منه. وهذه خدمة جلى، اذ ليس ثمة مصادر تجمع هذه الآثار يمكن إحالة القارىء عليها.

يقرر المولف ان المغرب تأخر نصف قرن أو يزيد عن المشرق في أخذه بمقومات الحضارة الحديثة، ولذلك لا نجد تفاعلاً بين ذلك القطر الشقيق وبين أقطارنا هنا، أو بينه وبين أوروبة إلا في مطلع القرن العشرين. ويعزو المؤلف ذلك إلى العزلة التي وقع فيها المغرب في القرن التاسع عشر. فقد كان بعيداً عما يجري في الدولة العثمانية، وجاء احتلال فرنسة للجزائر (١٨٣٠) ثم لتونس (١٨٨١) يلقي حجاباً كثيفاً بين أقصى المغرب وبلاد المشرق. ويضيف الاستاذ كنون إلى ذلك ان السياسة

الاستعمارية التي اتبعها الغرب في الجزائر وفي تونس «جعلت المغرب يقدم الحذر في علاقاته به ويبتعد عن طريق اللقاء معه ما أمكن».

وهكذا فقد كان المغرب منعزلاً عن جيرانه في الغرب واصدقائه في الشرق. وصحيح ان الأحابيل الاستعمارية اخذت تحاك له، مما أضعف همته عن السير، ولكن نود ان نضيف إلى ان المغرب كان يعاني في القرن التاسع عشر فترة من فترات الفوضى والتجارب التي كان من شأنها ان تمتص عصارته وتقعد به عن اللحاق في مضمار العلم الحديث.

على انه من الواجب ان نذكر ان المغرب تعرف، مع ذلك، إلى بصيص من هذا النور، اذ وفد طلاب مغاربة إلى مصر في أيام الخديوي اسماعيل (منهم عبد السلام العلمي وأحمد شهبون) كما اجتاز البعض الآخر البحر إلى أوروبة، مثل محمد الجياص. ومما يجب ان يذكر حقاً ان دخلت المغرب اول مطبعة عربية أيام السلطان محمد الرابع، وعليها طبعت مجموعة من الكتب القديمة في فاس. وحري بالذكر انه في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ظهرت الصحف الأولى في المغرب. وفي هذا يقول المؤلف: «وأهم ما يلفت الانظار في نتاجها هو ظهور أول جريدة عربية تحمل اسم المغرب، وكان ذلك في طنجة سنة ١٣٠٧ هـ/١٨٨٩ وهي جريدة اسبوعية حرة أصدرها بعض اللبنانيين ولم تعمر طويلاً. ثم صدرت بعدها في طنجة أيضاً جريدة المغرب الأقصى سنة ١٣١٨ هـ/١٩٠٠ فجريدة السعادة سنة ١٣٢٣ هـ/١٩٠٥ فمجلة مصباح سنة ١٣٢٤ هـ/١٩٠٦ فجريدة لسان المغرب سنة ١٩٠٧/١٣٤٥ وكلها لصحفيين لبنانيين نزحوا إلى المغرب في هذا العهد، ولم يبقَ منها الا السعادة التي اصبحت فيما بعد لسان الحكومة المحلية».

هذه تباشير الفجر الأول كما يسميها المؤلف. ويجمل موقف أهل العلم إلى ذلك الوقت بقوله «ان الحياة الفكرية والأدبية بقيت على حالها من تمثل الماضي واحتذاء حذوه سواء في المادة أو القالب، في المعنى أو الأسلوب، المؤلفون يضعون تآليفهم على غرار الذين من قبلهم، والأدباء يصوغون أدبهم نفس الصياغة التي توارثوها عمن تقدمهم، والانتاج في الواقع كثير، والمطبعة تخرج من الآثار القديمة والجديدة في العلم والأدب ما يدل على نفاق سوق المعرفة، ولكن عنصر التجديد وروح الابتكار كانا يعوزان هذه الأعمال، فميزانها بالنسبة إلى النهضة الفكرية الحديثة ميزان خفيف، وان كانت في حد ذاتها ذات قيمة لا تنكر... نعم كان هناك مؤلفون وأدباء ولكن صلتهم بأهل العصور الخالية أقوى من صلتهم بأهل العصر الذي يعيشون فيه، فنتاجهم يعد من صميم النتاج القديم لا فرق بينه وبين ما وضع قبل ثلاثة قرون، وان كان منه ما وضع في أواخر العهد الذي نحن بصدده، ولا نقول إنه لا يمثل عهده هذا، فالواقع أنه أصدق ممثل له، لأنه يوقفنا على مناحي التفكير ومناهج التثقيف التي كانت سائدة اذ

ذاك، وهي كما نعلم منحصرة في ضروب المعارف الإسلامية وعلوم العربية وآثارها من فلسفة وحساب وفلك، أي ما كان يدرس في جامعة القرويين بفاس وفروعها المنتشرة في أنحاء المغرب، ولا زائد، من غير أن تمسه يد اصلاح أو تدخل عليه مادة تلقيح».

ويقدم لنا الأستاذ كنون نماذج على ما كتب في تلك الفترة (ص ١٨ ـ ٢٠). وينتقل بعد ذلك إلى الأدباء ليقول عنهم «فلا ننتظر أن نجد عند الأدباء غير ما وجدناه عند العلماء من تغلغل روح المحافظة على الماضي والاتباع لآثار القدماء. فالأعمال الأدبية تتمثل في الرسالة والمقامة والخطبة والتأليف بطريقة الكتابة الفنية نثراً، وفي موضوعات الشعر العربي المعروفة نظماً، والمعاني والأفكار هي ما يوحي به التراث الأدبي المشاع بين العرب كلهم، لأنه الرصيد الذي ينفق منه الجميع، فلا عنصر جديد في الشكل ولا في المضمون، وان كان هناك من ميزة تسجل لأدب هذا العهد فهي أنه أدب متين الأسلوب قوي التعبير، بريء من التكلف، بعيد عن الضعف الذي يشيع في عهود الانحطاط، لأن العهد، وان كان كذلك بالقياس إلى النهضة الحديثة، فهو في الثقافة العربية لم يكن متخلفاً ولا قاصراً. ولكن هذا الأدب بكل اعتبار لا يعدو أن يكون صفحة متممة لتاريخ الأدب المغربي القديم».

٣

يعتبر الأستاذ كنون العقد الثاني من القرن العشرين فجر النهضة. والمؤلف المغرم بالتدقيق والتحليل يضع أمامنا العوامل التي اعتبرها مسؤولة عن هذا الفجر الذي قوي وعنف واتسع حتى وصل إلى ما هو عليه الآن. أما العوامل فهي انتشار التعليم الحديث، والاصلاح الديني، والنهضة الشرقية التي وصلت آثارها إلى المغرب، والحماية. فالتعليم الحديث، على ما كانت تفرض عليه من قيود وحدود، فتح أمام عدد من المغاربة، ولو انه قليل، ميادين الاتصال بالمعرفة. أما القيود فهي قلة المدارس التي فتحتها حكومة الحماية، والحيلولة دون المدارس الوطنية وحرية التصرف، وفَرْنَسة التعليم بحيث تصبح فائدته محصورة رقعة وامتداداً، ومنع الشباب الذهاب إلى أوروبة للتعليم العالي. ومع ذلك فقد تسربت المعرفة كما قلنا إلى رقاع وفئات أدت، على ضآلتها، إلى فتح جديد وتوسيع في الآفاق.

أما الاصلاح الديني فهو الذي تركز حول الدعوة السلفية التي حمل مشعلها أبو شعيب الدكالي «ذلك العالم المصلح الذي قيضه الله للمغرب في هذه الفترة، فحدد سند العلم، واقام للسلفية مناراً عالياً بما أوتي من التبحر في علوم الكتاب والسنة، وما كان له من الفصاحة والمعرفة بطرق الاقناع، فضلاً عن خبرته بأحوال العالم الإسلامي التي اكتسبها في جولاته بالمشرق، وكان يلي وزارة العدل فزاده الجاه هيبة في النفوس، وتأثيراً على الخاص والعام، ووجدت هذه الدعوة قبولاً لدى الشباب

المتعلم، فناصرها، وتطور أمرها عنده إلى الوقوف في وجه أصحاب الطرق الصوفية، ولا سيما المزيفون منهم، ونشأت معركة بين الطرفين كانت تجد لها متنفساً في صحافة تونس والجزائر، إذ كانت الصحافة بالمغرب قليلة وغير مكفولة الحرية».

والأستاذ كنون معجب بالنهضة الشرقية، وما أسدته للعالم العربي والعالم الإسلامي من أياد بيض. فلما أتيح لآراء المصلحين ونفثات الكتاب والشعراء، من الأستاذ الإمام محمد عبده إلى الزهاوي والرصافي، إلى الأدب المهجري، أن تصل إلى القارىء المغربي، أثارت في نفسه نشوة، وحفزته إلى العمل الجدي. فقد كانت هذه كلها مدرسة تخرج فيها الجيل الأول من رجال العلم والأدب والوطنية الصحيحة الذين بثوا افكارهم في النشء الجديد، ومهدوا السبيل للنهضة المغربية الحديثة فكانوا صلة الوصل بين الماضي الغابر والحاضر الزاهر». وخير ما في هذه الآثار هي انها نقلت إلى أهل البلاد بلغتهم، فبلغتهم صافية خالصة صادقة، فأفعمت قلوبهم وملأت نفوسهم.

ولسنا بحاجة إلى تفصيل أثر الحماية وفرضها على المغرب في نفوس المغاربة. فهي التي حفزتهم إلى المقاومة، وأدت إلى تنظيم هذه المقاومة تنظيماً قوياً عنيفاً، ترك آثاره في الشاعر والكاتب والقاص والخطيب وكاتب المقال، وعن طريق هؤلاء انتقلت الآراء إلى القارىء ـ إلى المواطن.

واذا نحن أضفنا إلى ذلك اصلاح القرويين، واتساع حركة العمران، والتطور الاقتصادي، أدركنا أن المغرب أخذ في الانتقال من المحافظة إلى التحرر. أو لعلنا لا نعدو الحقيقة اذا قلنا من الجمود إلى التحرر. ويذكرنا المؤلف بأن هذه الفترة عرفت في المغرب فئة من الناس كانوا مزدوجي الثقافة ـ يغرفون من بحر الثقافة الأوروبية، ويعبون من الثقافة العربية الإسلامية.

وكانت وسائل التعبير في فجر النهضة هي التي عرفت من قبل ـ المقالة والقصيدة، لكن أضيف اليها القصة والأقصوصة. ويحدد المؤلف دور الشعر في أيام فجر النهضة بقوله: «ولا نقول إن الشعر نهض نهضة حقيقية ونحن نرى ما بلغه في الشرق العربي من التفنن والابداع، ولكننا نقول إنه تحول من المجرى الذي كان يصب فيه، فلم يبقَ قاصراً من جهة المعنى على أغراض القدماء بل أضاف إليها أغراضاً حديثة، ولا من جهة المبنى على القوالب الموروثة، اذ تخفف من ثقلها كثيراً، من غير أن يثور على الأوضاع التقليدية للشعر العربي أو يأتي ببدع في مأثوراته وهو في ذلك يتأثر خطا الشعر في الشرق العربي الذي كان ما يزال محافظاً على العمود الشعري وإن بلغ غاية النمو والازدهار. وهذا يعني أنه سار في الطريق العام للنهضة الحديثة التي كانت تغزو بلاد العرب الواحدة تلو الأخرى».

واخيراً ننتقل إلى الجيل الجديد.

يرى المؤلف ان الجيل الجديد بدأ حركته سنة ١٩٣٠ بشكل خاص. ففي تلك السنة أصدرت حكومة الحماية في المغرب الظهير البربري الذي كان ظاهره الحفاظ على التنظيمات القضائية التي ألفها البربر، لكن باطنه كان ينطوي على ما هو أبعد من ذلك بكثير. هذا الظهير كان يؤدي تطبيقه إلى قسمة المغرب إلى قسمين والتفرقة بين الجماعات المختلفة من شعب المغرب. كان يرمي إلى فصل الفئات البربرية عن جسم القضاء الشرعي، بحيث تكون لها محاكمها الخاصة ولو انها تدين بالاسلام. وكان للظهير مرمى أبعد من ذلك بعد وهو زعزعة مركز السلطان في المغرب، بحيث يقتصر الولاء له على فئة دون أخرى. هذه التفرقة المضمرة رفضها المغرب. رفضتها الفئات المختلفة التي رأت فيها محاولة للقضاء على الوطنية المغربية.

هذا التحدي الفرنسي كان من آثاره بلورة الوضع الوطني والحركة الوطنية وتعميقها وتغذيتها. ومن ثم اندفع التعبير عنها اندفاعاً كبيراً. فإذا أضفنا ذلك إلى ما ذكرناه من قبل، أدركنا مدى الاندفاعة التي حققها الأديب والكاتب والقاضي والشاعر في المغرب بسبب هذه الانتفاضة. وقد جارى الزعماء السياسيون رجال القلم في هذه الخطوة، فأصبحت مطاليبهم السياسية ترمي إلى الاستقلال، وان كان هذا قد جاء بعد شيء من الوقت. وأدرك الناس، أكثر من ذي قبل، فائدة العلم، فأقبلوا عليه اقبال الجياع، ورافق ذلك وعي بوجوب الاهتمام بجماع مشاكل الحياة، ووسائل التعبير، ونشر الأفكار على اختلاف أنواعها. فنجد أن المدرسة والجريدة أخذتا تهيئان جيلاً جديداً من الشباب من حملة الاقلام والقادة، وهم الذين أصبحوا عماد الحياة الأدبية والفكرية في المغرب. ونحن اذا ذكرنا الصحافة فاننا لا نريد أن نقتصر على الصحافة السياسية، بل من الواجب علينا أن نشير إلى الصحف الأدبية مثل السلام والمغرب الجديد والثقافة المغربية ورسالة المغرب. وعنيت هذه المجلات وغيرها بنشر الآثار الأدبية دون التقيد بصيغة معينة أو المحافظة على اسلوب خاص. وقامت المطبعة بحصتها من العمل، وان كان قليلاً في أول الأمر، ثم اخذ يتزايد شيئاً فشيئاً.

هذه الآثار التي تراكمت في العقود الثلاثة الأخيرة كثيرة متنوعة. وثمة أمور ثلاثة حرية بأن تؤخذ بعين الاعتبار. اما أولها فهو غلبة السياسة على هذه الآثار، وإن كانت قد تناولت شتى الموضوعات. والأمر الثاني هو ان هذه الآثار لا تدل بعد على اتجاه أو اتجاهات معينة يستطيع مؤرخ الأدب أن يشير إليها بوضوح، وإن كان ثمة افراد معينون يمكن القول بأنهم أوضح من غيرهم سبيلاً. وثالث هذه الأمور هو أن الشعر لا يزال اسلوب التعبير المفضل في المغرب. ومع ان الشعر لا يزال يحافظ على عموده في الغالب، فقد ظهر في المغرب من قصم ظهره، وفك عراه، ولكن عريه أقل بعداً هناك منه في بلادنا.

ولنعد إلى الاستاذ كنون فنرافقه بعض الشيء في هذه الأمور الثلاثة. فهو يقول

عن هذه الآثار الأدبية: «وبتصفح هذه الآثار وتصنيفها نجد أن الحصاد الأدبي لهذا الجيل، أصبح من الغنى والتنوع بحيث يمكن القول إنه استتم الأولية للأدب الحي. وانه شق الطريق للحاق بقافلة البعث الأدبي في العالم العربي. ففي النثر زيادة على نمو المقالة السياسية والاجتماعية والأدبية ظهرت البحوث المنوعة في الفلسفة والفن والنقد، وبلغت الخطابة السياسية أوج الكمال، وبدأت المحاولات الناجحة في كتابة الرواية والتمثيلية والأقصوصة والقصة، وذلك فضلاً عن نشاط حركة التأليف في الموضوعات السياسية والتاريخية والعلمية. وفي الشعر استفحل النظم في موضوع الوطنية تبعاً لاستفحال حركتها، فكاد الشعر كله يكون ثورة على الاستعمار ودعوة إلى مقاومة النفوذ الأجنبي، وتذكير الشعب بمجده، وتاريخه العظيمين. وتحول الشعر العاطفي من تفاهة العبارات الجوفاء إلى تجارب ذاتية وانسانية صادقة. وجال الشعراء في ميدان الطبيعة، وحلَّقوا في مجال الفكر، وظهر الشعر التمثيلي في مسرحيات صغيرة تعتبر كنواة لهذا اللون الجديد في الشعر العربي».

ويرى المؤلف ان الحكم على الأعمال الأدبية من حيث تبيان اتجاهاتها أو نزعاتها لا يزال سابقاً لأوانه. ولعل عبارته نفسها أوفى بنقل عبارته إلى القارىء وهي «ولعله مما يكون سابقاً لأوانه الحكم على هذه الأعمال والقول بأن أصحابها ينتمون لهذا الاتجاه أو ذاك. فالحقيقة أن الاتجاهات متعددة وإن كانت النزعة الواقعية أكثر ما تكون بروزاً من بينها. ولكن ما دامت قواعد الفن كما قلنا لم ترسِ على أساس بمعنى أن المحاولات الجادة لأدبائنا في هذا الميدان، ما زالت تتعثر بمختلف العوائق، فإن من المستحسن تأخير الحكم حتى تتوفر دلائله، والاكتفاء بالإشارة إلى ما يكون في العمل من نزعة ظاهرة أو خفية ربما لا تكون أصيلة في نفس الأديب، وإنما أوحت بها طبيعة العمل، ولهذا لا نجازف بتقديم نتائج مقدماتها غير صحيحة».

هذه الآثار المتنوعة والأعمال الأدبية المختلفة، أبرزها أصحابها في أشكال لم يكن الأدب المغربي يعرفها من قبل، كما ان المنتجين جودوا الوسائل المعروفة قبلاً. فالمسرحية جديدة، والشعر المسرحي بعد أحدث. والمقالة تناولت كل شيء وتخلت عن الرومنطيقية البحتة، والقصة والأقصوصة، على انهما حديثتا العهد، فقد قطعتا خطوة لا يستهان بها. اما الشعر فيظل صاحب المقام الأول، وهو الذي تهتز به المشاعر، وتصل به الدعوة إلى النفوس وتنفذ إلى القلوب.

«وقامت النهضة الحديثة فهزت الشعر هزاً عنيفاً تناول بنيانه من القاعدة. فكان الشعر الحر والشعر المنثور فضلاً عن اندفاع الشعراء في العمل بمنتهى الحرية طبق المخطط الذي وضعه الأندلسيون من نظم قصائدهم على أكثر من بحر وبمختلف القوافي. هذا في القالب، وفي المحتوى ظهرت فنون من القول وصور من البيان لم يكن للشعر العربي بها عهد كالشعر القصصي والتمثيلي، وامتد النفس في وصف

الطبيعة والتعبير عن أدق المشاعر الإنسانية والعواطف القلبية، واختفت الموضوعات الشعرية القديمة أو كادت، وما بقي منها لاقتضاء المناسبات الاجتماعية بقاءه، صار وسيلة لبث الافكار الاصلاحية وبعث الروح الوطنية. ومن ثم وجد هذا الباب الجديد من الشعر القومي أو الوطني الذي خلف باب الحماسة في الشعر العربي القديم، والذي قلنا عنه سابقاً أنه طغى على جميع الأغراض الشعرية في هذا الجيل حتى كاد يكون هو الشعر كله».

والكتاب، كما أسلفنا، غني بالشواهد الطويلة. فثمة مقالات بكاملها، وأقصوصات بتمها، وقصائد برمتها. هذا إلى مختارات من قصة أو مسرحية أو مسرحية شعرية. وكنا نحب ان ننقل إلى القراء شيئاً كثيراً من هذا، ولكننا نقتصر على قليل من الشعر. فمن قصيدة لعبد السلام العلوي:

ثغـــــرك البـــــاسم دنيــــا	مـن نـظـام وانـســـــجــــام
تـلجــــأ الـنفـس إليــــــه	فـي احــتـــــدام والتــــحــــام
طـالمــــا ضـل خـــيـــــالي	بـيـن أمـــــــــواج الـظـلام
فــــانحنى نحـــوي بعطف	وهـيــــــام وابتــــــســـــام
وســــمــــا بالنفس حــتى	حلقت فـــوق الغـــمـــــام
لفظك الســـاحـــر لحن	رددتـــه الـــكـــائـــنــــات
جل عن شـــعــــر ونثـــر	وســــمـــا فـــوق اللغــــات
ليس يـحـكـيـــــه هـزار	شـــــاديـاً فـي الـربـوات
هو لحن عـــبـــقـــري	ضـم أحـلـى الـذكـــــريـات
مـــوســـيـــقى الخلد تجلت	فـــأتت بالمـعـــجـــزات
أنـــت روح مـــن جـــنــــان	ســــاقـــهـــا حب طهـــور
أنت لو شـــئت لـغـنـت	بـقـــــوافـيّ الـدهـور
أنت لو شــــئت لفــــاضت	عـــبـــراتي كـــالبـــحـــور
أنت لو شـــــئت لعــــادت	لـيَ أيـام الـســــــــرور
أنـــت يـا أنـت ومـــــــا	أنت ســـوى مـــحض غــــرور

من الشعر القصصي الذي يعتبره الاستاذ كنون نموذجاً جيداً لما ظهر في المغرب «قصة كعب بن مالك» وهو أحد الصحابة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، وهي لعلال الفاسي. القصيدة نموذج لقصة من تاريخ الاسلام موضوعة بأسلوب قوي الحبكة متين الصيغة تقليدي النهج. ونجتزىء بمقطوعة واحدة تصور ما دار في نفس كعب بن مالك إذ عرف بعودة الرسول من تبوك:

جـــاءت الأنبـــاء أن المـــصطفى ... قـــد تولى قـــافـــلاً في المـــوكب
فـــــريا حـــــزني وافنت جلدي ... وخـــزات في الضـــمـــيـــر الذرب
مـــــا الذي أفـــــعل يا رب وهل ... ينفع اليـــــوم حـــــديث الكذب
كم أناس ســـيـــحلون غـــداً ... في اخـــتـــلاق العـــذر عند الطلب
هل أجـــــاريهم فـــــآتي فنداً ... أم لزوم الصـــــــدق أولى بالأبي؟
وهنا اشـــتـــد صـــراع قـــائم ... بين نفـــسي وضـــمـــيـــري الطيِّب
عـــامـــلان اخـــتلفـــا واصطنعـــا ... حـــجـــبـــاً توقـــد نار الشـــغب
وأخـــيـــراً كـــان عـــزمي أنني ... ألزم الصــــــــدق ولو أوقع بي
أنا إن أكـــذب على خـــيـــر الورى ... أعـــــرض النفس لأدهى عطب
ربمـــا يســـخط عني المـــصطفى ... فـــأراني بين قـــوم خـــاســـرين

هذا هو الكتاب الذي وضع بين ايدينا صورة للأدب الحديث في المغرب. ولسنا نقول ان الصورة كاملة، كما ان المؤلف لا يدعي ان صورته كاملة. إنه يعتبر عمله عملاً رائداً، ويرجو هو، ونأمل نحن، ان تتعدد مثل هذه الكتب التي توضح لنا هذه التيارات الفكرية القائمة هناك، والمشاكل التي يعالجها اخواننا اصحاب الاقلام، وزملاؤنا العاملون في البحث، والأساليب التي ينتحون. نرجو أن تكثر البحوث التي تحلل وتدرس، ونرجو أيضاً ان تكثر المجموعات الأدبية ـ القصص ودواوين الشعر، والمقالات. ونرجو بعد هذا كله ان يتاح لها ان تصلنا كي نقرأها بأنفسنا ونحكم بتأثرنا ونتعرف رأساً.

القسم الخامس

قضايا مغربيّة

قضية المغرب العربي

يمتد المغرب العربي، عرف جغرافيي العرب، من حدود طرابلس الغربية إلى المحيط الأطلسي، ومن شواطىء البحر الأبيض المتوسط إلى الصحراء الكبرى، ويشمل، في عرف التقاسيم السياسية الحديثة، تونس والجزائر ومراكش. وقد كان القطران الاولان، منذ القرن السادس عشر، تابعين للامبراطورية العثمانية، اما مراكش فقد قاومت أكثر من محاولة واحدة لضمها إلى القطرين الشقيقين.

ويبلغ عدد سكان المغرب العربي اليوم بين ٢٥ و٢٧ مليوناً من السكان على أصح التقديرات، وهؤلاء السكان يمثلون التزاوج والامتزاج والاختلاط، عبر القرون، بين السكان الاصليين للبلاد ـ البربر ـ والعرب الذين استقروا في تلك الرقعة من الأرض منذ القرن السابع للميلاد. ولاشك في ان الاختلاف في طبيعة البلاد في أجزائها المتباينة جعل الامتزاج بين عنصري السكان متبايناً ايضاً. فهو على أشده وأقواه في سهول تونس مثلاً، وعلى أضعفه في مرتفعات مراكش الغربية والجنوبية. على أنه من الضروري ان نذكر أمرين آخرين بهذه المناسبة، أولهما ان السكان هناك هم مسلمون، وثانيهما هو أن هؤلاء القوم ـ سكان المغرب العربي ـ هم ورثة الحضارة العربية. وهذان الأمران حددا المفاهيم الروحية والحضارية لهذا الشعب بأجمعه.

وحديث التاريخ الحديث في المغرب العربي طويل، وفيه عبرة. لكن المجال لا يسمح بذلك الآن، واذن فلنكتف بالاشارة إلى ما لا بد منه. في سنة ١٨٣٠ هاجمت القوات الفرنسية مدينة الجزائر واحتلتها، ثم تابعت احتلالها للبلاد الجزائرية، وإن كان ذلك اقتضاها نحو عشرين سنة من القتال، وما لا يقل عن مئة الف من الجنود سقطوا في الأرض الجزائرية ثمناً لاستعمارها. وفي سنة ١٨٤٠ أصدرت فرنسة مرسوماً اعتبرت بموجبه القطر الجزائري جزءاً من الأرض الفرنسية، وبعد ست سنوات اعتبر الجزائريون فرنسيين. أما تونس فقد تم احتلالها في سنة ١٨٨١ وفرضت في شهر أيار من ذلك العام معاهدة باردو على الباي، وهي المعاهدة التي نصت على ان الاحتلال موقت وجزئي، الغاية منه حفظ الأمن والنظام، وتعهدت فرنسة بموجب المعاهدة بالمحافظة على سمو الباي وأسرته والبلاد التي يحكمها. وأما مراكش فقد جاء دورها في أوائل القرن العشرين، لما احتلت فرنسة مدينة فاس «وأقنعت» سلطان مراكش بعقد معاهدة (٣٠ آذار ١٩١٢) وضعت بموجبها البلاد تحت الحماية الفرنسية.

وبذلك أصبح المغرب العربي خاضعاً للسلطة الفرنسية مباشرة. ولا شك في أنه لولا أن الدول الغربية الأخرى ضلعت مع فرنسة في سبيل اقتسام افريقية، لما تم لها شيء من ذلك.

وكان باستطاعة فرنسة أن تحترم حتى معاهداتها المفروضة فرضاً، وتسير بالبلاد سيراً تدرّجياً نحو التقدم، بحيث تنتهي الحماية بالاستقلال وقيام تعاون وثيق بين أقطار المغرب العربي يكون في مصلحه الفريقين. ولكن فرنسة آثرت مصلحتها الخاصة، ونظرت إلى تلك الأقطار على انها مزرعة يجب ان تستغل لمصلحة الفرنسيين فقط. وقد استقر في المغرب العربي أقل من مليوني فرنسي، سيطروا على حياته الاقتصادية - في مناجمه وصناعاته ووسائل النقل فيه وتجارته وزراعته الفنية - ومن ثم أصبحوا هم الذين يصوغون السياسة فيه، يؤيدهم في فرنسة نفسها اولئك المؤمنون بحقها الاستعماري هناك، وواجبها في تحضير السكان - التحضير الاجباري على الطريقة الفرنسية.

وعندما ننتقل من الاجمال إلى التفصيل يمكننا ان نلاحظ الأمور الآتية:

١ - شجعت الحكومة الفرنسية الرعايا الفرنسيين على امتلاك الأراضي في بلاد المغرب العربي. وقد كان الشراء سبيلاً للحصول على قسم صغير من الأرض. أما القسم الأكبر فقد جاء عن طريق الانتزاع من الملاكين العرب (التل في الجزائر، وجنوب تونس والسهول المراكشية) أو الإنزال والابدال (في تونس). وبهذه الواسطة تم الاستيلاء على مساحات كبيرة من الأرضين اعطيت للفرنسيين. (على سبيل المثال في سنة ١٨٥٠ سمحت الحكومة الفرنسية للجزائريين بامتلاك ١١,٠٠٠ هكتار في منطقة التل وأعطت للفرنسيين ٣٦,٠٠٠ هكتار وسجلت لنفسها ٩٦,٠٠٠ هكتار لم تلبث أن وضعتها تحت تصرف المعمرين الفرنسيين).

٢ - مُنحت الامتيازات الرئيسة الكبرى، المتعلقة باستخراج المعادن في الأقطار المغربية الثلاثة، إلى شركات فرنسية، وبذلك أصبح استخراج الفوسفات والزئبق والحديد والفحم والزنك والنحاس أكثره بأيدٍ فرنسية. وقد عجز بعض الشركات في الجزائر مثلاً عن تدبير رأس المال اللازم، ومع ذلك فلم تلغَ امتيازاتها.

٣ - ترتب على ذلك كله أمران: أولهما ان الصناعات الثقيلة ووسائل المواصلات وتوليد القوى الكهربائية أصبحت في أيدي فرنسيين هم في الواقع غرباء عن البلاد ايضاً. والأمر الثاني هو ان الإنتاج الزراعي في الأراضي التي يملكها ويستغلها الفرنسيون أصبح افضل وأكثر مما هو بأيدي أهل البلاد، وذلك بسبب استخدام الوسائل الفنية في استغلال الأرض. وقد يدعي البعض ان تقصير أهل البلاد في استعمال الوسائل الفنية يرجع سببه إلى عقلية لا تقبل التجديد؛ ولكن ذلك مردود.

ان أهل البلاد لم يترك لهم شيء يمكنهم من شراء العدد والآلات أو استعمالها، والحكومة وقفت منهم موقف المتفرج من بؤسهم.

٤ - وضعت الإقامة العامة (الفرنسية) في تونس ومراكش وإدارة الحاكم العام في الجزائر، يدها على الإدارة جملة وتفصيلاً. وبذلك أوقفت تطور السكان نحو أي نظام - سواء في الإدارة أو السياسة أو التشريع. وبسبب انها قبضت على ناصية الأمر فانها استطاعت ان تخص بخيرها من تشاء، وتوصل ضرها إلى من تشاء.

٥ - وكان فيما سيطرت عليه التعليم فأخضعته لنظم فرنسة، خاصة في الجزائر، فحالت بذلك دون تعليم اللغة العربية في المدارس، وأصبح الطالب يتقن الفرنسية ويفقه اسرارها ويتذوق أدبها، أما أدبه ولغته فهما أمران بعيدان عنه. فضلاً عن ان المدارس الموجودة في البلاد لم تتسع إلا لعدد لا يتجاوز ١٥ - ٢٥٪ من مجموع الطلاب الذين يجب ان يدخلوا المدارس. ومعنى هذا ان بعض المناطق لا يدخل من ابنائها إلا جزء صغير جداً ممن يجب أن يكون في المدارس. أما الفرنسيون فأولادهم لهم من المدارس ما يجمعهم، ولو كانوا يقطنون الأماكن البعيدة.

هذا بعض ما يجب أن يعرف عن الاتجاهات العامة الثابتة في السياسة الفرنسية. يضاف اليها أن السلطات الفرنسية، بحكم نقطة الانطلاق التي نظرت منها إلى المغرب العربي، اعتبرت كل مطلب، مهما كان عادلاً، يطلبه السكان، غير حري بالاستجابة، ونظرت إلى كل حركة يقوم بها أهل البلاد للدفاع عن كيانهم أو استرجاع حق من حقوقهم على انها عصيان، والعصيان يجب أن يقمع بالقوة. ولم تدخر السلطات الفرنسية وسعاً في سبيل البطش بهؤلاء العصاة - فالسجن والتشريد والنفي والاعدام واطلاق النار أصبحت أموراً يألفها المغاربة. والأساليب لم تختلف بين ١٨٥٠ و١٩٥٤. وهذه ثورة ١٨٧٥ (في الجزائر) وحوادث ١٩٥٢ (في تونس) ووادي زيم (مراكش) ١٩٥٥ شواهد على ما نقول.

بعد هذا العرض الموجز نسأل انفسنا، ما هي القضية المغربية؟ إن فرنسة تريد أن تستغل البلاد المغربية لمصلحتها من جميع النواحي - ثروة الرجال والأرض والصناعة والتجارة. وفي سبيل ذلك تقص من أجنحتها وتحول دون تقدم ابنائها، وإن كانت تسمح للأرض أن تتقدم على أيدي الفرنسيين. إن فرنسة تريد أن تفرنس السكان. أما المغربيون فيأبون ذلك. إنهم يريدون أن يحتفظوا بمقوماتهم القومية، وشخصيتهم الخاصة بهم، يريدون ان تظل لهم مغربيتهم وعروبتهم. ولكن يحبون ان تنمو هذه الشخصية الخاصة بهم وتتطور في إطارها الأصيل. ويعرفون ان لا سبيل إلى ذلك إلا بان يوضع حد للسياسة الفرنسية القديمة، وسبيل ذلك الاستقلال. فهم ان استقلوا استطاعوا ان يحققوا كرامتهم كأفراد، وكرامتهم كمجموع، وكرامتهم كجزء من

أمة. وهم إن استقلوا تمكنوا من السير قدماً في تحقيق آمالهم وآمانيهم، وهذا التحقيق هو تحقيق لشخصيتهم.

فهل تدرك فرنسة ان هذا ما يريده المغرب العربي؟ واذا أدركت ذلك فهل هي مستعدة ان تتخذ الخطوة الصحيحة في هذا السبيل؟ أم ان فرنسة، على ما جاء على لسان رئيس وزرائها المسيو ادغار فور في أواخر شهر تشرين الثاني ١٩٥٥، اذ قال: «ان فرنسة مصممة على اتباع رسالتها التي سبق لها ان سارت عليها في افريقية الشمالية... كما انها مصممة على اتباع رسالتها التمدينية فيها...». وقد أبدى الرئيس الفرنسي أسفه لمحاولة تدخل بعض الدول في قضايا المغرب، وأشار إلى الجزائر فقال: «إن حكومتي باستدعائها الوفد الفرنسي في الجمعية العامة (للامم المتحدة) قد برهنت بأنها ليست مستعدة البتة، مهما كانت النتائج، قبول أي تدخل في شؤونها الداخلية ومس سيادة فرنسة».

هذا التصريح جاء بعد الاتفاق التونسي الفرنسي وإعادة السلطان محمد بن يوسف إلى عرشه، وتصويت الأمم المتحدة على إدراج قضية الجزائر في جدول أعمالها للدورة الحالية.

فاذا كانت فرنسة مصممة على سياستها، فان المغرب مصمم على تحقيق آماله. وسيكلف ذلك فرنسة نصباً والمغرب خسارة. ولكن في النهاية سينتصر الحق، وينجح المغرب.

ليبيا ودستورها

١

اعلنت الجمعية الوطنية الليبية دستورها في أوائل شهر تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٥١، وبذلك أعدت الإدارة السياسية لكي تمارس ليبيا سلطاتها بموجبها كدولة مستقلة ذات سيادة. وبهذه المناسبة نعرض على القراء أهم ما يجب ان يعرف عن البلاد وأهلها ودستورها، معتذرين عن الاقتضاب بسبب ضيق المجال.

تبلغ مساحة ليبيا ١,٧٥٠,٠٠٠ كيلو متر مربع، وهي مجموع مساحات الأقاليم الثلاثة.. برقة وطرابلس وفزان. وسكانها يبلغ عددهم ١,١٥٠,٠٠٠ نسمة؛ وإلى القارىء توزيع السكان بالنسبة للاقاليم الثلاثة.

برقة	٧٠٠,٠٠٠	كيلو متر مربع	٣٠٠,٠٠٠ نسمة
طرابس	٢٥٠,٠٠٠	كيلو متر مربع	٨٠٠,٠٠٠ نسمة
فزان	٨٠٠,٠٠٠	كيلو متر مربع	٥٠,٠٠٠ نسمة

(١) هؤلاء السكان عرب مسلمون باستثناء نحو ستين الفاً؛ منهم ٤٧,٠٠٠ ايطالي و٨,٠٠٠ يهودي وبضعة آلاف من المالطيين واليونان وغيرهم.

(٢) ومن السكان العرب، نجد ١٩٣,٠٠٠ الفًا يقيمون في المدن، ونحو أربعمائة الف يقيمون في الريف إقامة مستقرة. اما الباقون، وهم أقل من النصف فيحيون حياة بدوية أو قريبة من ذلك. وغير العرب من السكان يقيمون في المدن، الا ان نحو ١٧,٠٠٠ من الايطاليين يعيشون في الريف الطرابلسي.

(٣) في عام ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠ كان في ليبيا المدارس التالية:

	الابتدائية	الثانوية	دور المعلمين	عدد الطلاب
طرابلس	١٣٤	٢	٢	٢٣,٧٠٦
برقة	٥٤	١	-	٧,٣١٤
فزان	١٥	-	-	؟

وبالاضافة إلى ذلك فقد كان في مدينة طرابلس مراكز لتدريب الشباب على الصناعة والأعمال الكتابية والتجارية تحت إشراف الاونسكو، بلغ عدد طلابها ٢٣٢

ومع كل هذا فان ٨٠٪ من الأولاد في سن التعليم لا يزالون خارج جُدُر المدارس.

وسكان ليبيا يعتمدون، إلى الآن، على الزراعة وتربية الحيوانات في سبيل العيش. لكن البلاد فيها موارد ثروة لم تستغل بعد.

في طرابلس نحو عشرة ملايين هكتار من الأرض تصلح للاستغلال، منها ثمانية ملايين تنفع لرعاية الماشية، ومليونان صالحة للزراعة. لكن من هذه أقل من ربعها قابل للزراعة الدائمة. والعرب يستغلون منه ٥٠,٠٠٠ هكتار في الواحات الساحلية، و١٢٧,٠٠٠ هكتار في المناطق الجبلية، وفيه نحو ٣,٠٠٠ هكتار غابات. اما ما تبقى (أكثر من مائتي الف هكتار) فهو بأيدي الايطاليين.

وبرقة فيها اربعة ملايين هكتار من الاراضي المنتجة، منها ١٤٥,٠٠٠ صالحة للزراعة الجافة، أما الباقي فهو مراعٍ أو مناطق زراعية غير دائمة.

وفزان أفقر الاقاليم الثلاثة في الأرض الخصبة، اذ فيها ١٢٢,٧٠٠ هكتار (منها ٢,٧٠٠ هكتار تروى).

اما المنتجات الزراعية في البلاد فتشمل الحبوب والزيتون والفواكه والثمر والخضار المألوفة في حوض البحر المتوسط والتبغ والحلفا.

وقد انتجت البلاد من الشعير والقمح الكميات التالية:

السنة	الشعير	القمح
١٩٤٨	٦٢,٣ الف طن	١٠,٩ الف طن
١٩٤٩	١٧٧,٣ الف طن	١٦,٧ الف طن
١٩٥٠	١١٦ الف طن	١٥,٦ الف طن

وفي البلاد نحو ٣,٤٠٠,٠٠٠ شجرة زيتون، يملك الايطاليون ثلثيها، وقد قدر منتوجها من الزيت (١٩٥٠) بنحو ٨,٥٠٠ طن، على ان هذا المنتوج سيصل إلى نحو ١٢,٠٠٠ طن في بضع سنين.

واللوز ينتج منه ١,٦٠٠ طن، على ان الأشجار سيبلغ نتاجها نحو ٥,٠٠٠ طن قريباً.

وفي ليبيا نحو عشرة ملايين شجرة نخيل، منها نحو الخمس تعطي ثمراً، تراوح مقداره بين ٢٠,٣٧ الف طن في السنة، على ان الخبراء يقدرون للبلاد انتاجاً بمعدل ٤٠ الف طن في العام.

وتصلح اجزاء كثيرة من ليبيا للأثمار الحمضية. وقد غرس الايطاليون، إلى عام ١٩٤٠، نحو ٣٠٠,٠٠٠ شجرة، على ان هذا قد ازداد مؤخراً. وقد كان المحصول نحو ٥,٠٠٠ طن عام ١٩٥٠.

وثمة نحو ٨٥٠,٠٠٠ شجرة فاكهة من المشمش والدراق والتين، ونحو ٤٥ مليوناً

من أشجار الكرمة، أكثرها في طرابلس ملك للايطاليين. وقد قدِّرت كمية الخمور المصنوعة من العنب بنحو ٤٠ ـ ٤٥ الف هكتولتر.

وقد جربت زراعة التبغ فكانت النتائج مشجعة، إلا انها تختلف اختلافاً كبيراً بين سنة واخرى، على ما يبدو من الجدول التالي:

١٩٤٠	٤٤٠ طناً
١٩٤٤	٤٧٣ طناً
١٩٤٥	٨٦٥ طناً
١٩٤٦	١,٢٧٤ طناً
١٩٤٨	٢٧٢ طناً
١٩٤٩	٣٥٠ طناً
١٩٥٠	٨٦٢ طناً

وفي الأرض متسع لنبات الخروع والحنّا.

وقدرت مساحة الغابات الموجودة في برقة وطرابلس بنحو ١١٠,٠٠٠ هكتار، وقدر ما يستغل منها للوقود في العام بنحو عشرة آلاف طن. على أن المهم هو ان البلاد تصلح اجزاء كثيرة منها للتحريج.

وقد أصبح نبات الحلفا من الموارد الكبرى في البلاد، بسبب حاجة الأسواق العالمية اليه. وصدر منه (١٩٥٠) ١٨,٠٠٠ طن. على اننا نعرف، من اتصالات شخصية واحاديث خاصة قمنا بها أثناء زيارتنا للبلاد عام ١٩٥١، ان هذه الكمية في طريق الازدياد. وقد تأسست في بني غازي شركة جديدة لتنظيم جمع النبات وتصديره.

إلى هذه الثروة الزراعية المحدودة الاستغلال إلى الآن، نجد ان البلاد فيها ثروة حيوانية هامة جداً. والارقام التالية توضح هذه الثروة في سنة ١٩٥٠ (الأرقام بالآلاف):

	أغنام	الماعز	الإبل	الأبقار	الحمير	الخيول	البغال
طرابلس	٣٠٠	٣٠٩	٥٨	٣١	٢٧	٥,٤	١,٥
برقة	٤٦٢	٣٧٩	٢٠	٣٢	٠١		
فزان	١١	تشمل	الماعز ٥		٦		
المجموع	٧٧٣	٦٨٨	٦٣	٦٣	٤٣	٥,٤	١,٥

وعلى أساس هذه الأرقام يمكن تقدير المنتوجات الرئيسية منها (اي اللحوم والالبان والصوف) على النحو التالي (١٩٥٠) بالاطنان:

	الصوف	اللحوم	الألبان	الشعر
الأغنام	١,٥٤٢	٧,٧١٠	١٥,٠٠٠	
الماعز		٣,٥٧٠	٢٠,٠٠٠	٢١٤
الأبقار		٢,٠١٠	٣٦٥	
الإبل		٣,٢٤٠	٢٤٠	

وهذه الحيوانات، بالاضافة إلى ما ذكر، تنتج كمية كبيرة من الجلود.

وليبيا فقيرة في الصناعات، اذ ان هذه تشمل تعليب الطنة والسردين وصيد الأسفنج وصنع السجاير وعصر الزيت والدباغة ونسج الأقمشة. وأكثر هذه الصناعات، وخاصة الثلاث الأولى منها، بيد الايطاليين. وبرقة افقر من طرابلس صناعياً لكن القوم هناك جادون في سبيل الإفادة من مواردهم إلى أكبر حد ممكن.

وتجارة ليبيا الخارجية لا تزال في دور النمو والتطور، لذلك لم تستقر. على ان الأرقام التالية تعطينا بعض الفكرة عن الحالة كما كانت عليه عام ١٩٥٠ (بآلاف الجنيهات الاسترلينية):

	طرابلس	برقة	ليبيا (باستثناء فزان)
الواردات	٤,٥٥١	٢,٥٢١	٧,٠٧٢
الصادرات	١,٢٥١	١,٧٧٢	٤,٠٢٣
زيادة الواردات	٢,٣٠٠	٧٤٩	٣,٠٤٩

ولم نتمكن من الحصول على ارقام لفزان لسنة ١٩٥٠، لكن في عام ١٩٤٩، استوردت المنطقة بما قيمته ٦٦,٧٠٠ جنيه استرليني، وصدرت بما قيمته ١٣,٤٠٠ جنيه، فتكون زيادة الواردات عن الصادرات ٥٥,٣٠٠ جنيه. فاذا ضم هذا إلى الرقم السابق كانت زيادة الواردات على الصادرات معدلة لعامي ١٩٤٩، ١٩٥٠ لليبيا كلها تزيد قليلاً على ثلاثة ملايين جنيه استرليني.

بعد هذا العرض الموجز للواقع الليبي، نرى لزاماً علينا ان ندون الملاحظات التالية، وهذه الملاحظات مستقى بعضها من التقرير الاقتصادي الذي وضعه خبراء برنامج المساعدة الفنية للأمم المتحدة لليبيا، وبعضها مأخوذ من أحاديث متعددة مع الرجال المسؤولين في ليبيا حصلنا عليها في زيارتنا لتلك البلاد في صيف ١٩٥١.

(١) ان الزراعة هي عصب الاقتصاد الليبي. ومع ان استغلال هذه الموارد لا بأس به، إلا ان المسؤوليات التي يجب ان تتحملها البلاد كدولة مستقلة ستزداد، ومستوى المعيشة لا بد ان يرتفع، ولذلك من الضروري اللجوء إلى جميع الوسائل الفنية لزيادة المنتوج من جهة، والتوسع في استغلال الأراضي من جهة ثانية.

(٢) كثير من هذا الاستغلال الاقتصادي في البلاد هو في يد غير العرب من ابنائها. ومع ان النظرة الاقتصادية لا تفرق بين عناصر السكان، الا ان أكثرية السكان حرية باهتمام خاص. وهذا يبدو في السياسة الاقتصادية العامة للدولة، كما يتجلى في تفهم السكان انفسهم لهذه المشاكل، والعمل متكاتفين في سبيل حلها.

(٣) يبدو من هذا ان ليبيا ستحتاج، إلى سنوات على الأقل، إلى عون مالي يمكّنها من القيام بالمصاريف العادية من الجهة الواحدة، وتنفيذ برامجها في التعليم والاقتصاد والتدريب الصناعي والتنظيم المهني من الجهة الأخرى. وهذا معناه اعتماد على دولة أو دول اجنبية. وقد لا تقدم الدولة أو الدول الأجنبية هذه المساعدات دون ضمانات أو فوائد خاصة. والمهم ان المسؤولين في ليبيا واعون هذه القضايا، عارفون إلى أي حد يمكنهم ان يفيدوا من المنح، دون ان يقعوا تحت قيود كثيرة. ولا شك أن المنح التي تأتي من الأمم المتحدة ولجانها المختلفة أقل ضرراً من تلك التي تأتي من دول فردية .

(٤) من الضروري ان يهتم بالأمور التالية في سبيل تنمية البلاد اقتصادياً:

(أ) توسيع زراعة الحبوب (ب) زيادة انتاج الحيوانات والعمل على ايجاد أماكن للخزن والتبريد (ج) من الضروري أن تزاد كمية الأشجار المثمرة، سواء في ذلك تلك التي تحتاج إلى رأس مال كبير، مثل الحمضيات، أو تلك التي تحتاج إلى زيادة جهد بسيط، مثل الزيتون والمشمش والتفاح والتين. (د) يمكن زيادة التدابير التي من شأنها ان تحمي الحلفا وتحسن نوعه.

ونختم هنا بعبارة مأخوذة من التقرير المذكور «الأمم المتحدة مسؤولة بصفة خاصة عن منح ليبيا المعونة التي تلزمها للاستقلال اقتصادياً. إلا ان المساعدة الأجنبية، مهما كان مقدارها، لن تحقق اصلاحاً دائماً لمعظم السكان، ما لم تعضده عزيمة الشعب. فالتنمية الاقتصادية ليست امراً سهلاً. وإذا لم تدعم هذه التنمية زعامة أدبية روحية تسمو إلى خطورة الظروف، فانها تخفق. يجب أن تتجه قوات الشعب نحو هذه التنمية وأهدافها الانشائية».

٢

وهذه الأمور التي اشرنا إليها تبدو واضحة أكثر من ذي قبل إذا نحن تذكرنا أن البلاد كانت من مدة ثلث قرن تقريباً، تحت الحكم الايطالي. وفي هذه الفترة عملت ايطالية كثيراً في سبيل البلاد، ولكن لمصلحة المعمرين الايطاليين، فانتزعت الأرض الخصبة من أهلها وأعطتها لابناء بلادها. وشملت الحكومة المشروعات المختلفة بعنايتها ورعايتها. وقد ترى، إذا زرت ليبيا، كما زرناها، طرقاً جيدة، وأبنية جميلة فخمة، وشوارع عريضة، لكن هذه كانت لمصلحة المعمرين قبل كل شيء.

ولسنا نريد أن نستعرض هنا الاختبار المرير الذي اجتازته ليبيا في أيام

الاستعمار الايطالي، فذلك أمر الحديث فيه طويل. وأهل ليبيا مهتمون اليوم بمستقبلهم. فهو شغلهم الشاغل، ولذلك فسنقتصر، في هذه العجالة، على عرض موجز لما تم في البلاد منذ زوال الحكم الايطالي عنها، تمهيداً لتوضيح معالم الدستور الليبي.

كان احتلال الجيش البريطاني لمدينة طرابلس في كانون الثاني (يناير) ١٩٤٣ ايذاناً بانتهاء السلطة الايطالية في تلك البلاد. وخرجت ليبيا، وخاصة اجزاؤها الشرقية، منهوكة القوى، مهدمة المدن، مشردة السكان، بعد ان تبادلتها القوى العسكرية بضع مرات. ووضعت طرابلس وبرقة تحت إدارة بريطانية عسكرية (تحولت إلى ادارة مدنية في أول نيسان ـ ابريل سنة ١٩٤٩)، ووضعت فزان تحت الإدارة الفرنسية.

وقد مرت القضية الليبية، مجتمعة ومجزأة، بأمور كثيرة. فبعد أن تم الاتفاق بين الدول الكبرى على ان لا تحل قضية ليبيا، وبقية المستعمرات الايطالية، الا باتفاق اجماعي عليها، جرَّب وزير خارجية بريطانية (المستر بيفن) ووزير خارجية ايطالية (الكونت سفورزا) ان يحلا القضية على حساب الليبيين. فكان اتفاق بيفن ـ سفورزا يقول باستقلال برقة، وإعادة طرابلس إلى إيطالية، وصاية على الأقل، وإبقاء فزان لفرنسة. وقد أدى هذا إلى ضجة عنيفة، واعتراض صاخب في طرابلس وأعلن الليبيون انهم لا يقبلون بذلك. ولذلك طوي أمر هذا الاتفاق.

وفي أول حزيران (يونيو) ١٩٤٩ اعلنت برقة حكومة مستقلة برياسة الأمير محمد ادريس السنوسي. وبعد مدة اعلنت فرنسة وضعاً مماثلاً لفزان.

لكن الذي قضى على كل هذه الأمور، القرار الذي اتخذته الجمعية العامة للامم المتحدة في ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٩، وبموجبه تصبح ليبيا، وباقاليمها الثلاثة، دولة مستقلة ذات سيادة في أقرب وقت ممكن، على الا يتجاوز ذلك أول كانون الثاني (يناير) ١٩٥٢. فكان ذلك فاتحة عهد جديد، ونشاط سياسي كبير في البلاد. إن باب الأمل فتح أمام ليبيا على مصراعيه، فشمر الليبيون عن سواعدهم ليتموا واجباتهم لإعداد انفسهم للاستقلال في الموعد المحدد.

والقرار المذكور نص على الأمور التالية:

(١) يسن دستور ليبيا ويختار الحكم للدولة الليبية، ممثلون عن سكان الأقاليم الثلاثة، مجتمعين ومتشاورين في جمعية وطنية، على أن يساعدهم في ذلك مندوب للامم المتحدة في ليبيا، يعينه مجلس الأمم المتحدة في ليبيا.

(٢) يتألف مجلس الأمم المتحدة لليبيا من عشرة اعضاء: منهم ممثلون عن الأقاليم الليبية الثلاثة، وستة يمثلون كلاً من مصر وفرنسة وإيطالية والباكستان وبريطانية والولايات المتحدة، وواحد يمثل الاقليات في طرابلس. وعمل هذا المجلس استشاري، فهو يشير إذا سئل، ويقدم الرأي من عنده.

(٣) تتخذ بريطانية وفرنسة الخطوات اللازمة لنقل السلطة إلى حكومة مستقلة.

(٤) تدير الدولتان المذكورتان ليبيا ادارة تهيّىء للبلاد الوحدة والاستقلال، عن طريق تنسيق الإدارة والمؤسسات الحكومية.

(٥) تنضم ليبيا إلى عضوية الأمم المتحدة حالما تصبح دولة مستقلة.

ولم يضع أحد وقتاً ما. فالمندوب عين في ١٠ كانون الأول (ديسمبر ١٩٤٩)، وفي أوائل السنة التالية كان يتجول في انحاء ليبيا للتعرف بالبلاد شخصياً. والدول التي قبلت العضوية في المجلس أرسلت مندوبيها، وليبيا اختارت ممثليها، وبدىء العمل.

وكانت المشكلة الأولى التي تحتم على المندوب والمجلس حلها، هي كيف تعين اللجنة الليبية الوطنية لوضع الدستور، واختيار شكل الحكم. وقد تم الاتفاق، بعد نقاش طويل، على اختيار لجنة من ٢١ عضواً تمثل الأقاليم الليبية الثلاثة لتعين بدورها وسيلة اختيار الجمعية الوطنية.

ولجنة الواحد والعشرين عين الأمير اعضاءها البرقاويين، وعين اعضاءها الفزانيين السيد سيف النصر، واختير اعضاؤها الطرابلسيون بحيث يمثلون النزعات الحزبية المختلفة في الاقليم. وقد وفقت هذه اللجنة إلى تقرير الوسيلة لقيام الجمعية الوطنية، المكونة من ستين عضواً يمثلون الاقاليم الثلاثة بالتساوي. فعين الأمير عشرين ممثلاً عن برقة، وعين احمد سيف النصر عشرين ممثلاً عن فزان. أما طرابلس فقد مثلها عشرون عضواً كان اختيارهم على اساس تمثيل وجهات النظر السياسية المختلفة، أي الأحزاب الطرابلسية، وإن كانت بعض الأحزاب لم تقر اختيار بعض ممثليها. إلا أن الجمعية الوطنية بدأت عملها وهو وضع الدستور واختيار شكل الحكم لدولة ليبيا المستقلة. وقد تم هذا العمل في ٧ تشرين أول (اكتوبر) ١٩٥١، لما وافقت الجمعية الوطنية على الدستور نهائياً، وأعلنته.

٣

قبل أن ننتقل إلى الدستور الليبي لبيان ما فيه، يجدر بنا أن نتناول بضعة أمور تمت اثناء قيام الجمعية الوطنية بعملها، أي في مدة سنة تقريباً بين خريف ١٩٥٠ وخريف ١٩٥١.

افتتحت الجمعية الوطنية أولى جلساتها في ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٠ في طرابلس. وفي جلسة ٢ كانون الأول (ديسمبر) من السنة نفسها اتخذت الجمعية القرارات التالية.

(١) تصبح ليبيا دولة اتحادية ديمقراطية مستقلة وذات سيادة وتتألف من أقاليمها الثلاثة برقة وطرابلس وفزان بحدودها الطبيعية.

(٢) المناداة بالسيد محمد ادريس السنوسي امير برقة ومبايعته ملكاً دستورياً للمملكة الليبية المتحدة.

(٣) انتقال الجمعية الوطنية بكامل هيئتها إلى بني غازي لرفع قرارها التاريخي للملك وتلقي قبول جلالته هذه البيعة.

(٤) يكون العلم الليبي من ثلاثة الوان اعلاها الأحمر فالاسود فالأخضر بشكل افقي، ويحتوي القسم الأسود على هلال وكوكب من اللون الأبيض.

وقد سافر اعضاء الجمعية الوطنية إلى بني غازي حاملين وثيقة البيعة فقدموها إلى الملك في صباح ١٧ كانون أول (ديسمبر) ١٩٥٠.

ومن الأمور التي تمت اثناء قيام الجمعية بوضع الدستور، انشاء حكومة موقتة في ليبيا. فقد اعلنت الجمعية الوطنية ذلك في ٢٩ آذار (مارس) ١٩٥١، فقامت هذه الحكومة برياسة السيد محمود المنتصر يعاونه خمسة وزراء: اثنان من طرابلس واثنان من برقة وواحد من فزان. وعلى اثر قيامها بدأت لجنة التنسيق بإعداد العمل لنقل السلطات.

وفي شهر ايار (مايو) ١٩٥١ زار الملك طرابلس زيارة رسمية. وفي الاستقبال العام الذي اقيم في قصره، القى بياناً عن ليبيا المستقبل. وفي هذا البيان اتضح للناس ان الدولة الاتحادية التي ستنشأ في ليبيا ستكون السلطات الخاصة بالاتحاد فيها كثيرة مركزة، بحيث إن مخاوف البعض لا قيمة لها. وبذلك اطمأن الناس لهذا البيان.

وثمة مسألة شغلت بال أُولي الأمر كثيراً، واحتاجت إلى دراسات وافية ومباحثات مستفيضة. تلك هي قضية العملة الليبية. فليبيا تستعمل فيها الآن ثلاثة انواع من العملة: الجنيه المصري في برقة، والفرنك الجزائري في فزان، والليرة العسكرية (تسمى مال) في طرابلس. وهذا أمر لا يمكن أن يظل كما هو في بلاد مقدمة على اتحاد سياسي واستقلال تام وسيادة. وقد صح رأي الخبراء على أن يكون لليبيا عملة وطنية واحدة، تستبدل بالعملات الثلاث الموجودة الآن. على أن القضية على بساطتها احتاجت إلى كثير من البحث. ذلك أن المشكلة الأولى هي ضمانة هذا النقد الليبي. والمسألة الثانية هي جعل هذه العملة مما يسهل على ليبيا التعامل مع الاقطار المجاورة. وقد تم الاتفاق على تأليف لجنة تحضيرية للعملة تقوم بمهمة سك النقود وطبع اوراق العملة، ومتى فرغ عملها تسلمه إلى «هيئة العملة الليبية» في المستقبل. وقد تم الاتفاق على أن تضمن بريطانية النقد الليبي.

وليبيا بحاجة إلى مساعدات ودراسات لأحوالها المختلفة، تمهيداً لتنمية مواردها وتنظيم شؤونها. ومن هنا كانت المساعدات الفنية ذات قيمة كبيرة. وقد ارسل خبراء لدرس الحالة الاقتصادية كما درس آخرون حالة الصحة والتعليم. وجميع هذه البعثات تقدم تقاريرها، وكثير من اقتراحاتها ينفذ.

٤

الدستور الليبي هو أحدث دستور وضع لدولة عربية، إذا استثنينا التعديل الذي جرى للمملكة الأردنية الهاشمية. وقد عرفنا، من بعض اصدقائنا في الجمعية الوطنية الليبية، ان اللجان المختلفة التابعة للجمعية اطلعت على دساتير الدول العربية والأوروبية وكثير من دول امريكا اللاتينية قبل أن تبدأ بوضعه. وبذلك كان عند الجماعة فكرة واضحة عن الاتجاهات الدستورية العالمية، كما كانت عندهم معرفة تامة بحاجات بلادهم، وعقيدة راسخة بوجوب صيانة الحقوق العامة والخاصة، واستعداد لقبول النصح الخالص من مندوب الأمم المتحدة لليبيا والهيئات الاستشارية الأخرى التي كانت هناك. ومن ثم فالعمل الذي قامت به الجمعية الوطنية عمل كبير.

والمجال لا يتسع لنشر الدستور بنصه الكامل، ولذلك سنكتفي بالاشارة الآن إلى النقاط الهامة فيه.

فالفصل الأول من الدستور يعين شكل الدولة ونظام الحكم فيها. فيقرر استقلال ليبيا وحريتها وسيادتها (مادة ١) ويعين انها ملكية اتحادية ذات نظام نيابي وتسمى «المملكة الليبية المتحدة» (مادة ٢) وان اقاليمها الثلاثة ـ برقة وطرابلس الغرب وفزان هي ولايات (مادة ٣). ويعلن أن الاسلام هو دين الدولة (مادة ٥).

فاذا انتقلنا إلى الفصل الثاني وجدناه يتحدث عن حقوق الشعب. فالليبيون لدى القانون سواء، ويتساوون في التمتع بالحقوق المدنية والسياسية، وفي الافادة من الفرص وفي القيام بالواجبات والتكاليف العامة. ولا يجوز التمييز بين الليبيين في هذه المسائل بسبب الدين أو المذهب أو العنصر أو اللغة (مادة ١١)، كما يكفل الدستور الحرية الشخصية (مادة ١٢). والمتهم بجريمة يعتبر بريئاً إلى أن تثبت ادانته (مادة ١٥)، والقانون هو الذي يعين وسائل التحقيق والادانة (مادة ١٦). ويكفل الدستور حرية الاعتقاد اطلاقاً واحترام جميع الاديان والمذاهب لليبيين والأجانب المقيمين في اراضي الدولة (مادة ٢١)، وحرية الفكر والاعراب الحر عن الآراء واذاعتها ونشرها (مادة ٢٢). ومن الحقوق المقررة لليبيين التعليم على أن يكون مجانياً في درجتيه الأولية والابتدائية وإلزامياً في دورته الأولية، والحرية في التعليم واضحة (مواد ٢٨ و٢٩ و٣٠) والدولة تعمل على أن يتوفر بقدر الامكان لكل ليبي مستوى لائق من المعيشة له ولأسرته (مادة ٣٥).

والفصل الثالث يحدد اختصاصات الاتحاد الليبي، أي التي يشرّع الاتحاد الليبي لها وينفذها، كما يبين الاختصاصات المشتركة أي التي يشرع لها الاتحاد وتقوم الولايات بتنفيذها. والمسائل الأولى موضحة في المادة السادسة والثلاثين وتشمل الشؤون المالية والخارجية والدفاعية والتجارة والقروض الخارجية وقضايا المهاجرة

والجنسية والأحكام العرفية والمواصلات العامة والتعليم العالي. أما الشركات والبنوك والثروات والموازين والمكاييل وإحصاء السكان وتعيين مراكز النقل البحري والجوي ونظام التعليم العام والآثار، وأمور أخرى من هذا النوع، فهي اختصاصات مشتركة (مادة ٣٨) .

وفي الفصل الرابع يُقرر أن السيادة للأمة وانها هي مصدر السلطات (مادة ٤٠).

وسلطات الملك موضحة في الفصل الخامس. فسيادة «المملكة الليبيبة المتحدة» للأمة، وهي بإرادة الله وديعة الشعب للملك محمد ادريس المهدي السنوسي ثم لأولاده الذكور من بعده الأكبر فالأكبر طبقة بعد طبقة (مادة ٤٤). وينظم هذا الفصل امور الوراثة والعرش، وطريقة حلف اليمين الدستورية ونصها، وشؤون الوصاية (مواد ٤٥ ـ ٥٧) ويتولى الملك سلطته بواسطة وزرائه وهم المسؤولون (مادة ٦٠). ويعلن الملك الحرب، ويعقد الصلح ويبرم المعاهدات ويصدق عليها بعد موافقة مجلس الأمة (مادة ٦٩).

والوزراء يعين لهم الفصل السادس كل ما يحتاجون اليه من قواعد وأسس عامة. فمجلس الوزراء يجب أن يكون اعضاؤه ليبيين (مادة ٨١) ولا يجوز أن يكون فيه من اعضاء البيت المالك أحد (مادة ٨٢). والوزراء مسؤولون أمام مجلس النواب مسؤولية مشتركة عن السياسة العامة للدولة وكل منهم مسؤول عن أعمال وزارته (مادة ٨٦).

والفصل السابع يبحث في مجلس الأمة، أي مجلس الشيوخ ومجلس النواب. فمجلس الشيوخ مؤلف من أربعة وعشرين عضواً، لكل ولاية ثمانية (مادة ٩٤) نصفهم يعينهم الملك ومجالس الولايات التشريعية تنتخب النصف الآخر (مادة ٩٥)، ومدة العضوية ثماني سنوات، على أن يجدد اختيار النصف كل اربع سنوات (مادة ٩٨). أما مجلس الشيوخ الأول فيعينه الملك لأربع سنوات من تاريخ انعقاد مجلس الأمة الأول (مادة ٢٠٧). أما مجلس النواب فأعضاؤه منتخبون (مادة ١٠٠) على أساس نائب واحد عن كل عشرين الف ناخب (مادة ١٠١). وفي الانتخابات الأولى لمجلس النواب التي يجب أن تتم في مدة لا تتجاوز أربعة أشهر ونصف من تاريخ اصدار الدستور (مادة ٢٠٤ و٢٠٥)، يكون لولاية برقة خمسة عشر نائباً ولولاية طرابلس الغرب خمسة وثلاثون نائباً ولولاية فزان خمسة نواب (مادة ٢٠٦). وقد حدد الدستور سن الشيخ باربعين سنة (مادة ٩٦) وسن النائب بثلاثين سنة (مادة ١٠٣). وسمح الدستور للملك ولمجلس الشيوخ والنواب بحق اقتراح القوانين عدا ما كان خاصاً منها بالميزانية أو بوضع الضرائب أو بتعديلها أو الاعفاء منها أو من بعضها أو الغائها، فاقتراحه للملك ولمجلس النواب (مادة ١٣٨).

والقضاء وتنظيمه هو موضوع الفصل الثامن، وفيه ان القضاة مستقلون ولا

سلطان عليهم في قضائهم لغير القانون (مادة ١٤٢)، كما ينص على تأليف المحكمة العليا الاتحادية ويعين صلاحياتها (مواد ١٤٣ ـ ١٥١). ومنها ان للملك إحالة مسائل دستورية وتشريعية هامة إلى المحكمة العليا لإبداء رأيها فيها، وللمحكمة النظر في الأمر وإبلاغ فتواها للملك مع مراعاة احكام الدستور (مادة ١٥٢).

وينص الفصل التاسع، المختص بمالية الاتحاد، على ان تكون مناقشة الميزانية وتقريرها في مجلس النواب اولاً (مادة ١٦١)، بالاضافة إلى الاحكام العامة المتعلقة بتحديد الاختصاصات المالية وطرق الجمع والإنفاق.

والفصل العاشر يتناول شؤون الولايات من ناحية الإدارة، ويحدد علاقاتها بالاتحاد (مواد ١٧٦ ـ ١٨٥).

والفصل الحادي عشر من الدستور يعدد احكاماً عامة تتعلق باللغة الرسمية للدولة وهي اللغة العربية (مادة ١٨٦) وعاصمتي المملكة وهما طرابلس وبني غازي (مادة ١٨٨) وضمانة الدولة لغير المسلمين ووضع نظام لأحوالهم الشخصية (مادة ١٩٢).

والأحكام الوقتية والانتقالية موضحة في الفصل الثاني عشر والأخير من الدستور.

ويختم الدستور بهذه العبارة «وضعت الجمعية الوطنية الليبية وأقرت هذا الدستور في جلستها المنعقدة بمدينة بنغازي في يوم الأحد ٦ المحرم الحرام سنة ١٣٧١ هجرة الموافق ٧ اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٥١ م. وعهدت إلى رئيسها ونائبه باصداره ورفعه إلى حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم وبنشره في الجرائد الرسمية بليبيا».

٥

جدير بنا، وقد عرضنا للدستور الليبي والأحوال التي سبقت إصداره، أن نضع أمام القارىء بضعة أمور حرية بعنايته، تقريراً للواقع.

أقرت الجمعية الوطنية نظاماً اتحادياً للدولة الليبية. وكان الموجهون للرأي العام الليبي على ما يقرب من الاجماع حول هذه القضية. لكن بدا فيما بعد أن شيئاً من الاختلاف حول الاتحادية والوحدة طرأ على الموضوع. ولكن الجمعية ظلت عند وجهة نظرها. ولعله من حق القارىء علينا أن نوضح وجهة النظر التي أدت إلى الأخذ بالاتحادية. وها نحن أولاً ننقل تفسيراً للأمر من تقرير اصدره وفد الهيئة التأسيسية (الجمعية الوطنية) الليبية الذي زار رؤساء وفود الدول العربية في القاهرة في أوائل عام ١٩٥١. فقد جاء في التقرير «... ان الاتحادية التي يحاول البعض تشويهها وإخفاء حقيقتها وإظهارها بمظهر التجزئة والانفصال، إنما تتمشى مع رغبة غالبية السكان

في الأقاليم الليبية الثلاثة الذين يرون فيها الوسيلة الوحيدة الممكنة والفعلية لتحقيق أماني الأمة الليبية في أقرب وقت ممكن.

«لا يمكن التحدث في هذه المرحلة الأولى من الاستقلال عن حكومة موحدة تركز فيها جميع السلطات لكي تدير دفة بلاد تبلغ مساحتها سبعمائة الف ميل مربع ويزيد عدد سكانها على المليون بقليل. فقد عجزت من قبل ايطالية وتركيا في تركيز جميع السلطات في حكومة واحدة. هذا إلى جوانب عوامل أخرى داخلية وسياسية تقضي بأن لا تحرم الأقاليم الثلاثة من ادارات محلية على الأقل في المرحلة الأولى من الاستقلال. فبرقة مثلاً رأت في أراضيها أعنف معارك الصحراء التي دارت في الحرب العالمية الثانية. وقامت بين الشعب والايطاليين معارك دموية وقتال وانتقام. فالبرقاويون يرون ان قيام حكومة موحدة في ليبيا كلها يؤدي إلى حصول الايطاليين الذين فروا إلى طرابلس حق الرجوع إلى برقة والاقامة فيها. وعودة الايطاليين إلى برقة في الوقت الحاضر معناها احياء للثارات الكامنة في النفوس والتعرض لسلسلة شديدة من القلاقل بين العنصرين. ولا يستطيع البرقاويون ان يضمنوا عدم إقامة الايطاليين في بلادهم إلا إذا استطاعوا ان يفوزوا في حقهم في وضع التشريع الذي يلائم وضعهم الداخلي وحالتهم النفسية في حدود محلية بحتة. ولا نعتقد أن وجود هذه الصلاحيات أو الضمانات المحلية يشوه استقلال البلاد، أو يهضم حق طرف دون الآخر. فهو نظام حديث متبع في سبع عشرة دولة مستقلة، لم نسمع ان واحدة منها قد نبذت هذا النظام، أو ادعت أنه كان سبباً في تأخرها وتشويه سيادتها».

(ونود أن نشير هنا إلى ان التوجيهات والارشادات التي قدمها الملك إلى الجمعية الوطنية كان لها أثر كبير في حل قضايا كثيرة. ولعلنا لا نذيع سراً اذا أشرنا إلى قصة المادة التاسعة والستين من الدستور ونصها، كما أقر نهائياً، هو «يعلن الملك الحرب ويعقد الصلح ويبرم المعاهدات ويصدق عليها بعد موافقة مجلس الأمة». هذه المادة كانت اصلا بغير هذه الصيغة، وكانت تجعل في يد الملك قوى أبعد مدى من هذا الذي جاء فيها. لكن جلالته أبى أن يجعل الأمر في يده منفرداً، فأرسل في آخر جلسة للجمعية الوطنية رسالة يتنازل فيها عن سلطاته، ويضع الأمر في يد مجلس الأمة).

هذا مثال واحد من امثلة كثيرة. فقد عرفنا اثناء زيارتنا لطرابلس في صيف ١٩٥١، ان جلالته وجه غير رسالة واحدة إلى الجمعية الوطنية يحث فيها الأعضاء على إنهاء الدستور، بحيث يكون جاهزاً قبل المدة المعينة لحصول ليبيا على استقلالها، حتى لا يكون ثمة ما يؤخره.

وقد لمسنا أثناء اقامتنا هناك هذا الحماس الذي كان يسود القائمين على إعداد أداة الاستقلال، كما عرفنا مع الحماس اتزاناً وتقديراً وافياً للأمور، وشعوراً بالمسؤولية الكبيرة الملقاة على عاتق الناس ـ زعماء وقادة وشعباً. ونحن واثقون ان

اتصالنا بليبيا يسمح لنا بإبداء الرأي، من ان اخواننا الليبيين يتطلعون إلى المستقبل بأمل وحزم ونشاط وعزيمة. انهم لا يعيشون في الماضي، ولكنهم يعيشون للمستقبل.

ان الليبيين الذين ضحوا نصف عددهم في سبيل الحرية، لا يريدون ان يكونوا موضع شك أو مساومة، ولن يسمحوا لأحد أن يتدخل في شؤونهم، ولن يضيعوا وقتهم في مجادلات عقيمة ومناقشات لا جدوى فيها. انهم اعتزموا إقامة دولتهم، وسيتم ذلك لهذا الشعب المجاهد.

التمثيل الشعبي والأنظمة الانتخابية الليبية

١

في اواخر القرن السادس عشر احتلت الدولة العثمانية ليبيا وظلت تابعة لتلك الامبراطورية إلى عام ١٩١٢. هذا باستثناء فترة تمتد من ١٧١١ ـ ١٨٣٥ اذ تمتعت ليبيا بكثير من الاستقلال في ظل الأسرة القرمنلية.

وفي الدور الثاني من الحكم العثماني أي من ١٨٣٥ ـ ١٩١٢ حاولت الدولة العثمانية أن تفرض سلطانها على ليبيا بشكل فعلي. ولما حاولت تركية اصلاح شؤون الامبراطورية أدخلت الكثير من هذه الاصلاحات إلى ليبيا. فعينت محاسباً عاماً، ونظَّمت الأقسام الإدارية في الولاية ووضعت السجلات المتنوعة واعادت تنظيم الضرائب من حيث فرضها وجمعها وانشأت مجالس محلية. ومع أن هذه المجالس المحلية لم تكن انتخابية بالمعنى الصحيح فإنها أتاحت لعدد قليل من الليبيين سكان المدن المشاركة في شؤون بلدهم.

لما نشر الدستور العثماني (١٨٧٦) ثم اجريت الانتخابات في السنة التالية كان حظ ليبيا أن يمثلها في ذلك البرلمان العثماني الأول اثنان من ابنائها هما مصطفى الحمداني وسليمان قبودان. وقد عادا إلى بلادهما على اثر حلّ ذلك البرلمان سنة ١٨٧٨. وفي الانتخاب الذي جرى في سنة ١٩٠٩ بعد خلع السلطان عبد الحميد كان النائبان اللذان انتخبا لمجلس المبعوثان العثماني من الجماعة التي كانت مناوئة لجمعية الاتحاد والترقى.

اختبرت ليبيا، وخاصة برقة، قيام السنوسية في انحائها اثناء الفترة المذكورة من الحكم العثماني. ومع أن السنوسية حركة اصلاحية اجتماعية دينية لا سياسية، فإنها كانت بطبيعة الأحوال والظروف تسيطر على الأقسام الداخلية من البلاد. ولذلك فان الزوايا السنوسية الكبرى التي انتشرت في تلك الجهات حرية بان تكون موضع اهتمام الباحثين في التنظيمات السياسية للبلاد في ذلك الوقت. ومع أن المجالس المختلفة التي كانت تعمل في ليبيا إلى جانب زعيم السنوسية أو إلى جانب شيوخ الزوايا، لم تكن انتخابية بأي معنى قط، فان اختيار الأشخاص فيها كان إلى درجة كبيرة يتأثر برغبات المتقدمين من ابناء تلك الديار.

في سنة ١٩١١ هاجمت ايطالية ليبيا وأخذت باحتلالها تدريجياً. ولم يكن ذلك بالأمر اليسير لأن الليبيين قاوموا الحملة الايطالية مقاومة شديدة وظلوا على ذلك إلى عام ١٩٣١. إلا أن الدولة العثمانية أعلنت في سنة ١٩١٢ استقلال ليبيا والاكتفاء بتعيين زعيم السنوسية نائباً للخليفة في تلك البلاد. وعملت ايطالية بعد ذلك على «طلينة» البلاد وفتحها امام المعمرين من الايطاليين. ورغبة منها في أن تذر الرماد في العيون فقد وضعت دستوراً لتلك البلاد سنة ١٩١٩. كان من ضمن ما اشترط فيه قيام مجلسين انتخابيين في برقة وفي طرابلس الغرب بحيث يكون الانتخاب في الأول على اساس التنظيم القبلي، أما في الثاني فيكون على أساس نائب واحد لكل ٢٠ الف من السكان. وحري بالذكر أن هذا الدستور أو القانون الأساسي ظل حبراً على ورق.

٢

في عام ١٩٤٣ انسحبت الجيوش الايطالية من ليبيا نهائياً ووضعت برقة وطرابلس الغرب تحت الإدارة البريطانية. أما فزان فوضعت تحت الإدارة الفرنسية. ولسنا هنا بمعرض التحدث عن تاريخ ليبيا في هذه الفترة ولكن الذي نريد أن نقوله انه في ٢٤ كانون الأول ١٩٥١ اعلنت ليبيا دولة حرة مستقلة ذات سيادة. ولأسباب كثيرة تاريخية وجغرافية واحوال طارئة رؤي أن يكون شكل الحكومة اتحادياً.

وكان دستور المملكة الليبية المتحدة قد أعد قبل ذلك، على يد الجمعية الوطنية التي اقرته في ٧ تشرين أول (اكتوبر) ١٩٥١.

وقد نص الدستور على حقوق الشعب في المواد ٨ ـ ٣٥ وأهم ما جاء في هذه الناحية:

المادة (١١) الليبيون أمام القانون سواء، وهم متساوون في التمتع بالحقوق المدنية والسياسية وفي تكافؤ الفرص وفيما عليهم من الواجبات والتكاليف العامة لا تمييز بينهم في ذلك بسبب الدين أو المذهب أو العنصر أو اللغة أو الثروة أو النسب أو الآراء السياسية والاجتماعية.

المادة (١٢) الحرية الشخصية مكفولة وجميع الأشخاص متساوون في الحماية أمام القانون.

المادة (٢٢) حرية الفكر مكفولة ولكل شخص الاعراب عن رأيه واذاعته بجميع الطرق والوسائل، ولكن لا يجوز اساءة استعمال هذه الحرية فيما يخالف النظام العام أو ينافي الآداب.

المادة (٢٣) حرية الصحافة والطباعة مكفولة في حدود القانون.

المادة (٢٥) حق الاجتماع السامي مكفول في حدود القانون.

المادة (٢٦) حق تكوين الجمعيات السلمية مكفول وكيفية استعمال هذا الحق

ينظمها القانون. أما الجمعيات السرية والجمعيات التي ترمي إلى تحقيق اهداف سياسية بواسطة منظمات ذات صبغة عسكرية فتكوينها محظور.

وحدد الدستور مسؤولية الوزراء في المادتين (٨٦) و(٨٧) إذ جاء فيهما:

المادة (٨٦) الوزراء مسؤولون تجاه مجلس النواب مسؤولية مشتركة عن السياسة العامة للدولة وكل منهم مسؤول عن اعمال وزارته.

المادة (٨٧) اذا قرر مجلس النواب باغلبية جميع الأعضاء الذين يتألف منهم المجلس عدم الثقة بالوزارة وجب عليها أن تستقيل، واذا كان القرار خاصاً باحد الوزراء وجب عليه اعتزال الوزارة.

ومجلس الأمة الاتحادي نظمه الدستور تنظيماً معيناً، وحدد شروط العضوية في مجلسيّ الشيوخ والنواب. والمواد التالية توضح ذلك:

المادة (٩٣) مجلس الأمة يتكون من مجلسين: مجلس الشيوخ ومجلس النواب.

المادة (٩٤) يؤلف مجلس الشيوخ من اربعة وعشرين عضواً ويكون لكل من ولايات المملكة الليبية الثلاث ثمانية اعضاء.

المادة (٩٥) يعين الملك نصف الأعضاء. وتقوم مجالس الولايات التشريعية بانتخاب الباقين.

المادة (١٠٠) يؤلف مجلس النواب من اعضاء منتخبين في الولايات الثلاث بمقتضى أحكام قانون الانتخاب الاتحادي.

المادة (١٠١) يحدد عدد النواب على اساس نائب واحد عن كل عشرين الف من الأهالي، أو عن كل جزء من هذا العدد يجاوز نصفه بشرط أن لا يقل عدد النواب في أي من الولايات الثلاث عن خمسة اعضاء.

المادة (١٠٢) يشترط على الناخب:

١) أن يكون ليبياً.

٢) أن يكون قد اتم الحادية والعشرين من عمره بحساب التقويم الميلادي وذلك بالاضافة إلى الشروط الأخرى المنصوص عليها في قانون الانتخاب الاتحادي.

المادة (١٠٣) يشترط في النائب:

١) أن يكون قد أتم الثلاثين سنة من عمره بحساب التقويم الميلادي.

٢) أن يكون اسمه مدرجاً بأحد جداول الانتخاب في الولاية التي بها موطنه.

٣) أن لا يكون من أعضاء البيت المالك.

المادة (١٠٨) عضو مجلس الأمة يمثل الشعب كله ولا يجوز لناخبيه ولا للسلطة التي تعينه تحديد وكالته بقيد أو شرط.

وفي الأحكام الانتقالية وضعت مادة عين بموجبها عدد مجلس النواب الأول.

المادة (٢٠٦) في الانتخابات الأولى لمجلس النواب، وإلى أن يتم احصاء سكان ليبيا يكون لولاية برقة خمسة عشر نائباً، ولولاية طرابلس الغرب خمسة وثلاثون نائباً ولولاية فزان خمسة نواب.

وقد تمت الانتخابات الأولى في ليبيا في ١٩ شباط (فبراير) ١٩٥٢.

٣

وتم وضع القوانين الأساسية للولايات الثلاث التي تتألف منها المملكة الليبية المتحدة - برقة وطرابلس الغرب وفزان: فالمجلس التشريعي لولاية برقة قال القانون الأساسي بشأنه:

المادة (٢٦) - يكون لولاية برقة مجلس تشريعي يتألف من عشرين عضواً ينتخب ثلاثة ارباعه بقانون إنتخاب يسن لهذا الغرض، ويعين الملك باقي الأعضاء بناء على عرض رئيس المجلس التنفيذي وبموافقة اعضائه وبالتشاور مع الوالي.

المادة (٣٢) - يشترط في الناخب لأعضاء المجلس التشريعي:

١ - أن يكون ليبياً ذكراً.

٢ - أن تبلغ سنه إحدى وعشرين سنة ميلادية على الأقل.

٣ - الا يكون من اعضاء الأسرة المالكة.

٤ - أن يكون قادراً على الكتابة والقراءة باللغة العربية بطلاقة.

٥ - أن تتوفر فيه أي شروط أخرى يتطلبها قانون الانتخاب أو غيره من قوانين البلاد.

وجاء في القانون الأساسي لولاية فزان ما يلي:

المادة (٩) - السلطة التشريعية في ولاية فزان في جميع المسائل التي لم يحتفظ بها في الدستور للاتحاد الليبي يتولاها الوالي ومجلس تشريعي.

المادة (١٠) - يتكون المجلس التشريعي من سبعة عشر عضواً ينتخبون طبقاً لأحكام قانون الانتخاب الذين يسن لهذا الغرض.

المادة (١١) - كل ليبي له حق التصويت لمجلس الأمة ومسجل اسمه كناخب في سجل الناخبين في ولاية فزان يكون له ايضاً حق التصويت للمجلس التشريعي.

٤

يتضح مما مر بنا أن الدستور الاتحادي والقوانين الأساسية للولايات ضمنت حقوقاً دستورية وحددت سبل تحقيقها. إلا أن هناك بضعة أمور لا بُدّ أن نذكرها لأنها تلقي ضوءاً على الواقع في تلك البلاد، ولعل ذلك يحدد الأمور تحديداً اصح من الناحية العلمية.

١ - البلاد واسعة جداً اذ تبلغ مساحتها نحواً ١,٧٥٠,٠٠٠ من الكيلومترات المربعة. ولذلك فأجزاؤها مترامية متباعدة، والمواصلات بين المدن في الشمال والواحات في الجنوب قليلة.

٢ ـ عدد السكان، في هذه الرقعة الواسعة، قليل. فسكان ليبيا لا يتجاوزون ١,٢٥٠,٠٠٠ نسمة. وهم موزعون على الشكل التالي:

طرابلس	٨٠٠,٠٠٠ ـ ٨٥٠,٠٠٠
برقة	٣٠٠,٠٠٠ ـ ٣٥٠,٠٠٠
فزان	٥٠,٠٠٠
٣ ـ عدد سكان المدن نحو	٢٠٠,٠٠٠
سكان الريف المستقرون	٤٠٠,٠٠٠
البدو أو ما يشبه ذلك	٦٠٠,٠٠٠

٤ ـ الحياة القبلية قوية بسبب الأوضاع الجغرافية والاقتصادية والتطور التاريخي.

٥ ـ بسبب خضوع البلاد لايطالية مدة طويلة حرم السكان التعليم الصحيح لمدة طويلة. لذلك فنسبه الأمية كبيرة. مع أن الحكومة الليبية قامت بجهود جبارة في سبيل التعليم، فان الجيل الذي يمارس الحياة النيابية ويتقدم للانتخابات هو الجيل الذي حرمته ايطالية نعمة العلم والمعرفة.

٦ ـ الصحافة الليبية، وخاصة بين ١٩٤٣ ـ ١٩٥٥، لم تتمكن من القيام بواجبها التثقيفي في الناحية السياسية لأسباب كثيرة.

ومن هنا نرى أن ثمة عقبات جعلت الحياة البرلمانية والتمثيل المرتبط بها شيئاً لا يزال في أول أمره. لكن الذي يراقب التقدم الذي اصابته البلاد في هذه السنوات العشر، لا يستطيع إلا أن يستبشر خيراً في المستقبل القريب.

ليبيا: عشر سنوات من الاستقلال

١

في ٢٤ كانون الأول (ديسمبر) الماضي احتفلت ليبيا بمرور عشر سنوات على استقلالها، الذي اعلن سنة ١٩٥١. واستقلال تلك البلاد وما تبعه قصة شيقة من قصص الكفاح والعمل السياسي المستمر المثمر في دنيا العرب. ففي سنة ١٩١١ احتلت ايطالية أولى الموانىء الليبية. وفي السنة التالية خرجت تركية من البلاد معلنة استقلالها، لكنها، في الواقع، تركت لليبيين أمر مقاتلة الايطاليين والدفاع عن البلاد. وقد استمر هذا الأمر نحواً من عشرين سنة، انتهت بان استولت ايطالية على البلاد بكاملها بعد أن سجل الليبيون، افراداً وجماعات، رجالاً ونساء، شيباً وشباناً، صفحات من البطولة خالدة. وانصرفت ايطالية إلى البلاد تعدها لابنائها وتعيد فيها ما حسبته من أمجادها بوصفها وريثة الامبراطورية الرومانية.

ويمكن اجمال السياسة الايطالية في ليبيا بما يلي:

لقد شردت ايطالية زعماء السنوسية، وأغلقت الزوايا، وصادرت أملاكها، وأقصت الزعماء عن بلادهم وأجلت السكان عن اراضيهم، وملّكت هذه الأراضي الخصبة في الجبل والسواحل لشركة (أنته) الايطالية لاستعمارها. وحتى البساتين ومزارع النخيل التابعة للسنوسية صادرتها السلطات الايطالية.

وصارت الإدارة الإيطالية للبلاد ادارة عسكرية مباشرة هي ادارة الفئة الغالبة للجماعة المغلوبة. وفي عام ١٩٢٩ جعلت البلاد (طرابلس وبرقة) جزءاً من المملكة الايطالية، وصارت الولايات الأربع الليبيبة (طرابلس ومصراته وبني غازي ودرنة) ولايات ايطالية بكل معنى الكلمة، وسن قانون للرعوية أصبح بموجبه في برقة رعايا ايطاليون كاثوليك ورعايا ايطاليون مسلمون.

على أن المهم، في هذا كله، هو أن الجزء الصالح للاستغلال من اراضي ليبيا أصبح وقفاً على الايطاليين لا يجوز للعرب أن يتملكوا فيه أرضاً أو ينشئوا فيه مزارع. ففي برقة مثلاً استولى الايطاليون على الجبل الأخضر. وأما البدو فقد سمح لهم أن يقيموا في برقة البيضاء وبعض برقة الحمراء وسرته وفي مر مريقة وهي شرق برقة، أي في الجناحين المجدبين، بينما حيل بينهم وبين الجبل الأخضر قلب برقة الخفاق

وعصبها. وحتى في الجهات المتروكة للبدو عيّنت ايطالية الأماكن التي يجوز لقطعانهم أن تسرح فيها. ومثل هذا تماماً جرى في طرابلس.

واهتمت ايطالية اهتماماً كبيراً بعزل ليبيا بكاملها عن العالمين العربي والاسلامي. فأنشأت مدرسة دينية إسلامية في طرابلس، لتمنع طلاب العلم من السفر إلى الأزهر أو جامع الزيتونة في تونس.

جردت ايطالية السكان من أراضيهم، وفي عامي ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦ كانت السلطات قد سجلت ٤٥٠,٠٠٠ من الهكترات باسم حكومة المستعمرة. وهيئت الأرض للمعمرين الايطاليين، وجيء بأول جماعة كبيرة إلى ليبيا منهم (٢٠,٠٠٠) سنة ١٩٣٨ ولعل نصف هؤلاء جاءوا برقة. وإذا أضفنا الذين كانوا في برقة قبلا في المدن وفي القرى، يصبح العدد كله نحو ٣٠,٠٠٠ ألفاً أو يزيد. وكانت ثمة شحنة جديدة من الايطاليين على وشك الرحيل، لكن نشوب الحرب أوقفها. وكان مجموع الايطاليين في ليبيا سنة ١٩٣٩ نحو ٧٠,٠٠٠ ـ ٧٥,٠٠٠.

جهّل الايطاليون السكان لا في شؤون العلم فقط، ولكن في كل ناحية من نواحي العمل الماهر. وقد امتص الايطاليون عصارة القوم جيلاً كاملاً، فتركوهم وكأنهم فقدوا نشاطهم. ومن هنا كان الزعم الخاطىء، عند أولئك الذين لم يفهموا الحالة تماماً، بأن الليبيين قوم كسالى. والواقع أنهم ليسوا كذلك. إنهم شعب نشيط يتمتع بقوى كثيرة كامنة، هي التي مكنته من أن يحتفظ بوجوده، ويتقدم هذه الخطوات الواسعة، على ما نشاهده فيه منذ أن رفع عنه الكابوس الايطالي، وخاصة منذ الاستقلال.

فتحت الحرب العالمية الثانية المجال امام الليبيين لتحقيق آمالهم في الاستقلال. ففي مطلع عام ١٩٤٣ أُجلي الجيش الايطالي نهائياً عن البلاد، وتسلمت بريطانية ادارة برقة وولاية طرابلس الغرب، كما عهد إلى فرنسة بادارة فزان. وبين سنتي ١٩٤٣ و١٩٤٩ عرضت القضية الليبية على المحافل الدولية باشكال مختلفة، وبدأت حولها مساومات واتفاقات أكثرها في الخفاء. لكن الله كان يدبر للبلاد وأهلها شيئاً آخر. فقد كان في اختلاف الدول الكبرى بركة على ليبيا، فانتهى الأمر أن اصدرت الأمم المتحدة قرارها بتاريخ ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٤٩ القاضي باستقلال ليبيا، على أن يتم ذلك قبل أول سنة ١٩٥٢. ومرت سنتان وكل يعمل في سبيل تحقيق الأمنية ـ الكل من الملك ادريس إلى رجال البلاد وشبابها. وفي ٢٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥١ اعلن الاستقلال.

وها قد مرت عشر سنوات عليه، واحتفل بعيده العاشر. فما الذي حققته ليبيا في هذه الفترة؟

جاء في الكلمة التي وجهها الملك إلى شعبه لمناسبة عيد الاستقلال العاشر قوله:

«إذا كانت السنوات العشر الماضية سنوات كفاح في سبيل العيش فان السنوات المقبلة ستعم بالرخاء باذن الله تعالى بما منّ الله به علينا من خيرات أراضينا. ولكن الكفاح من الآن لن يكون أقل صعوبة من كفاح السنين العشر الماضية. فللرخاء مشاكل يتحتم علينا جميعاً مواجهتها وحلها بما يعود على الشعب الليبي في مجموعه بالرخاء والتقدم، وللوصول إلى هذه الغاية يجب علينا التسلح بالأخلاق الكريمة والتمسك بأهداب الشريعة. إن من النتائج السيئة التي يحملها الرخاء معه ميل الناس إلى حب الاثراء والانغماس في الملذات والبذخ والافراط والميل إلى الراحة والكسل. فهذه كلها أسباب ضعف وانحلال أحذركم من مغبتها وأوصيكم باجتنابها وليكن رائدنا الاخلاص لديننا ووطننا وشعبنا وأسأل الله أن يعيد هذا العيد عليكم باليمن والرفاهية والاستقرار».

وقال المستر ادريان بلت، الذي كان مفوضاً للأمم المتحدة في ليبيا في السنتين اللتين سبقتا الاستقلال «وأود أن أعود اليوم، في الذكرى السنوية العاشرة للاسقلال، لأرى انه بالرغم من العقبات والصعوبات المختلفة التي لا يتوقع مثلها إلا في مثل هذه المجازفة الجريئة الجديدة. فان الوحدة الليبية قد ازدادت قوة ومنعة، كما ارتفع مستوى المعيشة في البلاد بشكل مرضٍ جداً. أضف إلى ذلك ان المملكة الليبية المتحدة تحتل الآن مكانة مرموقة في المجتمع الدولي».

وإذا كان الملك قد أشار إلى سني الكفاح الطويلة التي مرت على ليبيا قبل أن تعرف النفط، فهذه الإشارة، هذه الكلمات القليلة، تحمل في طياتها الكثير. ذلك ان موارد الرزق في تلك البلاد محدودة، والأرض الخصبة القليلة هناك قد تتعرض لجفاف وقحط يقلل من قيمتها، وعندئذ يصبح الأمر شديد الخطر. كان هذا حال ليبيا من قبل، ولكن المسألة زاد خطرها لأن الإدارة التي أنشئت في ليبيا كانت ادارة كبيرة متسعة. وكانت على الحكومة واجبات كثيرة لا أول لها ولا آخر. فالواقع ان الشيء الوحيد الذي كانت البلاد تعرفه هو العزم والنية الصادقة والرغبة الأكيدة في السير إلى الأمام. لكن الإطار الاداري ـ العادي والفني ـ والتعليم والشؤون الصحية والزراعة والصناعة ـ كل هذا وكل شيء آخر كان يجب ان يبدأ به من الأول. صحيح ان بعض هذه الأمور كانت موضع عناية الإدارة البريطانية بين ١٩٤٣ و١٩٤٩، ولكن ذلك كان بداءة متواضعة، ثم هو عمل إدارة اجنبية من جهة، وموقتة من جهة أخرى. فلما اضطلعت الإدارة الوطنية بالأمر وانصرفت اليه انصرافاً جدياً، كان عليها أن تقيم كل شيء من الأساس، من البدء.

٣

يقول السيد عبدالله المجيد، مقدراً الشوط الذي قطعته بلاده ليبيا في سنوات الاستقلال العشر: «لقد حققنا انتفاضة كبرى إذا قسنا ذلك بالحالة التي كانت عليها البلاد قبل عشر سنوات. لقد أقمنا مدناً بعد أن كانت أطلالاً، وحققنا نهضة عمرانية

كبرى ومشاريع لا يستهان بها، وكوّنا لها جهازاً حكومياً من ابنائنا وعقدنا العزم على مواصلة البناء والتشييد. فالذي زار ليبيا قبل عشر سنوات قد لا يصدق هذه الانتفاضة العارمة والخطوات الحثيثة التي قطعناها برغم قلة امكانياتنا وعوامل الطبيعة وسني الجفاف التي أتت على الثروة الزراعية والحيوانية. ولو تحققنا في الأمر وقارنا بيننا وبين كثير من الدول التي سبقتنا بمراحل من السنين في النهضة الفكرية والعمرانية لنستخلص من ذلك أننا أصبحنا اليوم لا نقل عنها في أهم الميادين برغم أن عهد استقلالنا المجيد لا يتعدى أصابع اليدين. كما أن الرخاء في المعيشة الذي تتمتع به بلادنا قل ان يوجد في بلد آخر. فكلنا نعلم أن نظام البطاقات التموينية لا زال معمولاً به في كثير منها وذلك يدل على أن الحكومة الليبية يهمها كثيراً أن تهيّىء سبل الحياة الرغدة للشعب الليبي الكريم وهي لذلك تتحمل نفقات في استيراد جميع المواد الضرورية، كما تقوم بتشجيع الصناعة والزراعة والتجارة وجميع المرافق التي تهيّىء للأمة الاعتماد على نفسها».

ونحن، باعتبار اهتمامنا بالشؤون التعليمية، نقدر قيمة تطور التعليم في أي بلد، نود أن نقدم للقارىء إحصائية تعليمية تظهر مدى الخطى التي قطعتها تلك البلاد العزيزة، والتي ستكون اضعاف ذلك في المستقبل بسبب ما ظهر في باطن الأرض من ثروة ستساعد الليبيين على السير قدماً في مشاريعهم المختلفة.

(١) المدارس الابتدائية

	١٩٥١	١٩٥٦	١٩٦١
طرابلس	١٣٤	٢٠٢	٢٨٩
برقة	٥٩	١٣٢	٢١١
فزان (١٩٥٣)	١٧	٤٢	٦٣
المجموع	**٢١٠**	**٣٧٦**	**٥٦٣**

(٢) طلاب المدارس الابتدائية

	١٩٥١	١٩٥٦	١٩٦١
طرابلس	٣٢,١٨٨	٣٩,٢٩٦	٧٢,٩٧٦
برقة	٨,٩٠١	٢٢,٨٦٤	٤٠,٥٦٤
فزان (١٩٥٣)	١,٠٠١	٣,٠٠٤	٦,٧٩٣
المجموع	**٣٣,٠٩٠**	**٦٥,١٦٤**	**١٢٠,٣٣٣**

(٣) البنات في المدارس الابتدائية

	١٩٥١	١٩٥٦	١٩٦١
طرابلس	٢,٩٢٣	٧,٠١٨	١٢,٠٧٣
برقة	٧٠٠	٣,٩٨٤	٩,٧٨٤
فزان	-	١٩٣	٩١٥
المجموع	٣,٦٢٣	١١,١٩٥	٢٢,٧٧٢

(٤) المدارس الثانوية (بما في ذلك الاعدادية)

	١٩٥١	١٩٥٦	١٩٦١
طرابلس	٢	٤	٦٢
برقة	٢	٩	٢٣
فزان	-	-	١
المجموع	٤	١٣	٨٦

(٥) الطلاب في المدارس الثانوية

	١٩٥١	١٩٥٦	١٩٦١
طرابلس	٤١٤	٢,٥١٢	٧,١٤٥
برقة	١٩٨	٧٦٤	٣,٨٩٢
فزان	-	-	٤٧٤
المجموع	٦١٢	٣,٢٧٦	١١,٥١١

(٦) البنات في المدارس الثانوية

	١٩٥١	١٩٥٦	١٩٦١
طرابلس	؟	٥٠	؟
برقة	١٥	٤٥	٣٤٧
فزان	-	-	-

(٧) تعليم البنات في فزان

	مدرسة	طالبات	مدرسات
١٩٥٤ ـ ١٩٥٥	١	٤٥	٢
١٩٦٠ ـ ١٩٦١	١٢	٩٥١	٣٣

وهناك ٢١١ طالبة يدرسن في مدارس البنين.

(٨) وفي سنة ١٩٦٠ ـ ١٩٦١ الدراسية كانت في ليبيا المعاهد التالية:

	طرابلس		برقة		فزان	
	عدد المعاهد	عدد الطلاب	عدد المعاهد	عدد الطلاب	عدد المعاهد	عدد الطلاب
معاهد معلمين	٤	١٤٨٤	١	٢٠٤	١	١٠٠
معاهد معلمات	١	٥٨٦	١	٢١		
معهد الهندسة التطبيقية	١	٦٧	ـ	ـ		
معهد الاشغال اليدوية	١	٣٠				
المدرسة الزراعية	١	٧٧	١	١٢٢		
المدرسة التجارية	١	٢٧١	٢	١٣٨		
المدرسة الصناعية	١	١٦٦	١	٨٨		

أما التعليم العالي فلم يبدأ في ليبيا إلا في ١٩٥٥ حيث افتتحت أول جامعة ليبية بكلية واحدة هي كلية الآداب. وفي ليبيا الآن ايضاً كلية للتجارة وأخرى للعلوم، وتضم الجامعة في مجموع كلياتها نحو الف طالب.

القسم السادس

في الحياة الفكرية والأدبية المعاصرة

السنوسية

١

السنوسية حركة إصلاحية ترجع في أصولها إلى رغبة في التمسك بأهداب التعاليم الاسلامية الصحيحة، ونفض ما علق بالاسلام من أمور خارجة عنه سببها الجهل. وقد ظهرت الدعوة أولاً في الحجاز، لكن السيد محمد بن علي السنوسي اتخذ في النهاية ليبيا مجالاً لعمله، فارتبطت هذه الحركة الاصلاحية بليبيا وخاصة ببرقة. ورغبة منا في توضيح السنوسية إلى القراء الكرام نرى ان نعالج الموضوع في ثلاثة أقسام: الأول ترجمة للسيد محمد بن علي وابنه السيد المهدي، والثاني عن تعاليم السنوسية، والثالث عن الزاوية السنوسية ومنزلتها في الحياة العامة والخاصة.

السيد محمد بن علي، السنوسي الكبير: ولد السيد علي في ضاحية من ضواحي مستغانم بالجزائر في ١١ ربيع الأول سنة ١١٠٢ للهجرة (١١ كانون الأول - ديسمبر ١٧٨٧م) على أصح الروايات. ويتصل نسبه الشريف بالحسن بن علي بن ابي طالب وفاطمة الزهراء بنت الرسول؛ اما تسمية الأسرة بالسنوسية فترجع إلى جده الرابع السيد السنوسي الذي كان من كبار علماء المسلمين، وقبره بتلمسان.

والأسرة التي ترعرع فيها السيد محمد بن علي كانت اسرة علم وتقدم واحترام في محلة الواسطة، ولذلك لم يكن من الصعب على السيد محمد ان يرتشف من مناهل العلم الصحيح منذ حداثته. وقد تولت والدته العناية به في هذا الدور الأول من حياته. فلما استكمل هذا الدور، وكان بعد صبياً، أقبل على العلم يرتشف منه ما يسرته له مستغانم ثم مازونة. وحتى في هذا الدور المبكر من حياته المليئة بالتفكير والعلم، كان قد أدرك ان العالم الاسلامي أصبح بحاجة إلى الاصلاح، فاتجهت همته القعساء نحو هذا الأمر. وحفزه هذا على الاستزادة من العلم، فانتقل إلى فاس، التي كانت من مراكز العلم والعلماء في ذلك الوقت، فأقام بها سبع سنوات (١٨٢٢ - ١٨٢٩) طالباً للعلم فيها، ثم مدرساً بجامعها الكبير، حيث اكتسب ثقة طلابه، ونال شهرة عظيمة لقوة عارضته، وسعة علمه ونضج تفكيره وإدراكه كنه روح الاسلام الصحيح، فأقبل الناس عليه ينهلون مما عنده. وفي هذه الفترة اهتم السيد محمد بالصوفية اهتماماً اساسه اعتقاده بأن سبيل الاصلاح الاول هو ايجاد التفاهم بين جميع المهتمين بالاسلام أفراداً وجماعات على تباعد

الاقطار والديار. فدرس القادرية والشاذلية والناصرية والحبيبية. وآلمه كثيراً ان وجد أن كثيرين من علماء المسلمين كانت تعوزهم الحماسة العلمية والايمان القوي اللازم لنشر الدعوة الصحيحة بين المسلمين إلى اهتمام بشؤونهم الخاصة ومصالحهم الذاتية. فأرادهم على ان يوجهوا عنايتهم إلى المصلحة العامة ليعود الخير على جميع المسلمين.

ورغب السيد في ان يوسع نطاق عمله وتعليمه، وفي الاغتراف من مناهل العلم الاسلامي، فترك فاس إلى لاغوات، في جنوبي الجزائر، وهي ملتقى هام للقوافل الآتية من السودان الغربي، وهناك القى دروسه الدينية على أكبر عدد ممكن من الراغبين. ثم سار إلى قابس وطرابلس (الغرب) وبني غازي، ومنها يمم شطر الأزهر. فجاء القاهرة أيام محمد علي، فأقام في الأزهر مدة يتعلم ويعلم، ويناقش ويجادل، وينشر في الناس عقيدته في اصلاح العالم الاسلامي عن طريق بث المبادىء الأصلية للاسلام. ولعل هذه الزيارة الأولى لمصر اقنعت السيد، ان كان بعد بحاجة إلى اقناع، بان الدولة العثمانية، رغم ما أخذت به نفسها من محاولة الاصلاح في شؤونها، كانت قد تدنت وتأخرت بحيث لم يعد فيها رجاء. لكنه كان يأمل بعد في ان تصلح هي، متى صلح العالم الاسلامي، ومن ثم فيجب ان تظل دولة الخلافة قائمة.

ورغب السيد في الذهاب إلى الحجاز. فهناك المكان الذي يلتقي فيه المسلمون من جميع اقطار العالم. فزيارة الأقطار المقدسة، ستتيح له فرصة الاتصال بالمسلمين على اختلاف اقطارهم، وتنائي ديارهم. وهناك يلتقي بأساطين العلم، فيتزود من صحبتهم ما كان يحسب انه فاته في اتصاله بشيوخه الأوائل. وقد اقام السيد محمد بن علي في الحجاز إلى عام ١٢٥٦/١٨٤٠، حيث التقى بعدد من المشايخ الكبار واقطاب رجال الدين، من بينهم الإمام أبو العباس أحمد بن عبدالله بن ادريس الفاسي وغيره، وحصل منهم جميعاً على إجازات. وقد رافق السيد محمد الادريسي الى صبيا، ثم عاد الى مكة بعد وفاة الادريسي حيث انشأ السيد بن علي زاويته الأولى في ابي قبيس سنة ١٢٥٣ هـ/١٨٣٧). وهذا التاريخ هو المعتبر بدء قيام الطريقة السنوسية، وأتبعها بزوايا في الطائف والمدينة المنورة وبدر وجدة وينبع. لكنه لم يلبث ان غادر الحجاز (سنة ١٢٥٦/١٨٤٠) إلى مصر ومنها إلى طرابلس (الغرب) بطريق واحة سيوه والجبل الأخضر. وكان ينوي السفر إلى الجزائر، لكنه خشي الفرنسيين الذين كانوا قد احتلوا الجزائر قبل ذلك بمدة قصيرة. وفي رمضان ١٢٥٧ (١٨٤١) وصل إلى بني غازي تاركاً امر الجزائر موقتاً. وفي عام ١٨٤٣ انشأ «الزاوية البيضاء» في الجبل الأخضر، فكانت أم الزوايا السنوسية. ويمكن القول بأن السيد محمد بن علي أصبح من الآن يضع خططه لاصلاح حال المسلمين في برقة، ليكوّن منهم أمة يرشدون الناس إلى الخير.

زار السيد الحجاز مرة ثانية، ولما عاد من الاقطار المقدسة عام ١٨٥٦، نقل مركزه من «الزاوية البيضاء» إلى الجغبوب، ذلك ان الجغبوب كانت اكثر توسطاً وأسهل

اتصالاً بأنحاء مختلفة من برقة وطرابلس والسودان (الذي يسمى الآن السودان الغربي)، كما كانت مركزاً كبيراً للقوافل، ومن ثم يسهل عليه الاتصال بجميع هؤلاء الذين اراد ان يعلمهم الاسلام من جديد، أو ينشر بينهم الاسلام لأول مرة في أواسط افريقية. ذلك ان السيد أدرك ان الغرب (الجزائر) كان فيه الفرنسيون، وهم أشد ما يكونون حرصاً على الحيلولة دون انتشار السنوسية ونفوذ اصحابها هناك، والشرق (مصر) كان لا يشجع على العمل، فظلت الاجزاء الوسطى من شمال افريقية (ليبيا) وأواسط القارة صالحة للعمل. ويلزمها العمل فعلاً.

أقام في الجغبوب مركزاً كبيراً له ولاتباعه ومريديه، وجعل منها جنة بعد ان كانت واحة صغيرة، وانشأ فيها مدرسة دينية كبيرة قوامها مكتبة من ثمانية آلاف مجلد فيها كتب الفقه والشرع والحديث والتاريخ والتفسير والفلك والتنجيم والفلسفة والتصوف، وعمادها اولئك التلاميذ المخلصون الذين رافقوا السيد في دراسته وأسفاره، فصاروا ممن يعتمد عليهم في التدريس، وكان فيها ثلاثمئة طالب يعدون الاعداد الصحيح ليكونوا دعاة هداية وحملة نور الاسلام إلى المناطق التي اراد السنوسي الكبير ان ينشر فيها هدى الاسلام. وكان السيد يشرف على كل هذه الأمور إشرافاً شخصياً مباشراً، ليتأكد من ان كل رجل أعد على خير سبيل، قبل ان يوكل اليه القيام بمهمته. وقد كانت الجغبوب أكبر مركز علمي في شمال افريقية، بعد القاهرة.

ومن الجغبوب انتشر هؤلاء الدعاة يعون في صدورهم العلم الذي تلقوه، ويحملون في قلوبهم ايماناً اقرب ما يكون إلى إيمان علماء صدر الاسلام ، وتمتلىء نفوسهم رغبة في التضحية.

وكان من جراء ذلك ان القبائل العربية في برقة التي كانت شديدة الاختصام فيما بينها، تقضي وقتها في احتراب وسرقات وأعمال الشقاوة، سادت بينها الألفة، وعادت اليها تعاليم الاسلام تهذب من اخلاق ابنائها، وقام رجال السيد يحلون الخصومات بالحسنى. ثم أخذ الاسلام ينتشر في «وادّاي». ولعل خير ما يمثل نفوذ السيد واثره في الناس ان تتقدم جماعة من إحدى واحات «الكفرة»، طالبين منه ان ينشىء زاوية في جهاتهم، ليكون لهم حظ في هذه الهداية التي أخذت تنشر في تلك الربوع. فانشئت هناك الزاوية الأولى في واحة «الجوف». أما الوسائل التي اتبعها السيد في نشر الاسلام في وادّاي مثلاً، فتدل عليها قصة قافلة العبيد التي كانت تحمل إلى الشمال. فان السيد اشترى القافلة، وأخذ هؤلاء العبيد فحررهم ثم علّمهم الاسلام وهذبهم بهديه، ثم ارسلهم دعاة ومبشرين بين ذويهم. فكان اثر ذلك عجيباً في الناس.

وفي ٩ صفر ١٢٧٦ (٧ ايلول ـ سبتمبر ١٨٥٩) توفي السنوسي في الجغبوب، حيث لا يزال قبره إلى الآن.

وهكذا لما وافت السيد محمد بن علي السنوسي الكبير، منيته كانت السنوسية

قد استقرت أركانها في برقة ووادّاي وطرابلس وغيرها. وكانت شخصيته قد فرضت نفسها على الذين خلفهم، بحيث ان السنوسية كانت قد اكتسبت فعالية وحيوية كتب لها ان تزداد نشاطاً وقوة على ايدي خلفائه.

السيد المهدي، الخليفة الأول: ولد السيد المهدي عام ١٢٦٠ هـ/١٨٤٤ في الزاوية البيضاء، وولد اخوه السيد محمد الشريف بعده بعامين. فلما توفي السنوسي الكبير كان الابن الأكبر بعد حدثا، فأقيم مجلس وصاية من عشرة من الشيوخ، ليعنى بأمور السنوسية إلى ان يبلغ السيد المهدي رشده. فلما تم ذلك اعتنى هو بادارة السنوسية وتوجيهها، وانصرف السيد محمد الشريف إلى الشؤون التعليمية.

وفي زعامة السيد المهدي (١٢٧٦ هـ/١٨٥٩ م ـ ١٣٢٠ هـ/١٩٠٢) وصلت السنوسية إلى ذروة قوتها وانتشارها. ومما عمله السيد المهدي، في سبيل التمكن من الاشراف المباشر على هذه الامبراطورية الواسعة، نقل مركز السنوسية من الجغبوب إلى الكفرة (١٣١٣ هـ/١٨٩٥)، التي «أصبحت المركز التجاري الرئيسي الذي تلتقي فيه القوافل من جميع انحاء افريقية الوسطى والشمالية». وكان هؤلاء التجار وقوافلهم سبيلاً لنشر الاسلام في الجهات النائية. ومركز الادارة السنوسية كان في «التاج»، ومنها وصلت الدعوة السنوسية، حاملة الاسلام، إلى بلاد كوروتبستي وبركو وأنّدى ودارفور ووادّاي وكانم وتشاد وأزقر وبغرمي.

وخطب ود السيد المهدي غير مرّة. فقد رغب المهدي السوداني في محالفته، وطلب العرابيون مساعدته ١٣٠٠ هـ/١٨٨٢ وتقدمت اليه ايطالية راغبة في الاتفاق معه على مقاومة التقدم الفرنسي في تونس (١٢٩٩ هـ/١٨٨١). وحتى السلطان العثماني طلب منه العون في حربه ضد الروسيا (١٢٩٣/١٨٧٦ ـ ١٢٩٦/ ١٨٧٨)، وجرب الالمان ان يحصلوا على عون منه ضد فرنسة في افريقية (١٢٨٩ هـ/١٨٧٢). لكن السيد المهدي رفض جميع هذه العروض والطلبات، وفضل ان يظل بمنأى عن النزاع الدولي، ليتم له نشر الاسلام واصلاح احوال المجتمع المسلم الذي نذر نفسه له، شأن ابيه من قبل. لكنه اضطر هو وخلفه إلى محاربة الفرنسيين، لما تقدم هولاء إلى اواسط أفريقية، رغبة منهم في سبق السنوسية إلى السيطرة على تلك الاصقاع، كما اضطر خلفه، السيد أحمد الشريف، إلى محاربة ايطالية لما همت بليبيا (١٣٣٠ هـ/١٩١١).

وفي الوقت الذي توفي فيه السيد المهدي (١٣٢٠ هـ/١٩٠٢)، كانت السنوسية قد بلغت الذروة في الانتشار. والباحثون متفقون على أنه كان لها آنئذ ١٤٦ زاوية موزعة على النحو التالي:

برقة	٤٥	مصر	٢١	بلاد العرب	١٧
ايالة طرابلس	١٨	فزّان	١٥	الكفرة	٦
السودان	١٤				

٢

وبعد فما هي قواعد الدعوة السنوسية؟ وما هي الرسالة التي حملها السيد محمد بن علي، وخلفاؤه، وشيوخ الزوايا عنه إلى الناس، فاقبلوا عليها؟

كانت دعوة السيد السنوسي أساسها الاسلام الصحيح، لا الاسلام الذي داخلته البدع. ومن ثم كانت الدعوة السنوسية أساسها العودة بالاسلام إلى ما كان عليه الرسول الكريم وخلفاؤه الاقربون. ولذلك كان القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هما الاصلين اللذين يصح الاعتماد عليهما في فهم الاسلام، دون الاجماع والقياس المتأخرين.

وكان السنوسي الكبير يعتبر أن باب الاجتهاد لم يقفل، وبذلك يجوز الاجتهاد، على ان يقتصر الاجتهاد في الاسلام على الأسين الأوليين والوحيدين وهما الكتاب الكريم والسنة المحمدية.

ومن حيث ان الدعوة السنوسية كانت عوداً إلى الاسلام في أصله وجوهره، فقد كانت دعوة لم تقتصر على العبادة والتصوف، ولكنها أرادت المسلمين ان يكونوا عباداً عاملين منتجين نشيطين يعيشون من كد ايمانهم. ويبدو هذا واضحاً في الزوايا التي كانت تحوي المساجد والمدارس والمزارع والمتاجر، ويقوم الاخوان فيها بالعمل دون توانٍ أو تواكل أو كسل. ولعل خير ما يمثل هذه الروح التي ارادها السيد السنوسي الكبير ان تكون روح الجميع هو ان إنشاء بناء الزاوية نفسه كان يجب أن يقوم به أهلها. فالزاوية، إذن، منذ وضع حجرها الأساسي كانت رمزاً للنشاط والانتاج.

وقد اهتم الكثيرون من الباحثين في درس الصلات المختلفة بين السنوسية والطرق الصوفية لأخرى، وخاصة التي نشأت في شمال افريقية. والذي لفت النظر في ذلك ان السنوسي الكبير نفسه درس عدداً كبيراً من هذه الطرق الصوفية وتتلمذ على شيوخها، مثل التيجانية والشاذلية والأدريسية والقادرية. وبعض هؤلاء الباحثين، من الأجانب، كان يهتم بالأمر من حيث قيمته العلمية فحسب. لكن كثيرين منهم، وفي مقدمتهم الباحثون الايطاليون، كانوا يرمون من وراء ذلك إلى التقليل من شأن السنوسية على أساس اعتبارها طريقة دينية صوفية لا تهتم بغير العبادة والزهد والتقشف. وهذا، في نظرهم، يبرر تصرفهم في الاستيلاء على ليبيا مثلاً، اذ ليس هناك رئاسة مدنية، وخاصة بعد أن سلمها الاتراك العثمانيون إلى الايطاليين (سنة ١٣٣١ هـ/١٩١٢).

لكن الذي وصل اليه الباحثون المنصفون، والذي يتفق مع الواقع والحقيقة والتاريخ، هو ان السنوسية كانت من أول الأمر دعوة دينية مدنية. فالحقيقة هي انه إذا كانت السنوسية دعوة إلى الناس أن يعودوا إلى الاسلام الصحيح كما عرفه المسلمون في أول عهده، فالاسلام، مبدئياً، لم يفرق بين الدين والدولة، ولم يعتبر نفسه انه جاء

ليضمن للناس الحياة الأخرى دون العناية بالحياة الدنيا الصالحة. واذن فمن الطبيعي ان تكون دعوة الداعي إلى مبادىء الاسلام قوامها الايمان الصحيح والعمل الصالح والانتاج والتنظيم السياسي، داخل هذا الاطار العام الذي عرفه الاسلام وقبل به المسلمون الصالحون في جميع اطوار تاريخه.

واذا كان السنوسي الكبير وخلفاؤه دعوا الناس لأن يتخذوا من حياة الرسول الكريم مثلاً أعلى يحتذونه، ونموذجاً أسمى يحاولون الوصول اليه، فجدير بهم ان يدعوا الناس إلى كل ما اهتم به الرسول الكريم، وحياته كانت خير ما يصح ان يقتدى به في النظر إلى الحياتين نظرة مثلى. ولذلك فقد كانت الدعوة السنوسية هي العمل للآخرة كأن المرء مائت غداً، والعمل للدنيا كأنه عائش ابداً.

وإذا كان السنوسي يدعو الناس إلى تنقية الاسلام مما علق به من البدع والضلالات، فلا شك انه ما كان ليرضى، لمن يقبل دعوته ان يسمح لشيء من هذه البدع في ان تساور حياته، أو تمازجها. وهذه السنوسية تخلو أذكارها من كثير مما تسمح به بعض الطرق الصوفية التي يعيش اتباعها عيشة الزهد والكسل والخمول، وصرفت الوقت في العبادة فقط والعيش على ما يتصدق به الناس، فليتقوا الله في هذا الأمر. فالسنوسية دعوة بريئة صادقة قوية عنيفة للسير على سبل الاسلام القويمة، والاغتراف من منابعه الأصلية، وفهم روحه وحقيقته، والعيش بموجب هذه القواعد الالهية والسنن النبوية التي تكفي، لهدي الناس ان هم وعوها. وقد وجد السنوسي الكبير ان الناس تركوها واغمضوا عيونهم عنها، فجاء اليهم ينفخ فيهم من روحه، يشرح لهم الاسلام، ويقوي ما خار من عزائمهم، ويزيل الغشاوة عن بصائرهم، فكان النار التي تأكل الهشيم وتنقي الذهب، فخرج الناس الذين اتصلوا به وقد صفت منهم النفوس، وصقلت منهم الضمائر، وصدقت منهم العزائم، وشحذت منهم الهمم، وصاروا أمة يدعون إلى الخير، وكانوا من قبل اعوان شر.

إن السنوسية يهمها ان يكون الرجل مسلماً صالحاً، لا ان يكون صوفياً فحسب.

٣

مركز الحياة في السنوسية هو الزاوية. والزاوية، كما تفهم في هذه المناسبة، مركز للحياة الروحية والزراعية والتجارية والسياسية. وهنا نجد القيمة الخاصة للسنوسية. فهي ليست طريقة دينية صوفية روحية فحسب، ولكنها طريقة للحياة بمختلف نواحيها. فعندما كان السنوسي الكبير أو خليفته يبعث بأحد الشيوخ لانشاء زاوية جديدة، كان ينتظر من ذلك الشيخ أن يجعل من الزاوية وأراضيها وسكانها جالية حية منتجة. وكانت الخطوة الأولى هي أن تفرز قطعة من أرض القبيلة التي تنشأ الزاوية في وطنها، تخصص لمصلحة الزاوية، ثم تقام الأبنية اللازمة للزاوية، على أن يقوم الرجال بأنفسهم بالعمل. وكان المألوف أن تكون ثمة مجموعتان من الابنية ـ

الأولى يقيم فيها الشيخ وأسرته، والثانية تشمل المسجد والمدرسة والمضافة. وكل هذه يتوقف اتساعها على مدى ما يمكن أن يؤديه المركز من خدمات. فجامع زاوية الجغبوب مثلاً كان يتسع لنحو ستمئة من المصلين. والمدرسة كانت فيها قاعات للتعليم وغرف يقطنها الطلاب الذين يأتون الزاوية من مسافات بعيدة لتلقي العلم. وقد مر بنا ان الجغبوب مثلاً، باعتبارها المركز الأول للحياة العلمية السنوسية، كان يتردد عليها نحو ٣٠٠ طالب. أما المضافة فتحوي أماكن فسيحة يستطيع ان يأوي إليها التجار والزوار والمسافرون، فيقيمون فيها ثلاثة ايام، حسب عرف الضيافة عند العرب. على ان التجار كان لهم ان يقيموا مدة أطول. وكانت الزوايا التي ينتظر منها ان تكون مراكز تجارية، تحوي قاعات كبيرة واسعة يضع فيها اولئك التجار بضائعهم ومتاجرهم، وكانت ثمة عرصات تحفظ فيها الابل التي تنقل هذه المتاجر. وقد اهتم المشرفون على إنشاء الزوايا بتوفير الماء اللازم للسكان، بحفر بئر كبيرة في الزاوية نفسها أو على مقربة منها. وكانت الابنية جميعها يدور بها سور يحرسها، تعلوه حصون وابراج يستخدمها السكان لدفع الهجوم عنهم اذا تعرضوا له، وما اكثر ما تعرض أهل الزوايا لهذه الاعتداءات على ايدي الفرنسيين والايطاليين خاصة.

والأرض المحيطة بالزاوية كان يقوم بالعناية بها واستثمارها الاخوان، سواء أكانوا من أهل القبيلة نفسها أو من غيرهم، ولو أنها كانت تعتبر ملكاً للقبيلة التي تقوم الزاوية في وطنها. ومن هنا كانت الزاوية مركزاً للوحدة القبلية، وهذه قيمتها السياسية والادارية. والاخوان الذين لم يكونوا يقيمون في الاراضي التابعة للزاوية مباشرة كان عليهم أن يعملوا في الأرض أياماً معينة في السنة، في أيام النشاط الزراعي أو في مواسم الحصاد. ومع ان الاخوان كانت تخصص لهم قطع من أراضي الزاوية يستغلونها، فانهم لم يكن باستطاعتهم التصرف بملكيتها. وبعد أن يفرز قسم من الواردات المختلفة التي تنتج في الزاوية لحاجات المركز نفسه، كان يرسل ما يفضل عن ذلك إلى مركز السنوسية العام لينفق في سبيل الدعوة نفسها. يضاف إلى ذلك الزكاة التي كانت تدفع إلى رئيس السنوسية. وقد يرى الرئيس ان يفرض بعض ضرائب لحاجات خاصة أو مناسبات، فتجمع وترسل اليه.

وشيخ الزاوية كان يعينه رئيس السنوسية، وكان يراعى في اختياره، في غالب الاحيان، رغبات أهل القبيلة نفسها، وعلى ان لا يتعارض ذلك مع الحصول على أفضل رجل يمكن الحصول عليه للقيام بهذه المهمة، لأن شيخ الزاوية هو صاحب الحل والعقد فيها. فهو الذي يعلم أو يشرف على التعليم، وهو الذي يحل الخصومات، وهو الذي يحفظ النظام، وهو الذي يعنى بالقوافل، وقد يطلب منه تنظيم الدفاع عن الزاوية في حالة الاعتداء. لذلك كان مركزه هاماً، وكان يجب أن يتمتع باحترام الجميع، ليتمكن من القيام بهذه المهمات ويضطلع بأعباء المسؤوليات الجسام.

ومما يسترعي الانتباه هو مواقع هذه الزاويا العديدة، وخاصة في برقة. ذلك ان السيد محمد بن علي والسيد المهدي اهتما بأن تكون الزوايا في اماكن ذات قيمة تجارية وإدارية وحربية. ومن هنا نرى ان هذه الزوايا تقوم عند ملتقى الطرق، وفي أماكن يسهل الدفاع عنها طبيعياً، ويمكن منها الاشراف على رقعة من الأرض تجاورها. وقد اقيمت الزوايا بحيث تبعد الواحدة عن الأخرى مسافة نحو ست ساعات، وخاصة في الاجزاء الشمالية من برقة.

وبحكم هذا الوضع، وبسبب النظام الدقيق الذي وضع للاشراف على هذه الزوايا إشرافاً فردياً، أصبحت الزوايا محكمة في ارتباطها ببعضها، وفي اتصالها بالمركز العام للسنوسية. ومن الطبيعي أن تحسب السنوسية، في هذه الحالة دولة، لا طريقة دينية فحسب. والذين وصفوها بقولهم انها كانت امبراطورية ضمن الامبراطورية العثمانية لم يخطئوا.

ولعله من الحق ان نشير إلى أن السنوسي الكبير ومن خلفه مباشرة لم يكونوا يرمون إلى غايات عسكرية حربية، ولكن التنظيم الدقيق للاتباع مكّنهم من الصمود أمام الاعتداء الايطالي أعواماً طويلة، لما أرغموا على امتشاق الحسام لمقاومة الاستعمار الذي غزاهم في عقر دورهم دون مبرر، مهما يكن واهياً!

والاتباع السنوسيون يمكن أن يقسموا، على وجه العموم، إلى «المنتسبين»، وهم الاكثرية الساحقة من السنوسيين، و«الأخوان «أو «المريدين»، وهم يعيشون، أو على الأقل كانوا يعيشون، في الزوايا نفسها، قبل أن تهدم إيطالية القسم الأكبر من الزوايا في ليبيا. ويأتي بعد ذلك «شيوخ الزوايا وهم الذين تلقوا العلم، وتبحروا فيه، فعهد إليهم، بعد تخرجهم في مدرسة الجغبوب الاشراف على الزوايا، على نحو ما ذكرنا.

وقد كان ثمة جماعة صغيرة يسمون «الخواص» ويكونون «المجلس السنوسي»، إذا جاز لنا استعمال التعبير. وفي أيام السنوسي الكبير وخليفته كان عددهم أربعة، وكلهم ليسوا من الأسرة السنوسية، ولكنهم ممن بلغ من العلم درجة رفيعة. لكن هذا المجلس غير موجود اليوم، وما كانت الاحداث التي عصفت بالسنوسية في السنوات الأخيرة لتسمح بالاحتفاظ بمثل هذا التنظيم.

مشكلة التعليم والتعريب في المغرب العربي

١

خضع الشمال الافريقي سنوات طويلة للاستعمارين الفرنسي والايطالي. فالجزائر ظلت تحت حكم فرنسة ١٣٢ سنة، وتونس ٧٥ سنة والمغرب ٤٤ سنة. واحتلت إيطالية ليبيا ثلث قرن من الزمان. ومع ان هذه الفترات تتفاوت بين بلد وآخر، فإن أثرها في الحياة الفكرية والأدبية والتربوية، من حيث النوع، واحد ولكن الكمية والعمق يختلفان.

وليسمح لنا القراء ببعض الملاحظات العامة قبل أن ننتقل إلى معالجة المشاكل القائمة حالياً والمتعلقة بهذه الناحية ـ ناحية التعليم والتعريب.

(١) كانت الجزائر أول الأقطار التي وقعت تحت النفوذ الفرنسي (منذ سنة ١٨٣٠) وكان ذلك قبل ان تهب على العالم العربي رياح النهضة الحديثة، وحالت فرنسة دون الجزائر والاتصال بالمشرق العربي، ووجهتها وجهة فرنسية بحتة ـ في المدرسة والسوق والصحافة والتعليم العالي فيما بعد. وكانت فرنسة تطمع في أن تندمج الشخصية الجزائرية بالشخصية الفرنسية عن هذه الطريق. ولكن ذلك لم يتم لها. فقد فرنست الأرض، لكن الشعب الجزائري ظل جزائرياً.

(٢) اتيح لتونس ان تمسها عناصر النهضة الحديثة في نصف القرن الذي تلا فتح الجزائر (لأن فرنسة احتلتها سنة ١٨٨١) ومكنها ذلك من ان تتعرف إلى الكثير من مقومات المدنية الحديثة والحركات الاصلاحية التي عرفتها مصر وديار الشام ولبنان. وقوي اهتمامها باللغة العربية، لذلك لما جاءت فرنسة وحاولت ان تنقل الحياة التعليمية والفكرية إلى اللغة الفرنسية، لم تتمكن من القضاء على اللغة العربية على ما تمّ لها في الجزائر.

(٣) مع أن المغرب وليبيا تأخرا في توصل الاستعمار اليهما، فقد كان لهما في تدهور الأحوال الداخلية، ما ألهاهما عن الافادة من هذه الفترة في التعرف إلى حضارة الغرب. لكن يجب أن نذكر ان البلدين أتيح لهما حركتان للاحياء كان لهما في حياتهما الفكرية أثر ظاهر بيّن. فليبيا كانت مهد الحركة الاصلاحية السنوسية، والمغرب عرف الحركة السلفية. وقد رافق الحركتين انتعاش للأدب وتقوية للغة، وان ظل ذلك محدوداً.

(٤) في الفترة التي خضعت لها تلك الاقطار الشقيقة للحكم الاجنبي تعرضت البلاد للاستعمار بأنواعه المختلفة وأشكاله المتباينة ـ السياسي والاقتصادي والفكري واللغوي. فقد جعلت اللغة الفرنسية في (المغرب والجزائر وتونس) والايطالية في (ليبيا) لغة التعليم النظامي في المراحل الابتدائية والثانوية. يضاف إلى ذلك ان الكتاب كان فرنسياً والمعلم كان إما فرنسياً أو نشأ تنشئة فرنسية. ففي الجزائر كان التلميذ الجزائري يتعلم «كان اجدادنا الغاليون...» تماماً كما يتعلم التلميذ الفرنسي في نورماندي.

(٥) لم تكن المدارس تتسع لجميع الأولاد والبنات في سن الدراسة. فالاحصاءات التي بين أيدينا تدل على أنه حتى في أعقاب الحرب العالمية الثانية لم تكن المدارس الرسمية تستوعب أكثر من ١٥٪ من الأولاد في سن التعليم. ومعنى هذا فعلاً هو ان مئات الألوف من هؤلاء الأطفال لم تتح لهم حتى فرصه التعليم، بقطع النظر عن نوع هذا التعليم.

(٦) وكانت حكومات العهود الاستعمارية تنفق على التعليم مبالغ طائلة، لكنها تذهب في الغالب لمصلحة الأوروبيين المقيمين في تلك البلاد. ففي سنة ١٩١٩ كانت المدارس الرسمية في تونس تتيح لـ ٩٤٪ من الأولاد الفرنسيين دخولها للتعلم بينما لم يتكمن سوى ١٢٪ من الأولاد التونسيين دخول هذا النوع من المدارس.

واذن، فالتعليم، وهو أساس إحياء اللغة كان غريباً عن الطلاب واسطة، كما كان غريباً روحاً. طبعاً العلوم البحتة والتطبيقية لا تختلف محتوى بين أن تُعلم بالعربية أو بالفرنسية أو بالايطالية؛ ولكن عندما يتعلمها الشاب في المغرب العربي، حتى في المرحلة الثانوية، بلغة اجنبية، فانه ينتقل إلى تلك الاجنبية، بدل ان تنتقل المعرفة إليه. لكن الأهم هو الموضوعات الانسانية والحضارية العامة، التي يدخل في اعدادها الأدب والتاريخ والفن والجغرافية والمجتمع عامة ومقوماته. هذه عندما يحرمها الشاب وهو في دور تكوينه تنقطع الصلة بينه وبين جذوره. وهذا ما كان يرمي اليه المستعمرون. كانوا يريدون أن تنقطع الصلة الروحية بين الشاب ومحيطه وماضيه وحاضره ليكون مستقبله في صالحهم لا في جانب بلده وقومه. ومعنى هذا أن التعليم لم يكن قومياً أو ذا محتوى قومي وطني قط.

ويجب أن نذكر أيضاً ان تلك الأقطار، باستثناء الجزائر، لم تعرف التعليم العالي. وجامعة الجزائر، التي انشئت في أواخر القرن التاسع عشر، لم تكن تختلف عن أي جامعة فرنسية في أرض فرنسة. فالدراسات العربية والاسلامية فيها كانت مقصورة على الاستشراق، ولذلك لم تنشأ فيها أقسام لدراسة التاريخ الاسلامي أو الأدب واللغة على غرار ما تدرس هذه الأمور في معاهد لبنان والشام ومصر. أما المغرب وتونس

فكان فيهما معاهد للدراسات العالية، لكنها كانت للبحث لا للتدريس، ومن ثم فقد كان أثرها في الحياة العامة ضئيلاً جداً جداً.

لم يكن غريباً، والحالة هذه، ان تنشأ في الجزائر فئات من أهل القلم تعبر عن آرائها باللغة الفرنسية. هذا واضح في الصحافة والمحاكم والادارة والأعمال التجارية. لكن أهم من هذا كله أن التعبير عن الشعور والعواطف، شعراً ونثراً، قصة وأقصوصة ومقالة، تاريخاً ومجتمعاً وحياة، بالفرنسية. نعم هذا لا ينطبق على جميع الاماكن بدرجة واحدة، فتونس والمغرب ظل لهما الكثير من التعبير بالعربية، لكن الجزائر كادت ان تفقد مقدرتها على ذلك. وأدباء الجزائر وشعراؤها يعتبرون اليوم في طليعة الكتاب الفرنسيين.

٢

سقنا هذه المقدمة لتتضح للقارىء المشكلة التي جابهتها تلك الأقطار لما استقلت وأخذت تعنى بالتعليم القومي الوطني ـ محتوى ولغة.

جاء هذا الاستقلال لتلك الاقطار الأربعة بين ١٩٥١ و١٩٦٢، وجاء في أعقاب حرب وثورات، وانتزع من الدول الأجنبية انتزاعاً. وتطلع المسؤولون حولهم يريدون أن يعيدوا البلاد إلى السبيل القويم. فماذا يصنعون، وأي المشاكل يحلون أولاً؟

والجدير بالذكر أنه من اليسير التحدث عن فتح المدارس الجديدة، ووضع الكتب المدرسية بالعربية والتحدث عن المناهج القومية. ولكن الواقع أن مثل هذه المشاكل لا تحل بالقول. انها معقدة، وهي تزداد تعقيداً يوماً بعد يوم. ولنأخذ على ذلك مثلاً واحداً من تونس. كان فيها سنة ١٩٥٧ ستة آلاف معلم، وكان التوسع العادي المقصود منه أن يتيح الفرصة لمن يريد ان يتعلم الدخول إلى المدرسة (دون إلزام أو اجبار) يحتاج إلى عشرين ألفاً منهم في مدى قصير. فمن أين الحصول على هؤلاء؟ وكيف يعدون؟

هذه مشكلة، والمشكلة الثانية هي قضية الكتاب المدرسي. حقاً أنه من الممكن أخذ كتب من الشرق العربي إلى المغرب العربي، وهذا ما يحدث يومياً. ولكن ثمة أمور يمكن أن تحمل من أجلها الكتب المدرسية من قطر إلى آخر. ولذلك كان لا بد من وضع، ولكن من يضعها؟

وهناك الارشاد اللازم للمعلمين، وهذه خبرة علمية فنية يحتاجها المشرفون على التعليم ليتمكنوا من نقل ما يريدون إلى المعلمين. ولكن من أين الحصول على هؤلاء، والمطلوب أن يكونوا قادرين على عمل ذلك باللغة العربية.

ولكن قبل كل هذا كان على دول المغرب العربي ان تضع مخططاً للتعليم عامة يتضمن، فيما يتضمن، فلسفة خاصة للتربية: فلسفة منتزعة من صميم الحياة تتصل بالماضي روحياً، وتلتصق بالحاضر عملياً، وتستشف المستقبل وطنياً. إذ لا يمكن

تحضير المعلم ولا إعداد الكتاب المدرسي إلا متى عرفت الحدود وعينت الأهداف وحددت السبل.

يمكن اعتبار خطاب الرئيس الحبيب بورقيبة الذي القاه في صيف ١٩٥٨، منطلقاً للتعليم التونسي، ويمكن التوسع قليلاً في الغرض واعتباره منطلقاً للتعليم في الشمال الافريقي. ولنضع أمام القراء فقرة واحدة منه لأنها، في رأينا، تمس جوهر موضوعنا. قال الرئيس بورقيبة: «والاتجاه الذي ترمي إليه الحكومة من إصلاح التعليم هو العمل على توسيع نطاق الاستفادة من التعليم وتكوين الأسباب اللازمة ليمكن قبول كل الأطفال الذين هم في سن الدراسة في المدارس الأولية. وليكون البرنامج شاملاً جامعاً عاماً لكل التونسيين، لا طائفية فيه ولا انتساب لنزعه معينة، مطبوعاً بالطابع القومي ومجهزاً بما من شأنه أن يدعم القومية العربية والدين الإسلامي والاحساس القومي، ويكون ذلك حداً أدنى يشترك فيه النشىء التونسي ويعم في العهد الجديد جميع التونسيين كتونسيين فيشمل التعليم الابتدائي تعلم الأخلاق والدين واللغة وجغرافية البلاد التونسية والحساب».

وقد يكون تخصيص المال اللازم لنشر التعليم أفقياً وعمودياً أبسط ما يجب أن يعمل للتعليم، لكن المهم الحصول على القوى البشرية العاملة الخلاقة لنقل النفوس من تحت ركام الماضي لترى الشمس. وإعداد هذه القوى البشرية إعداداً صالحاً يحتاج إلى ثلاثة أمور:

(١) يحتاج هذا الاعداد إلى المعاهد العالية التي تعد رجال القيادة الفكرية والتربوية. وهذه المعاهد هي التي تهيّىء الجو اللازم لتحاك الأفكار والتفاعل الحر بين الآراء. والمعاهد العالية كانت معدومة في المغرب العربي. ومن هنا كان اهتمام الحكومات هناك بالجامعات، فتم افتتاح جامعات الرباط وتونس وليبيا، وأعيد العمل بجامعة الجزائر مؤخراً. على أن الجامعة نفسها بحاجة إلى الاساتذة الذين يمكن أن يطوروا الأمور بالشكل المعقول المقبول وبحاجة إلى التلاميذ الذين أعدوا لقبول التطوير هذا. فجامعة الرباط اضطرت، في فترة الانتقال الأولى، إلى أن تعطي الدروس للموضوع الواحد، إذا وجد الأساتذة، باللغتين ـ العربية والفرنسية. والباقون كانوا يتابعون دراستهم بالعربية. وشبيه بذلك ما فعلته الجامعة التونسية دون أن تلجأ إلى التكرار في التدريس. فاحتفظت ولا تزال تحتفظ إلى الآن، بكثير من المسافات التي تعطى بالفرنسية، وخاصة في كليات العلوم.

(٢) ثمة حاجة إلى تطوير نوع من التعليم كان له فضل كبير على الثقافة العربية الاسلامية لأنه حافظ عليها من الضياع. نقصد بذلك جامع القرويين بفاس وجامع الزيتونة بتونس، وما شابههما من معهد ابن يوسف في مراكش وابن عبد السلام

في زليطن وعشرات المدارس الدينية التي يعود إليها فضل تعليم العربية لأبناء المغرب العربي. لكن هذه المؤسسات العلمية، بالرغم من الدور الذي قامت به في تاريخها الطويل، أصبحت بحاجة إلى تطوير. ومع ان المحتوى بالذات قد لا يمسه تغيير من حيث مبادئه وأسسه، فان الشكل كان يجب أن يتغير، والأسلوب الذي ينقل به المحتوى كان يجب أن يتبدل. فما كان يجوز أن تظل تلك المعاهد تعلم الفقه الإسلامي، مثلاً، كما لو كان منقطعاً عن غيره من النواحي القانونية والحقوقية والفقهية والقضائية، والدنيا فيها كل هذه الأمور تدرس مقارنة مقابلة. وقد جرت مثل هذه التطورات على معاهد من هذا النوع من قبل، فتحولت جامعات أوروبة التي خلفتها العصور الوسطى إلى جامعات حديثة، وأصاب الأزهر رشاش من الإصلاح بادىء ذي بدء، ثم تعددت وجوه الاصلاح والتبديل ونواحيه. وهكذا فان المغرب وتونس نقلا القرويين والزيتونة من الحالة التي كانا عليها إلى كليتين للشريعة تكونان جزءاً أساسياً من جامعتي الرباط وتونس. أما ليبيا فقد أنشأت جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية، فتم لها بذلك ما أرادت. والذي أصاب المدارس الدينية ـ الثانوية والابتدائية ـ فأضيف إليها من مقومات التعليم ما قواها وجعلها تتناسب مع مقتضيات العصر الحديث. وقد أتيح لكاتب هذه السطور أن يحضر مؤتمراً لمدرسي التعليم الأصلي (أي الذي كان يسمى التعليم الديني) في الرباط سنة ١٩٥٩ عرضت فيه على ما يزيد على مئتي مدرس البرامج الجديدة، وفسرت ملابسات تدريس الموضوعات الجديدة. وقيمة هذه المدارس كبيرة لأنها المدارس التي كانت، دوماً، تستعمل العربية للتعليم بوصفها معاهد إسلامية عربية. فتطوير التعليم فيها هو خطوة نحو توسيع الأساس العربي للتعليم.

(٣) وثالث ما تحتاجه هذه القوى البشرية لاعدادها هو أن تعد لها السبل للتعبير عن نفسها ممتصة مقتبسة أولاً، ومتفاعلة ثانياً، ومعطية خلاقة ثالثاً.

٣

هذا ينقلنا إلى احدى أهم القضايا التي تعالجها أقطار المغرب العربي، وهي قضية نقل التلميذ والمعلم والكتاب إلى اللغة العربية، أي التعريب.

أن الألم المرير الذي خلّفته أيام الاستعمار في نفوس السكان هناك حمل الكثيرين من الزعماء، ومعهم عدد كبير من المتزعمين، إلى القول بوجوب التعريب حالاً، تخلصاً من كابوس قديم، وتحقيقاً لحلم، وبناء لشخصية المواطن القومية، ومنافسة في سوق الزعامة. وتقبل الشعب هذه الدعوة لأنها تدغدغ كبرياءه وتضعه في مصاف أولئك النخبة من أهل القلم الذين أعدهم نظام التعليم الأجنبي لتكون مقدرات البلد في أيديهم. ولكن اللغة التي لم تكن قط قد طوعت للقيام بمهمة علمية من قبل، لم يكن من السهل تطويعها في فترة وجيزة. وأشار البعض إلى أن عرب المشرق «عربوا» التعليم،

ونسي الناس ـ بما في ذلك عرب المشرق أنفسهم ـ أمرين هامين، أولهما أن المشرق بدأ ذلك قبل زمن طويل، فرفاعة الطهطاوي، وهو أول من عرب شيئاً يستحق الذكر في العصور الحديثة، بدأ عمله حول سنة ١٨٣٠. وعرب المشرق منذ ذلك اليوم وهم يعملون في المعاهد العليا والمجلات والترجمة والتأليف حتى حققوه. والأمر الثاني الذي نسيه الناس هو أن عرب المشرق لم يعربوا كل شيء بعد! فما أكثر ما تسمع الانكليزية والفرنسية في معاهد الطب والقانون والتجارة في القاهرة وغيرها.

وإذن فقد أقبل المغرب العربي على كتبنا يقرأها وعلى قواميسنا يستعين بها على نقل العلم ووضع الكتب. والذي نود أن نشير إليه هو أن المغرب وتونس قد قاما بعمل كبير في سبيل تقريب التعليم من الدرجات الأولى. فقد رأينا وقرأنا الكثير من الكتب المعدة لهؤلاء الأطفال في التاريخ والجغرافية والعلوم والأدب فأعجبنا بها. وها قد بدأت الغزوة تحتل المدارس الثانوية تدريجاً. ولكنها هنا ستتأخر قليلاً، لأن المعلم الذي سيعلم باللغة العربية في هذه المرحلة يحتاج إلى إعداد أكبر، ومن ثم إلى وقت أطول. هذا سيكون نتاج الجامعة ودار المعلمين العليا، وهو بحاجة إلى دربة ومران قبل ان يستطيع وضع الكتاب المناسب لطلبته بالعربية.

وعلى ما يقول الاستاذ وليم زارثمان «وأخيراً مشكلة التعريب، أي مشكلة إعادة سبك النظام التربوي القائم بلغة جديدة، فقد جاءت بمثابة القشة الأخيرة التي وازنت بمفردها المشكلات الأخرى مجتمعة. لقد أعادت فكرة التعريب طرح جميع المشكلات: اذ توجب على المدرسين المتخصصين في مختلف المواد أن يدرسوا اللغة، وتوجب على الكتب والشروح أن تكتب من جديد، أو على الأقل تترجم، وتوجب إعادة النظر في أصول التدريس باللغة الجديدة. لكن لهذه المشكلة فوق ذلك كله وجهاً أبرز، وهو أن اللغة نفسها كانت بحاجة إلى سبك جديد». هذه العبارة قيلت عن المغرب، ولكنها تنطبق على بقية أقطار المغرب العربي».

ومما يؤسف له أن بعض الأساتذة والمعلمين الذين انتقلوا من الشرق العربي للتعليم في المغرب العربي لم يحسنوا التصرف هناك فأساءوا إلى بلادهم والبلاد المضيفة وعطلوا عملية تقارب ثقافي فكري بين جناحي العالم العربي السادس، لبحث قضايا مختلفة. وقد جاء في الصحف، نقلاً عن وكالات الأنباء، ما يلي «وصرح الدكتور علي ابراهيم عبده، من دائرة الثقافة في الجامعة العربية، بأن النقاط الرئيسية المدرجة في جدول الأعمال هي حركة التعريب في المغرب العربي وتوحيد المناهج الدراسية في جميع انحاء العالم العربي». ولنترك قضية توحيد المناهج، فهي قضية، على أهميتها، نرجو أن لا تتم بالسرعة التي يريدها المتحمسون لها، فليس من مصلحة العالم العربي أن تتوحد مناهجه التعليمية وبين أقطاره من التباين الطبيعي والاجتماعي ما بينها. ولكننا نريد أن نعود إلى حركة التعريب.

لقد انعقد قبل مدة مؤتمر للتعريب في تلك الديار، وترتب على انعقاده، بحماسة كبيرة، ان شغل الناس في وضع لوائح للمصطلحات العلمية منتزعة من هنا وهناك. وكان العمل، الذي كلَّف الكثير من الجهد والمال، قليل القيمة، لأنه لم يزد على أنه أضاف لوائح جديدة إلى اللوائح والجداول المكدسة.

ان الذي يحتاج إلى تعريب هو اللغة ككائن حي لا الألفاظ فقط. والذي يحتاج إلى تعريب هو الفكر بكل نواحيه وملابساته لا الكلمات فحسب. ولا حاجة إلى الإسراع وإلا أتلفنا كل شيء. ليكن العمل تدريجياً ـ أو حتى بطيئاً ـ من أول السلم، لأن هذا هو الطريق المأمون العواقب.

وإلا اصاب المغرب العربي إذا أسرع أكثر من اللازم ما أصاب المشرق العربي لما نادى بالاشتراكية وأسرع نحوها. فكان ثمة هدم أكثر من البناء. والعالم العربي ـ شرقه وغربه ـ بحاجة إلى البناء: والتعريب ـ في المدرسة أولاً ـ هو عمل بناء. على أن البناء لا يتم قبل أن تصقل الحجارة، ويهيأ البلاط، وتوضع الخطة، وتحفر الأسس، وتحسب متانة الحديد للجسور ويحضر الخشب للأبواب والنوافذ.

وكل هذه عمليات شاقة صعبة دقيقة، لكن الجهد المستمر والعمل الجدي كفيلان بالوصول إلى الغاية وتحقيق الأهداف.

تونس وتطور التعليم

١

جاء في احصاءات التعليم للحكومة الفرنسية في تونس لسنة ١٩٤٩ ما يلي:

الأولاد في سن التعليم (٥ ـ ٤ سنة)		الأولاد في المدارس الابتدائية	النسبة المئوية
الفرنسيون	٢٧,٥٠٠	٢٦,٠٠٠	٩٤٪
الأوروبيون	٤٥,٥٠٠	٣٥,٠٠٠	٧٧٪
التونسيون	٧٧٥,٠٠٠	٩٥,٠٠٠	١٢٪

هذه الأرقام تظهر، بدون حاجة إلى شرح أو تفسير، مدى الإهمال الذي كان يلقاه تعليم التونسيين على أيدي الإدارة الفرنسية. على أن الأمر يعدو ذلك إلى بيان المسؤولية التي وقعت على عاتق الحكومة التونسية لما استقلت البلاد، إذ وجدت نفسها و٨٨٪ من أولادها لا مدارس لهم.

يضاف إلى ذلك أن التعليم الذي كان التونسيون يتلقونه في المدارس الابتدائية لم يكن متسقاً مع الحاجات القومية. فالمناهج كانت ذات صبغة فرنسية أو تغلب عليها الصبغة الفرنسية (كل هذا في التعليم الرسمي)، واللغة العربية ذات منزلة ثانوية، والكتب المدرسية هي الكتب التي وضعت في فرنسة لطلاب فرنسين، وتاريخ تونس وجغرافيتها والتاريخ العربي الإسلامي مهملة، أو في حكم المهملة. وكما قيل «فلا الوازع ولا منبع الالهام كان تونسياً بل أجنبي صرف، ولا غرابة حينئذ إذا وجدت تونس نفسها أمام فراغ تام في هذا الميدان عند فجر الاستقلال».

والذي اشرنا إليه هنا لا يقتصر على التعليم الابتدائي فحسب، بل يشمل التعليم الثانوي، وعلى درجة اشد بلاء. فقد كانت المدارس أقل، ونسبة من يدخلها أصغر. أما التعليم العالي فقد كان مفقوداً.

٢

اندفعت تونس منذ سنة ١٩٥٨، أي بعيد الاستقلال، إلى اصلاح أمور التعليم. وقد خطط ذلك في صيف تلك السنة تلبية لدعوة الرئيس الحبيب بورقيبة. ولعلّ الفقرة

الآتية المقتطفة من خطابه يومها تدل على الاتجاه الذي فكر فيه قال: «والاتجاه الذي ترمي إليه الحكومة من اصلاح التعليم هو العمل على توسيع نطاق الاستفادة من التعليم وتكوين الأسباب اللازمة ليمكن قبول كل الأطفال الذين هم في سن الدراسة في المدارس الأولية. وليكون البرنامج شاملاً جامعاً عاماً لكل التونسيين، لا طائفية فيه ولا انتساب لنزعة معينة، مطبوعاً بالطابع القومي ومجهزاً بما من شأنه أن يدعم القومية التونسية المتكونة من الثقافة العربية والدين الإسلامي والإحساس القومي، ويكون ذلك حداً أدنى يشترك فيه النشىء التونسي ويعم في العهد الجديد جميع التونسيين كتونسيين فيشمل التعليم الابتدائي تعلم الأخلاق والدين واللغة وجغرافية البلاد التونسية والحساب».

ويمكن اجمال الخطوط الرئيسية لاصلاح التعليم التي وضعت في مطلع السنة الدراسية ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ موضع التنفيذ تدريجاً، بما يلي (١) توحيد التعليم (٢) اكساب التعليم صبغة قومية (٣) جعل التعليم متلائماً مع الواقع التونسي وحاجات العصر (٤) نشر التعليم افقياً وعمودياً ـ أي فتح المدارس وتطوير التعليم العالي.

٣

ومما لا شك فيه أن وزارة التربية في تونس، ومن ورائها الدولة، صادفت صعوبات كثيرة في سبيل تحقيق ما حققته إلى الآن من هذه الأهداف. فالمعلمون قليلون، اذ لم يكن منهم في البلاد سنة ١٩٥٧ الا ستة آلاف معلم. وتوسيع نطاق التعليم كان يقضي الحصول على عشرين الفاً منهم. وليس هذا بالأمر اليسير. ولذلك لجأت وزارة التربية إلى اختصار ساعات الدرس في المدارس الابتدائية، فقللت المواد الاضافية، واقتصرت على المواضيع الأساسية فتوفر لديها معلمون وقاعات، وقسم الدوام المدرسي إلى صباحي ومسائي، وبذلك تضاعف عدد التلاميذ في المدارس الابتدائية. وعولج التعليم الثانوي على الأسس نفسها، فأدى إلى نتائج جيدة. ولكن الاختصار في الدورة الثانوية كان، بطبيعة الحال، أقل منه في المرحلة الابتدائية.

وأضيفت انواع جديدة من التعليم الثانوي فدخل فيه، بالاضافة إلى المدارس العلمية الأكاديمية، التعليم الاقتصادي والتعليم الفني (أو التقني والمهني).

والجدول التالي يوضح لنا الزيادة التي أصابت موازنة التعليم بالنسبة المئوية لموازنة الدولة.

١٩٤٣	نحو	٩٪	١٩٥٦	نحو	١٩٪
١٩٤٩	نحو	١١٪	١٩٦٣	نحو	٢٥٪

٤

لم يكن لتونس قبل سنة ١٩٥٨ تعليم عالٍ منسق يمكن اقحامه في نطاق جامعة تونسية، فعملت كتابة الدولة للتربية القومية على سد هذا الفراغ اذ بدأت سنة ١٩٥٩ بدراسة الشروط الكفيلة ببعث الجامعة التونسية وتمت الدراسة في شهر ايار من السنة عينها، وبمقتضى هذه الدراسة وقع تنظيم التعليم العالي التونسي ووضعت له مناهج تونسية وأقيمت دروسه ابتداء من السنة الجامعية ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠ ثم تم إحداث الجامعة التونسية قانونياً بأمر صدر في ٣١ آذار ١٩٦٠.

وتتكون الجامعة التونسية، عملاً بما جاء في أمر أول آذار ١٩٦١ المتمم للأمر السابق، من الكليات الآتية:

- كلية الآداب والعلوم الانسانية.
- كلية العلوم الرياضية والفيزيائية والطبيعية.
- كلية الحقوق والعلوم السياسية والاقتصادية.
- كلية الطب والصيدلة.
- الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين.
- دار المعلمين العليا مضافاً إليها مركز قومي للبحوث التربوية والتكوين البيداغوجي.
- الحي الجامعي.
- كل المؤسسات الموجودة والتي ستقام فيما بعد كالمعاهد ومراكز البحوث العلمية والمكتبة الجامعية والمطبعة الجامعية.

وقد روعي في بعث الجامعة وتحقيق فروعها برنامج المخطط العشري لتعميم التعليم بحيث يكون نمو فروع الجامعة مسايراً لنمو التعليم في المراحل الابتدائية والثانوية. واعتماداً على كل هذا، فمن المنتظر أن يكون عدد الطلبة في الجامعة سنة ١٩٧٠ ما بين ١٢,٠٠٠ ـ ١٥,٠٠٠ طالب. وفي نطاق التعليم العالي أخذت تونس بالعناية بتدريب المعلمين للمدارس الابتدائية والثانوية.

جامعة الرباط والتعليم العالي في المغرب

عرف المغرب في تاريخه الطويل معاهد للتعليم كان لها أثر كبير لا في البلاد نفسها فحسب، ولكن في الاقطار المجاورة ايضاً. وليس بوسعنا الآن ان نعرض لهذه المعاهد وما كان لها من اثر، ولذلك نجتزىء بالاشارة إلى جامع القرويين في فاس اشارة سريعة. فقد أُنشىء الجامع في اواسط القرن الثالث للهجرة، ووسع فيه غير مرة، كانت آخرها في عهد المرابطين. أما زخرفته وتزيينه والانفاق عليه فلم تقف عند حد. ولذلك فالجامع يمثل هذا التطور الفني الذي عرفه المغرب في أحد عشر قرناً ويزيد. كما انه يمثل تطور التعليم العالي في مثل هذه الفترة في المغرب. ففي ادواره الأولى كان التعليم في القرويين اقتباساً من القيروان أولاً ومن الأندلس ثانياً، إلا أنه منذ اواسط القرن السادس عشر للميلاد اصبح التعليم وطنياً صريحاً. وقد مر بين الفترتين بدور كان فيه جامع القرويين يجاهد ليستقل، حتى تم له ذلك. وثمة أمر آخر يمثله القرويين بالنسبة للتعليم العالي في المغرب، ذلك انه لم يقتصر على العلوم الإسلامية واللغوية والأدبية، بل انه اهتم بتدريس الطب والفلك. وقد كان قانون ابن سينا أساس الدراسة الطبية. ومع أن الكتاب احتفظ بمكانته إلى جانب بعض الكتب الاندلسية، فقد ظهرت الاصالة في الطب في القرويين على يد الغساني طبيب السلطان السعدي المنصور، وعبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي، وعبد القادر بن شقرون وآل ادراق.

وبسبب الاهتمام بدرس الطب، درّست علوم النبات والحيوان والصيدلة في القرويين. والعناية بالتوقيت استتبعت الاهتمام بالفلك والحساب. وقد ظلت هذه العلوم تدرس في القرويين إلى جانب العلوم الدينية واللغوية إلى عقود متأخرة في القرن التاسع عشر. ولكن في القرن العشرين وبسبب الحماية بشكل خاص، عاد القرويين جامعة دينية أدبية فحسب. لكنه حفظ هذا بشكل يحسد عليه، ويحسد عليه اساتذته وطلابه. يضاف إلى هذا أن للقرويين مكتبة فريدة في بابها كمية ونوعاً وفناً وعمقاً.

ومنذ الاستقلال والمغرب سائر قدماً في تحقيق حاجات البلاد والشعب في جميع الاتجاهات. وقد كان اهتمامه بالتعليم يفوق اهتمامه بأي ناحية أخرى من نواحي الحياة المغربية، بسبب الارتباط الوثيق بين المدرسة والجامعة من جهة، ومستقبل البلاد وتقدمها من جهة أخرى. ولذلك وجه المسؤولون همهم إلى حلّ هذه المشاكل المعقدة التي جابهوها. فما الذي تم إلى الآن، وما الذي خطط للمستقبل؟

تقوم فلسفة التعليم الجامعي في المغرب على مغربة التعليم وتعريبه وربطه بالحياة القومية الروحية للأمة ومجاراته للتقدم العلمي عامة ومساهمته بالبحث العلمي على اختلاف نواحيه. أهداف سامية وغايات نبيلة يتطلب تحقيقها السعي والبذل السخي والاطارات الهائلة المستعدة للنمو دوماً. وقد توفر للمغاربة السعي والبذل فتقدموا للحصول على الاطارات اللازمة من اخوتهم في المشرق، وجيرانهم في الغرب.

وقد جرى الافتتاح الرسمي لجامعة الرباط بحضور محمد الخامس ملك المغرب في الحادي والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٧، على أن الجامعة كانت قد بدأت العمل قبل ذلك بمدة. وهي أول جامعة عصرية في المغرب، وفيها ثلاث كليات تعمل جاهدة ناشطة الآن هي كلية الآداب والعلوم الاجتماعية وكلية العلوم وكلية الحقوق والعلوم السياسية والاقتصادية. وثمة كلية للشريعة هي جزء من جامعة القرويين. والنية متجهة إلى افتتاح كلية للطب والصيدلة في أقرب وقت.

وقد كان في كلية العلوم سنة ١٩٥٦ من الطلاب والطالبات ٤٦٤ منهم ١١١ من المغاربة والباقون اجانب، أي من الفرنسيين المقيمين في البلاد. فقفز هذا العدد إلى ٦٢٠ سنة ١٩٥٩ منهم ١٦٦ من المغاربة. والمهم في هذا أن عدد الطلاب المغاربة ازداد نحو ٥٠٪ في ثلاث سنوات.

وكلية الحقوق كانت تضم في السنة الدراسية ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩، ١٤٧٧ طالباً وطالبة، منهم عدد كبير ممن يعدون انفسهم لدبلوم الإدارة وما إلى ذلك. ومع ذلك فقد بلغ عدد طلبة الليسانس في الحقوق ٧٢٤ طالباً وطالبة.

وقد رؤي من المناسب أن يتبع نظام ثنائي فيما يتعلق بالتعليم العالي. ذلك أن كلية الحقوق وكلية الآداب فيهما طلاب دربوا في نوعين متباينين من التعليم الثانوي قبل أن ينضموا إلى الجامعة. ورغبة في التدريس باللغة العربية والفرنسية جنباً إلى جنب، فهناك طلاب يعدون انفسهم للحصول على الليسانس المغربية في القانون ويدرسون بالفرنسية، ويتقدمون للامتحان إما في جامعة بوردو أو جامعة الجزائر، على نحو ما كانوا مسجلين من قبل. على أن هذا النظام الثنائي ترتيب موقت، والاتجاه كما ذكرنا قبلاً، هو نحو المغربة والتعريب.

وكليات الجامعة الثلاث تتصل بها معاهد للبحث العلمي وتعنى بنشر الابحاث المختلفة إما في العلم البحت أو التطبيقي أو التاريخ أو الأدب أو القانون. فكلية العلوم يتصل بها المعهد العلمي الشريفي حيث تتم دراسات عملية في دراسة جيولوجية المغرب ونباته وحيوانه واجوائه. وثمة محطات رصد علمية للجو والبحر والصحراء في برشيد وعين دياب وثمارا وافران وعوينه تزود المعهد بالمعلومات التي تمكنه من القيام بالدراسة الوافية.

وكلية الآداب تنشّط البحث التاريخي والأدبي وما اليهما في الكلية نفسها وفي معهد مولاي الحسن في تطوان. كما أن دائرة الآثار ملحقة بالكلية. وقد قامت الكلية ومعاهدها في السنوات الثلاث الماضية على نشر ما ينوف عن عشر مجلدات تعالج تاريخ المغرب وأدبه وكتبه ومكاتبه.

هذه لمحة عابرة عن التعليم العالي في المغرب، الذي تتزعمه اليوم جامعة الرباط العصرية، وتتعاون مع جامعة القرويين في سبيل رفع شأنه.

جامعة محمد بن علي السنوسي الإسلامية

١ - التعليم الديني في ليبيا

عرفت ليبيا، في تاريخها الطويل، عدداً لا يستهان به من معاهد العلم الكبيرة، التي حفظت مشعل الهداية قروناً طويلة. ولعلّ المعهد الأسمري في زليطن من أكبرها أثراً، ان لم يكن أكبرها. والمعهد وزاويته منسوبان لسيدي عبد السلام الأسمر العالم المتصوف الكبير. وقد مر على المعهد نحو خمسة قرون وهو يزود ليبيا وبعض جوارها بأهل العلم الديني ورجال القضاء والوعظ. فقد أنشىء المعهد الأسمري سنة ٩٠٨ للهجرة.

وأيام انتشار الحركة الاصلاحية التي بدأها السيد محمد بن على السنوسي وازدهارها تحت إشرافه وإشراف ابنه السيد المهدي وخلفائهما، كانت في ليبيا منازل للعلم عامرة بالمدرسين والطلاب، وفي مقدمتها الجغبوب التي زودت السنوسية بالقادة من أهل الفكر فيها.

إلا أن ما أصاب البلاد في النصف الأول من القرن الحالي من وقوعها فريسة للحكم الايطالي، عطل ما كان فيها، وشلّ حركتها الفكرية والعلمية. فلما عاد إلى البلاد استقلالها كان من بين الأمور التي اهتم بها ولاة الأمور، وخاصة الملك ادريس الأول، اعادة التعليم الديني في البلاد إلى ما كان عليه. الا انه رأى أن يكون هذا التعليم مما يتفق مع روح العصر بقدر ما يمكن ذلك.

٢ - التنظيم الحديث للتعليم الديني

ولمناسبة الاحتفال بمرور مئة سنة على وفاة المصلح الأكبر السيد محمد بن علي السنوسي سنة ١٩٥٦، نظّمت قضية التعليم الديني في البلاد تنظيماً يليق بالفترة التي تجتازها ليبيا.

والتنظيم المذكور يعتبر التعليم الديني في ليبيا بأجمعها وحدة تبدأ بالمدارس القرآنية وتتوج بالجامعة الإسلامية التي تم انشاؤها بقانون صدر في ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٩٦١. يقضي الطالب في المدارس القرآنية ست سنوات يحفظ خلالها القرآن حفظاً متقناً، ويلقن إلى جانب ذلك بعض الدروس الأخرى. وهذه المدارس منتشرة في البلاد، ولذلك يتاح لكل راغب أن يجرب تعلم القرآن الكريم وحفظه.

وفي سنة ١٩٥٣ انشئت مدارس ابتدائية يدخلها هؤلاء الطلاب حيث يقضون فيها اربع سنوات تظل فيها العلوم الدينية هي الأساس، لكن علوم اللغة العربية والحساب والجبر مع مبادىء العلوم الأخرى تدرس فيها. وتوجد المدارس الابتدائية هذه في زليطن وطرابلس (جزء من مدرسة أحمد باشا) وسبها والبيضاء وبنغازي ودرنه.

وينتقل الطالب الناجح في القسم الابتدائي إلى مدرسة ثانوية حيث يتابع دراسته دينياً ولغوياً وعلوماً ـ طبيعة وكيمياء واحياء. وهذه المدارس الثانوية ضمت إلى المعهد في مطلع سنة ١٩٥٦. والمدارس الثانوية الآن موجودة في زليطن وطرابلس (مدرسة احمد باشا) والبيضاء.

٣ ـ المعهد العالي يصبح جامعة

لعلّ أهم خطوة في تنظيم التعليم الديني في ليبيا هي انشاء القسم العالي في المعهد بالبيضاء. ومدة الدراسة فيه اربع سنوات ونواحي التخصص فيه ثلاث: الشريعة وأصول الدين واللغة العربية. وقد انشىء هذا القسم سنة ١٩٥٨ وصدر المرسوم الملكي به في آذار (مارس) سنة ١٩٥٩، وسيخرج أول فوج منه في صيف ١٩٦٢. وقد بدأ القسم العالي بأحد عشر طالباً. أما في السنة الحالية ففي الجامعة ثمانية وستون طالباً وفيه ستة عشر استاذاً كلهم أزهريون. وبين طلاب المعهد عشرة من الأردن واثنان من مالي وثلاثة من وسط افريقية واثنان من الصومال واربعة من الجزائر. وجميع الطلاب داخليون يعيشون في بيت جميل حديث في مدينة البيضاء.

وميزانية الجامعة للسنة الدراسية الحالية هي نحو مليون جنيه ليبي ولها موردان أولهما أوقاف المدارس القديمة التي أُدخلت في المعهد بحسب التنظيم الذي تمّ في السنوات الأخيرة، وثانيهما مخصصات من ميزانية المملكة الليبية المتحدة.

والقسم العالي من الجامعة يتكون من ثلاث كليات ـ الشريعة وأصول الدين واللغة العربية.

ويشرف على شؤون الجامعة العلمية والإدارية مجلسها الأعلى الذي يتألف من شيخ المعهد رئيساً ووكيل المعهد والمستشار القانوني للديوان الملكي ورئيس ادارة التشريع والقضايا بوزارة العدل، وممثل لوزارة المال ومدير الزوايا السنوسية واثنين من العلماء واثنين ممن لهم خبرة بشؤون التعليم وعمداء الكليات.

٤ ـ منهاج التدريس

ومنهاج الدروس في الكليات يمكن اجماله بما يلي:

يشترط لقبول الطالب في أي كلية للحصول على الشهادة العالمية، أن يكون حاصلاً على شهادة الدراسة الثانوية من المعهد، أو من الجامع الأزهر أو من معهد معادل لهما.

وفي السنة الأولى تكون الدراسة مشتركة بين الكليات كافة بحيث يدرس جميع الطلاب الفقه ومصطلح الحديث والتوحيد والأصول وعلوم اللغة والمنطق. ثم تتفرع الدراسة أو تتشعب. فكلية أصول الدين يدرس طلابها، للحصول على العالمية، التوحيد والنحو والتفسير والحديث الشريف وعلومه والمنطق والأدب والبحث والأخلاق والفلسفة والأصول والفقه والتاريخ الاسلامي وعلم النفس وعلم الاجتماع.

وفي كلية الشريعة يدرس الطلاب التفسير الحديث، متناً ورجالاً ومصطلحاً أصول الفقه، الفقه مع حكمة التشريع ومقارنة المذاهب في المسائل الكلية، النحو، التشريع الإسلامي، المنطق، الفلسفة، قوانين المحاكم الشرعية ولوائحها، الأوقاف، والتوثيقات الشرعية، اجراءات وتمرينات قضائية ودراسة القضايا ذات المبادىء، السياسة الشرعية، القانون الدولي الخاص، تاريخ القضاء، والقضاء في الاسلام.

أما في كلية اللغة العربية فتدرس المواد الآتية:

النحو، الصرف، الوضع، فقه اللغة، الفقه، الأصول، الانشاء، علوم البلاغة، (البيان والمعاني، والبديع) الآداب العربية وتاريخها، الأدب المقارن، العروض، القافية، التفسير، الحديث، المنطق، الفلسفة، المطالعة، علم النفس، أصول التربية، الطرق العامة والتنظيم المدرسي، تاريخ التربية، التربية العلمية، طرق التدريس الخاصة، الأخلاق، تدبير الصحة المدرسي، الرسم، تجويد الخط، التربية البدنية.

وكان قد نصّ المرسوم الملكي المؤرخ في ٧ آذار (مارس) ١٩٥٩ على إنشاء تخصص في كل من هذه مدة الدراسة فيها تتوقف على المادة والتخصص ولكنها لا تقل عن ثلاث سنوات، وتنتهي بشهادة العالمية من درجة استاذ.

ويشرف على شؤون القسم العالي من الجامعة مجلسه المكون من شيخ القسم (رئيساً) وهو الشيخ محمد جوان، ووكيله وثلاثة من بين اساتذة القسم يعينهم المجلس الأعلى (للمعهد) سنوياً.

وعدد المحاضرات هو أربع وعشرون، والدراسة في الصباح، وبذلك يتاح للطلاب القراءة في مكتبة المعهد التي هي في سبيل الانشاء.

واعتباراً من العام الدراسي الحالي اعطي الطلاب دروساً في اللغة الانكليزية ثلاث ساعات اسبوعياً. وقد رتبت ادارة المعهد دروساً في اللغة الانكليزية للمدرسين والموظفين ايضاً.

وتشرف الادارة العامة للمعهد على قسم الوعظ والارشاد الذي يتكون من ١٤٠ واعظاً يقومون بتثقيف الناس وتعليمهم شؤون الدين، ويتولون الوعظ وإلقاء الدروس عامة وفي رمضان خاصة.

التعليم في ليبيا في العهد الاستقلالي

١

هاجمت ايطالية ليبيا سنة ١٩١١، ولكنها احتاجت إلى نحو عشرين سنة من القتال - مع هدنة ومفاوضات - حتى استطاعت أن تحتل البلاد بكاملها. وظلت ليبيا تئن تحت النير الايطالي إلى مطلع عام ١٩٤٣، إذ جلت عنها الجيوش الايطالية نهائياً وعندها عهد إلى بريطانية بادارة منطقتي طرابلس وبرقة، وعهد إلى فرنسة بادارة فزان.

ولما وضعت الحرب اوزارها، أخذت الدول المختلفة تحاول حل المشاكل المختلفة المتعلقة «بالممتلكات الايطالية» السابقة، ومن بينها ليبيا. ولم تتفق الدول الكبرى على حل معين، فألقيت القضية بكاملها في احضان الأمم المتحدة، التي اصدرت قرارها في عام ١٩٤٩ بأن ليبيا ستصبح دولة مستقلة، ويجب أن يتم ذلك قبل سنة ١٩٥٢. وعندها انصرف المشتغلون بالشؤون العامة والمسؤولون ورجال الأحزاب في ليبيا ومندوبو الأمم المتحدة ورجال الادارة من بريطانيين وفرنسيين في وضع هذا القرار موضع التنفيذ. فالجمعية الوطنية الليبية أخذت على عاتقها العمل على وضع الدستور الليبي، مستعينة في ذلك بمجلس الأمم المتحدة في ليبيا. والحكومة الليبية الموقتة عملت، بالتعاون مع رجال الإدارة البريطانيين والفرنسيين، على نقل السلطات (وقد تلكأ الفرنسيون في فزان بعض الوقت). وهكذا لما اعلنت ليبيا دولة ملكية اتحادية دستورية مستقلة في ٢٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥١، كانت السلطات الدستورية كاملة تحت اشراف جلالة الملك ادريس والحكومة الليبية، وقد انضم اليهما فيما بعد مجلس الأمة لما تمت الانتخابات الأولى لمجلس النواب، وعين اعضاء مجلس الشيوخ.

حري بنا، قبل أن نتابع تطور التعليم في ليبيا في عهدها الاستقلالي، أن نلقي نظرة عامة على ما سبق ذلك، فان هذا يساعدنا على تفهم الجهد الذي تبذله سلطات التربية في ليبيا.

ففي العهد الايطالي، الذي يمكن اعتباره عهد تجهيل لا تعليم بالنسبة لابناء ليبيا، عرفت البلاد أنواعاً ثلاثة من المدارس: الأول هي مدارس تحفيظ القرآن ومنها ينتقل التلميذ إلى واحد من المعاهد الدينية مثل مدرسة أحمد باشا في طرابلس أو المعهد

الأسمري في زليطن. هذا مع العلم بأن الايطاليين كانوا قد قضوا على المعهد الديني الرئيسي في الجغبوب.

والنوع الثاني من المدارس الابتدائية التي خصصت لابناء البلاد، حيث كان التلميذ يقضي خمس سنوات يتلقى فيها اللغة العربية والدين، وكانت مواد الدراسة الأخرى تدرس بالايطالية في الصفوف المتقدمة. وكان بعض المتفوقين من تلاميذ هذه المدارس يلتحقون بالمدرسة الاسلامية العليا التي انشئت سنة ١٩٣٦.

وكان ثمة نوع ثالث من المدارس، وهو ايطالي بحت خاص بابناء الايطاليين، وقد يتاح لقلة من ابناء البلاد دخول هذه المدارس. هذه المدارس كانت ابتدائية تليها دراسة ثانوية، وكل ذلك، بطبيعة الحال، باللغة الايطالية (الا أن العربية كانت تدرس في المدارس الثانوية ولكن لمصلحة الطلاب الايطاليين لا الطلاب العرب).

ولم يتح الا لعدد محدود جداً من الليبيين أن يتعلموا تعليماً عالياً في ايطالية ـ هذا باستثناء الذين هاجروا إلى مصر وسورية وتركية واتيحت لهم فرص. وفي سنة ١٩٣٩ كان في برقة ٣١ مدرسة خاصة بالعرب فيها ٢٢٤٥ طالباً (منهم ١٥٠ طالبة).

وقد دامت الفترة الانتقالية ـ أي بين الحكم الايطالي والاستقلال ـ ثماني سنوات (١٩٤٣ ـ ١٩٥١). وفي هذه الفترة تم في كل من منطقتي طرابلس وبرقة فتح عدد من المدارس الابتدائية. ثم فتح بعض المدارس الثانوية وحتى معاهد للمعلمين. فالمعلم حتى المعلم غير المدرب، الليبي كان نادراً جداً. وقد اتيح لكاتب هذه المقالة ان يعمل في ادارة المعارف ببرقة في عام ١٩٤٩، وكانت المشكلة الأولى التي تواجهنا هي المعلم. وقد كان ثمة حلول موقتة لكنها مفيدة، منها العون الذي تقدمت به الحكومات العربية في انتداب المعلمين أو السماح للمعلمين بالتعاقد المباشر هناك.

وقد كان عندنا في برقة في عام ١٩٤٩ بعثة مصرية يقارب اعضاؤها الستين عضواً. وقد اقتبست المناهج وخطط الدراسة، من مناهج الدول العربية وخططها، وحتى الكتب المدرسية نفسها استعملت في هذه المدارس.

ونحن عندما نعود إلى سجلات ادارة التربية والتعليم نجد ان برقة كان فيها سنة ١٩٤٣ ـ ١٩٤٤ من المدارس الابتدائية سبع عشرة مدرسة فيها ١٥٠٠ تلميذ (منهم ٣٠ تلميذة) يقوم بالتدريس فيها خمسون مدرساً ومدرسة. فلما تسلمت الحكومة الليبية المعارف عام ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ كان عدد المدارس قد بلغ ٥٩ بطلاب عددهم ٨٩٠١ (منهم ٧٠٠ من الطالبات)، ويقوم بالتدريس في هذه المدارس ٣٣٠ مدرساً ومدرسة.

وقد فتحت في برقة مدرستان ثانويتان سنة ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ في بنغازي ودرنة، كان فيهما ٤٢ طالباً ويدرس فيهما ٨ مدرسون، بحيث ان احدى هاتين المدرستين اقفلت في السنتين التاليتين واعيد فتحها سنة ١٩٥٠ ـ ١٩٥١. وقد بلغ عدد الطلاب فيها ١٩٨ طالباً (منهم ١٥ طالبة) ويدرس فيهما ١٧ مدرساً ومدرسة.

وقد كان ثمة معهد للمعلمين في برقة بين سنتي ١٩٤٧ و١٩٥٠، لكنه أُغلق ولم يعد فتحه إلا سنة ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣ وفتحت مدرسة متوسطة للزراعة سنة ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ بسبعة عشر طالباً وثلاثة مدرسين.

وكان في طرابلس سنة ١٩٤٣ ـ ١٩٤٤ من المدارس الابتدائية ٥٢ مدرسة، فيها ٤٩٨٤ طالباً (منهم ٣١٤ طالبة) و١٥١ مدرساً ومدرسة، فأصبح هذا العدد سنة ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ من المدارس ١٣٤ فيها، ٢٣١٨٨ تلميذاً (منهم ٢٩١٣ تلميذة) يقوم بتعليمهم ٦٩٤ من المدرسين والمدرسات.

في سنة ١٩٤٦ ـ ١٩٤٧ افتتحت مدرستان ثانويتان احداهما في مدينة طرابلس والثانية في الزاوية (الغربية) وقد كان فيهما سنة ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨، ٩٢ طالباً وعشرة مدرسين، إلا ان عدد الطلاب بلغ ٤١٤ في سنة ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ يقوم على تدريسهم ٣٢ مدرساً. اما عدد المدارس الثانوية في تلك الفترة فلم يتغير (مدرستان). ولم يبدأ العمل بالتعليم الفني في طرابلس إلا سنة ١٩٥٠ ـ ١٩٥١. وفي السنة نفسها فتحت دار المعلمات ومعهد المعلمين.

ومما يلفت النظر ان الادارة الفرنسية لفزان لم تقم بأي عمل تجاه التعليم في تلك المنطقة الواسعة. وكل ما هو قائم بفزان اليوم انما هو نتيجة الجهود التي بذلت في عهد الاستقلال.

٢

ولما اعلنت ليبيا دولة مستقلة كانت هيئاتها المسؤولة قد اختارت النظام الاتحادي اساساً لادارة البلاد، المكونة من ولايات طرابلس وبرقة وفزان. وترتب على ذلك ان نواحي الحياة المتنوعة في البلاد اصبحت تساس من زاويتين، الزاوية الاتحادية وزاوية الولاية. فاذا اخذنا قضايا التربية مثلاً، وجدنا أنها موضع اهتمام وزارة المعارف (الاتحادية) من حيث وضع برامجها ومناهجها والسياسة العامة التي تسير عليها البلاد، كما انها موضع اهتمام نظارة المعارف (في كل ولاية) من حيث تطبيق النظم والمناهج والسياسة وادارة المدارس والتفتيش وما إلى ذلك. فمجلس التعليم الاعلى مجلس اتحادي يمثل فيه كل ولاية ناظر المعارف فيها، وقد عهد اليه قانون التعليم لسنة ١٩٥٢ بمهمة التخطيط ودراسة البحوث التي تقدم عادة من وزارة المعارف الاتحادية، بالتعاون مع نظارات المعارف في الولايات الثلاث. ولكن نظارة المعارف فيها لجنة تربية وتعليم دائمة «تقوم بدراسات وافية لأهم المشكلات التربوية، وتعد بحوثاً شاملة لأقوم السبل العلمية».

اقتبست ليبيا، وبخاصة ولايتا برقة وطرابلس، نظم التعليم المتبعة في مصر منذ بدء اهتمامها بالتعليم. لذلك كان التعليم الابتدائي فيها مقسوماً أولاً إلى تعليم أولي ومدته سنتان، وتعليم ابتدائي ومدته أربع سنوات. ويبدو ان هذا الأمر «نجم عنه الكثير

من عدم الربط والترابط بين سني دراسة مرحلة واحدة من المفروض أن تكون مترابطة شكلاً وموضوعاً». وقد أُلغي هذا التقسيم وجعل التعليم الابتدائي وحدة متكاملة مدتها ست سنوات، بموجب قانون التعليم الابتدائي الصادر في ٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٦.

وفي السنوات الأخيرة أخذت ليبيا بالتنظيم الذي اقترحته الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية، والذي يرمي إلى اعتبار التعليم الثانوي مرحلتين: الأولى تسمى الاعدادية ومدتها ثلاث سنوات، والثانية تسمى الثانوية ومدتها ثلاث سنوات، الأولى منها تعطى فيها ثقافة عامة لجميع الطلاب، وتخصص السنتان الباقيتان لنوع من التوجيه العلمي أو الأدبي.

على ان ليبيا لم تقتصر على التعليم العادي فيما فوق الابتدائي، بل أخذت بإنشاء مدارس مهنية ومعاهد للمعلمين والمعلمات محاولة بذلك الافادة من ميول الطلاب والطالبات، وسد حاجاتها إلى أهل التدريب والمعرفة العلمية المنظمة في الزراعة والصناعة والتجارة. ففي ولاية برقة مثلاً يوجد معهد للمعلمين والمعلمات ومدرسة صناعية ومدرسة تجارية ومدرسة زراعية. يضاف إلى ذلك مركز للتربية الأساسية. وفي ولاية طرابلس الغرب خمسة معاهد للمعلمين ومعهد للمعلمات ومدرسة تجارية وأخرى صناعية وثالثة زراعية ورابعة للاشغال اليدوية، وثمة معهد للهندسة التطبيقية فيها كلها ٢٥٢٦ طالباً (منهم ٣٥٤ طالبة). وفي فزان معهد للمعلمين فيه مائة طالب. والنية متجهة إلى فتح مدرسة صناعية وأخرى تجارية في سبها.

وما دمنا بصدد التحدث عن المدارس المهنية والفنية، فجدير بنا أن نذكر ان نظارات المعارف، رغبة منها في الحصول على أكبر عدد ممكن من المعلمين، كانت تسمح للطلاب بالالتحاق بمعهد المعلمين بعد اتمام الدراسة الابتدائية. ولكن اعتباراً من السنة الدراسية الحالية سيكون الدخول متاحاً إلى بعض معاهد المعلمين للذين أتموا السنوات الاعدادية الثلاث. ومن هنا كان التفريق بين معاهد المعلمين العامة (النوع الأول) ومعاهد المعلمين الخاصة (النوع الثاني) ومدة الدراسة في معاهد المعلمين في كل حالة أربع سنوات. ومثل هذا يقال عن المدارس المهنية ـ زراعية كانت أم صناعية أم تجارية. فهي أيضاً في دور الترقية، فثمة في برقة مدارس تجارية وصناعية وزراعية متوسطة، ومثلها مدارس راقية.

والذي نخلص اليه من هذا العرض الموجز هو أن التعليم في ليبيا اجتاز، في سني الاستقلال الأولى، تجارب معينة كان لا بد من اختبارها قبل أن يستقر على حال من الاحوال. والذي أشرنا إليه من حيث السنون والمدارس، ينطبق على البرامج والمناهج. أما الآن فقد أصبح للمدارس الليبية مناهجها الخاصة المنتزعة من حاجة البلاد.

٣

ويمكن القول اجمالاً إن المدارس الابتدائية تسير على منهاج يتصف بالأمور التالية:

(١) السنوات الأربع الأولى تدرس ٣٤ حصة في الاسبوع، والسنتان الآخريان تدرسان ٣٦ حصة في الأسبوع.

(٢) نصف هذه الدروس أو أقل قليلاً تخصص للدين واللغة العربية.

(٣) ينال الحساب عدداً لا بأس به من الحصص (٦ في الأسبوع في كل سنة).

(٤) مبادىء العلوم والاشغال العملية وفلاحة البساتين والرسم والتربية البدنيّة تدرس في جميع السنوات الابتدائية.

(٥) الهندسة العملية والتاريخ والجغرافية والتربية الوطنية تدرس في السنتين الاخيرتين فقط.

(٦) هذه الاطار العام يناله تبديل وتعديل جزئي عملاً بالحاجة المحلية. أما الدراسة بالمرحلة الاعدادية فهي على النهج التالي:

خطة الدراسة بالمرحلة الاعدادية

مجموع الحصص

المادة	عدد الحصص		
		٢	٢
القرآن الكريم والدين	في سنة	٢	٢
اللغة العربية		٣٦	٢
اللغة الانجليزية	أولى		٣٦
	٣	ثانية	
التاريخ	٧	٢	ثالثة
التربية الوطنية	٧	٧	٢
الجغرافيا	٢	٧	٧
الرياضيات	١	٢	٧
العلوم العامة والصحة	٢	١	٢
التربية البدنية	٤	٢	١
الرسم	٤	٥	٢
الاشغال العملية	٢	٤	٥

خطة الدراسة الثانوية هي كما يلي ـ برقة

عدد الحصص في كل سنة

المادة	أولى	ثانية	ثانية علمي	ثالثة أدبي	ثالثة علمي
القرآن الكريم والدين	٢	٢	٢	١	١
اللغة العربية	٦	٨	٥	٨	٥
اللغة الانجليزية	٧	٩	٥	٩	٦
اللغة الفرنسية	٤	٥	٤	٥	٤
الترجمة	١	١	١	١	١
التاريخ والمجتمع	٢	٢	-	٢	-
الجغرافيا	٢	٢	-	٢	-
التربية الوطنية	١	-	-	-	-
الرياضيات	٤	-	٧	-	-
الفلسفة	-	٢	-	٢	-
الاجتماع	-	٢	-	٢	-
الطبيعة	٣	-	٣	-	٣
الكيمياء	٣	-	٣	-	٣
الاحياء	-	-	٣	-	٣
الدراسات	-	٣	٣	٣	٣
التربية الفنية	١	-	-	-	-
التربية البدنية	١	١	١	١	-
	٣٦	٣٦	٣٦	٣٦	٣٦

ومن المهم أن نلاحظ الخطى التي قطعتها البلاد في سبيل نشر التعليم وتوسيعه:

(١) فقد كان في برقة ٦٠ مدرسة ابتدائية سنة ١٩٥١/١٩٥٢ فارتفع العدد إلى ٢١١ سنة ١٩٦٠/١٩٦١. وكان عدد الطلاب فيها ٨,٩٠١ في المرحلة الأولى فارتفع إلى ٤٠,٥٦٤ في المرحلة الثانية.

(٢) وكان في برقة مدرستان ثانويتان سنة ١٩٥١/١٩٥٢ فيهما ١٩٨ طالباً، فأصبح عدد المدارس ٢٣ سنة ١٩٦٠/١٩٦١ فيها ٣,٨٩٢ طالباً.

(٣) وكان في طرابلس سنة ١٩٥٢/١٩٥١ من المدارس الابتدائية ١٣٤ مدرسة فيها ١٨٨ و٢٣ طالباً فأصبح العدد ٢٨٩ سنة ١٩٦٢/١٩٦٠ فيها ٧٢,٩٧٦ طالباً.

(٤) وارتفع عدد المدارس الثانوية في ولاية طرابلس من مدرستين ثانويتين سنة ١٩٥٢/١٩٥١ فيهما ٤١٤ طالباً إلى ٦٢ مدرسة سنة ١٩٦١/١٩٦٠ فيها ٧,١٤٥ طالباً.

(٥) وفي فزان ارتفع عدد المدارس الابتدائية من ١٦ في سنة ١٩٥٣ إلى ٦٣ مدرسة سنة ١٩٦١/١٩٦٠، وارتفع عدد الطلاب من ١,٠٠١ إلى ٦,٧٩٣ في الفترة نفسها. وانشئت مدرسة ثانوية في سبها مؤخراً.

(٦) وارتفع عدد البنات في المدارس الابتدائية من سنة ١٩٥٢/١٩٥١ إلى سنة ١٩٦١/١٩٦٠ من ٣,٦٢٣ إلى ٢٢,٧٧٢. وفزان وحدها فيها أكثر من الف فتاة يتلقين التعليم الابتدائي في مدارسها.

٤

حري بنا أن نشير هنا إلى التعاون الذي يتم بين الحكومة الليبية الاتحادية ونظارات المعارف من جهة، وبين اليونسكو في حقل التعليم وما إلى ذلك. ولعلّ خير ما نفعله هو ان نلخص بعض ما جاء في تقرير الأمم المتحدة (لسنة ١٩٦٠) عن بعثتها في ليبيا فقد جاء فيه:

(١) تهدف منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) في ليبيا إلى دعم الجهود القومية الرامية إلى خلق نظام تعليمي ليبي، يفي، لا بحاجات الجهاز المدرسي الآخذ في الاتساع فحسب، بل وبحاجات فئات الكبار في المجتمعات الريفية في البلاد.

وما زال برنامج بعثة اليونسكو على صلته الوثيقة بالتنمية الاجتماعية والاقتصادية في البلاد، وتركزت الجهود في سنة ١٩٦٠ على تثبيت المشاريع التي بدأت في السنوات الماضية، وبانجاز عدد من المشاريع بنجاح تحقق للبعثة هدف رئيسي هو نقل المشاريع إلى أيدٍ ليبية. وقد أدى هذا في الوقت نفسه، إلى تقليص حجم البعثة، بالرغم من ان جهاز المشروع لسنة ١٩٦٠ ما زال يتألف من ١٩ عضواً بمن فيهم الخبراء الذين يعملون لفترة قصيرة الأمد، وكلهم يعملون جاهدين ومتحدين لتطبيق برنامجهم على أحسن وجه، يكفل تحقيق الخير للبلاد. ويعمل هؤلاء الاعضاء في ثلاث فرق موزعة بين طرابلس الغرب وبرقة وفزان.

(٢) يختلف عمل اعضاء فريق اليونسكو الستة في برقة عن عمل زملائهم في طرابلس الغرب، إذ انهم جميعاً يعملون في معاونة نظارة المعارف للنهوض بمركز التربية الأساسية في الفويهات قرب بنغازي. ويهدف برنامج التربية الأساسية هناك إلى غرضين رئيسين:

(١) تدريب شبان ليبيين ليصبحوا مدرسين ريفيين ومرشدين اجتماعيين.
(٢) تعليم الكبار بين نساء قرية الفويهات.

ويعمل أول عشرين خريج لمركز الفويهات، ممن أنهوا تدريباً مدته سنتان، كمعلمين في مدارس قرى مختارة في ولاية برقة حيث يقومون بعد ساعات الدوام المدرسية بتنفيذ برنامج للتربية الأساسية في مجتمعات القرى التي يعملون فيها. وفي العام الماضي زيدت مدة التدريب فأصبحت ثلاث سنوات. وبالاضافة إلى المحاضرات التي تلقى في الموضوعات المدرسية يتلقى المتدربون في الفويهات تدريباً في تنظيم صفوف لتعليم الأميين، والحرف اليدوية، والتربية البدنية، وتنظيم حدائق المدارس، والتغذية والتربية الصحية، وتحضير وسائل الايضاح السمعي البصري الخاصة بالتدريس.

(٣) «ويعيش الفريق الثالث لليونسكو بعيداً في قلب الصحراء في فزان، ويتألف من ثلاثة اعضاء يتولون الاشراف على عشرين مركزًا للتربية الأساسية موزعة في انحاء متفرقة من فزان، يقومون فيها بالارشاد للسكان المحليين. ومع ان تعليم الكبار هو الهدف الرئيسي فانه يعطي بعض التدريب على الصناعات المحلية البسيطة.

«وتعنى بعثة اليونسكو ايضاً بتعليم المرأة في فزان. وتتولى اخصائية التربية الأساسية تدريب ثلاثين معلمة من جميع انحاء فزان في المركز الداخلي للنساء بسبها الجديدة لإعدادهن كمدرسات للمستقبل بموجب برنامج مدته ثلاث سنوات. وبالاضافة إلى هذا تلقي الاخصائية دروساً مسائية لنساء سبها في مختلف المواضيع الأساسية، كحفظ الصحة ومبادىء رعاية الطفل واشغال الابرة وتعليم الاميات».

(٤) ولعله من المناسب ان نشير إلى مركز التدريب الفني والكتابي الذي بدأته اليونسكو، ثم أمر تقديم المساعدة الفنية إلى منظمة العمل الدولية.

مركز التدريب الفني والكتابي

هذا المركز هو معهد حكومي للتدريب المهني، وقد انشىء في نهاية سنة ١٩٥٠. وقد تلقى في سنيه الأولى مساعدة فنية من اليونسكو بموجب برنامج الأمم المتحدة الموسع للمساعدة الفنية. وفي سنة ١٩٥٣ تولت منظمة العمل الدولية وحدها مسؤولية تقديم المساعدة للمركز، بموجب البرنامج عينه، وما تزال تفعل حتى الآن.

ويقبل المركز الليبيين الشبان من الولايات الثلاث للالتحاق بدوراته، بشرط ان يكونوا حائزين على شهادة اتمام الدراسة الابتدائية التي تخولهم حق الانتساب الى الدورات النهارية الابتدائية الكاملة، أو شهادة اتمام الدراسة الثانوية الاعدادية التي تخولهم حق الانتساب إلى الدورات الكاملة من المستوى العالي. وقد التحق بهذا المركز متدربون من الولايات الثلاث.

وفي المركز قسمان رئيسيان:
القسم الفني
القسم الكتابي
وفيما يلي الدورات النهارية الكاملة التي يوفرها المركز حالياً:

(١) القسم الفني

أ ـ دورة للمبتدئين
١) الميكانيكا العامة.
٢) التلحيم، اشغال الصفائح الحديدية، الحدادة، سبك الرصاص.
٣) صيانة السيارات واصلاحها بما في ذلك كهرباء السيارات.
٤) الكهرباء المنزلية.
٥) النجارة.

ب ـ دورة عالية
اعمال الرسم الميكانيكي.

(٢) القسم الكتابي

(أ) دورة في المواضيع التجارية للمبتدئين.
(ب) دورة عالية في مسك الدفاتر.

٥

في سنة ١٩٥٥ انشئت الجامعة الليبية، وهي الآن ذات ثلاث كليات ـ كلية الآداب والتربية وكلية الاقتصاد والتجارة وهما في بنغازي، وكلية العلوم وهي في طرابلس. وقد افتتح ابتداء من العام الدراسي الحالي معهد خاص للهندسة التطبيقية (معهد تكنولوجي) في مدينة طرابلس، وأصبح جزءاً من الجامعة.

وكليتا الآداب والتجارة (في بنغازي) يضمهما قصر المنار العامر الذي تبرع به الملك ادريس الأول ليكون مقراً للجامعة.

وعدد طلاب الجامعة كان في سنة ١٩٦٠/١٩٦١ سبعمائة طالب، لكنه يبلغ الألف في العام الدراسي الحالي.

وتعتمد الجامعة على اساتذة جيء بهم من الخارج للتدريس في كلياتها المختلفة، وهذا أمر طبيعي في بلد لم يتح له مستعمروه في العهد الايطالي بأن يتعلم ـ هذا إن لم يجهلوه. ولكن الاهتمام بإرسال بعثات إلى الخارج هو موضع اهتمام المسؤولين. ففي سنة ١٩٥٨ كان عدد طلاب البعثات الحكومية الذين يدرسون في الخارج:

البلد	العدد	البلد	العدد
مصر	١٩٤	ايطاليا	١٧
العراق	٢٩	بريطانيا	١٠
اسبانيا	٢	فرنسا	١
لبنان	٢	بلجيكا	١

المجموع ٢٧٩

٦

والتعليم الديني، وعلى اختلاف درجاته، موضع اهتمام المسؤولين في ليبيا. ففي ولاية طرابلس الغرب يوجد «ما يزيد على» ٦٠٠ «مدرسة «كتاب» أي مدرسة قرآنية منتشرة في جميع انحائها، ويتراوح عدد طلبة المدارس الواحدة بين الخمسة والخمسين (ومنتهى) الخمسمائة طالب، وتنقسم هذه المدارس إلى ثلاثة أقسام: المدارس القرآنية التقليدية مخصصة لتعليم القرآن فقط، والقسم الثاني وهي المدارس البارزة أي ما تسمى بالمعاهد الدينية الكبرى، وهاته يدرس بها إلى جانب القرآن الكريم مختلف المواد كمبادىء الدين واللغة، والنوع الثالث وهي المدارس القرآنية النموذجية التي أسست أخيراً ويدرس بها إلى جانب القرآن الكريم المبادىء الأولية في مختلف مواد الدراسة. وقد بلغ عددها حتى الآن ست مدارس تضم كل مدرسة من أربعين إلى ثمانين طالباً وبها معلمون ومباشرون ومشرفون يقومون بوظيفة التفتيش، ومنظمة كبقية المدارس الابتدائية النظامية والمراقبة العامة للمدارس القرآنية في مختلف المراكز الى مدارس نموذجية قرآنية.

وتضم هذا المدارس في مجموعها ما لا يقل عن ثلاثين ألف طالب.

وفي برقة ما لا يقل عن ٤٠ كتّاباً لتحفيظ القرآن الكريم، هذا عدا عن الزوايا البالغ عددها ٤٤.

وفي فزان ١٣٦ مدرسة قرآنية فيها ٢٦٥١ تلميذاً يحفظون القرآن باشراف ١٣٦ مدرساً.

على ان التعليم الديني يمارس أيضاً في الزوايا البالغ عددها ٤٤ في برقة ولها ادارة خاصة انشئت سنة ١٩٤٧ ومقرها اليوم في البيضا. وفي ولاية طرابلس ٣٧ زاوية لها ايضاً ادارة خاصة في مكتب ناظر المعارف.

في سنة ١٩٥٣ انشئت مدارس ابتدائية يدخلها الطلاب الذين حفظوا القرآن الكريم يقضون فيها أربع سنوات تظل فيها العلوم الدينية هي الأساس، لكن علوم اللغة العربية والحساب والجبر والهندسة مع مبادىء العلوم الأخرى تدّرس فيها. وتوجد المدارس الابتدائية هذه في زليطن وطرابلس (جزء من مدرسة أحمد باشا) وسبها والبيضا وينغازي ودرنه.

وينتقل الطالب الناجح في القسم الابتدائي إلى مدرسة ثانوية حيث يتابع دراسته دينياً ولغوياً وعلوماً ـ طبيعة وكيمياء واحياء. وهذه المدارس الثانوية ضمت إلى المعهد في مطلع سنة ١٩٥٦. والمدارس الثانوية الآن موجودة في زليطن وطرابلس والبيضا.

ولعلّ أهم خطوة في تنظيم التعليم الديني في ليبيا هي انشاء القسم العالي في المعهد بالبيضاء. ومدة الدراسة فيه أربع سنوات ونواحي التخصص فيه ثلاث: الشريعة وأصول الدين واللغة العربية. وقد انشىء هذا القسم سنة ١٩٥٧ وصدر المرسوم الملكي به في آذار (مارس) سنة ١٩٥٩، وقد تخرج فيه أول فوج في صيف ١٩٦٢.

وميزانية المعهد للسنة الدراسية الحالية هي نحو مليون جنيه ليبي ولها موردان أولهما أوقاف المدارس القديمة التي ادخلت في المعهد بحسب التنظيم الذي تم في السنوات الأخيرة، وثانيهما مخصصات من ميزانية المملكة الليبية المتحدة.

والقسم العالي من المعهد، مهيأ لأن يكون ذا ثلاث كليات: الشريعة وأصول الدين واللغة العربية، وهو الذي سينتهي الأمر به لأن يكون «جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية».

ويشرف على شؤون المعهد العلمية والإدارية مجلسه الأعلى الذي يتألف من شيخ المعهد رئيساً، ووكيل المعهد والمستشار القانوني للديوان الملكي ورئيس ادارة التشريع والقضايا بوزارة العدل وممثل لوزارة المعارف، وممثل لوزارة المال ومدير الزوايا السنوسية واثنين من العلماء واثنين ممن لهم خبرة بشؤون التعليم. ومتى تم تنظيم القسم العالي في كليات سيصبح عمداؤها اعضاء في المجلس الأعلى الذي يتغير تأليفه بعض الشيء.

ومنهاج الدروس في القسم العالي بشعبه الحالية (أو كلياته المستقبلة) يمكن اجماله بما يلي:

(١) يشترط لقبول الطالب في المعهد للحصول على الشهادة العالية ان يكون حاصلاً على شهادة الدراسة الثانوية من المعهد أو من الجامع الأزهر أو من معهد معادل لهما.

وفي السنة الأولى تكون الدراسة مشتركة بين الشُعب كافة بحيث يدرس جميع الطلاب الفقه ومصطلح الحديث والتوحيد والأصول وعلوم اللغة والمنطق. ثم تتفرع الدراسة أو تتشعب. فشعبة أصول الدين يدرس طلابها، للحصول على العالمية، التوحيد والنحو والتفسير والحديث الشريف وعلومه والمنطق والأدب والبحث والأخلاق والفلسفة والأصول واللغة والتاريخ الإسلامي وعلم النفس وعلم الاجتماع.

(٢) وفي شعبة الشريعة يدرس الطلاب التفسير، الحديث، متنا ورجالاً، ومصطلحاً، أصول الفقه، الفقه مع حكمة التشريع ومقارنة المذاهب في المسائل الكلية،

النحو، التشريع الإسلامي، المنطق، الفلسفة، قوانين المحاكم الشرعية ولوائحها، الأوقاف، التوثيقات الشرعية، اجراءات وتمرينات قضائية ودراسة القضايا ذات المبادىء، السياسة الشرعية، القانون الدولي الخاص، تاريخ القضاء، والقضاء في الاسلام.

(٤) أما في شعبة اللغة العربية فتدرس المواد الآتية:

النحو، الصرف، الوضع، فقه اللغة، الفقه، الأصول، الانشاء، علوم البلاغة (البيان والمعاني والبديع) الآداب العربية وتاريخها، الأدب المقارن، العروض، القافية، التفسير، الحديث، المنطق، الفلسفة، المطالعة، علم النفس، أصول التربية، الطرق العامة والتنظيم المدرسي، تاريخ التربية، التربية العلمية، طرق التدريس الخاصة، الأخلاق، تدبير الصحة المدرسي، الرسم، تجويد الخط، التربية البدنية.

وقد نص المرسوم الملكي المؤرخ في ٧ آذار (مارس) ١٩٥٩ على انشاء تخصص في كل هذه الشعب، مدة الدراسة فيها تتوقف على المادة والتخصص ولكنها لا تقل عن ثلاث سنوات، وتنتهي بشهادة العالمية من درجة استاذ.

ويشرف على شؤون القسم العالي من المعهد مجلسه المكون من شيخ القسم (رئيساً) ووكيله وثلاثة من بين اساتذة القسم يعينهم المجلس الأعلى (للمعهد) سنوياً.

١

إحصائية عامة تبين تطور التعليم الابتدائي في ولاية برقة

منذ عام ٥١ ـ ١٩٥٢ حتى عام ٦٠ ـ ١٩٦١

العام الدراسي	عدد المدارس	عدد التلاميذ			المدرسون والمدرسات
		بنين	بنات	المجموع	
٥٢/٥١	٦٠	٩٣٠٠	١٣٦١٨	١٠٦١٨	٣٥٠
٥٣/٥٢	٦٦	١٢١٦٥	٢٠٠٩	١٤١٧٤	٤٣٩
٥٤/٥٣	٧٨	١٢٥٩٦	٣٥٣٠	١٦١٢٦	٥١٨
٥٥/٥٤	٩٠	١٥٥٨٤	٤٨٥٤	٣٠٤٣٨	٥٥٤
٥٦/٥٥	١٣٢	١٨٨٨٠	٣٩٨٤	٢٢٨٦٤	٧٦٠
٥٧/٥٦	١٥٤	٢٢٤٨١	٥٤٢٦	٢٧٩٠٧	٩٩٣
٥٨/٥٧	١٦٢	٢٧٢٧٠	٦٥٧٨	٣٣٨٤٨	١١٨٨
٥٩/٥٨	١٧٨	٣٠٧٩٦	٥٣٧٢	٣٦١٦٨	١٥٨٥
٦٠/٥٩	٢٠٤	٢٩٥١٨	٨٧٢٣	٣٨٢٤١	١٦٣٩
٦١/٦٠	٢١١	٣٠٧٨٠	٩٧٨٤	٤٠٥٦٤	١٧٦٥

٢

احصائية توضح تطور التعليم الابتدائي

بمدارس ولاية طرابلس الغرب

السنة الدراسية	عدد المدارس	عدد الطلاب			مدرسون ومدرسات	ملاحظات
		بنين	بنات	المجموع		
١٩٥٢/١٩٥١	١٤١	٢٣٥٩٢	٣٦٧٧	٢٦٢٦٩	٨٠٦	
١٩٥٣/١٩٥٢	١٢٢	٢٣٣٢٢	٣٦٢٢	٢٦٩٤٤	٨١٣	
١٩٥٤/١٩٥٣	١٦٦	٢٥٥٢٥	٤٨٨٥	٣٠٤١٠	١٠٥٥	
١٩٥٥/١٩٥٤	١٩٥	٢٨٠٠٩	٥٨٢٥	٣٣٨٣٤	١١٧٢	
١٩٥٦/١٩٥٥	٢٠٢	٣٢٢٧٨	٧٠١٧	٣٩٢٩٦	١٢٣٧	
١٩٥٧/١٩٥٦	٢٢٠	٣٨٢٢٠	٨٠٧٩	٤١٢٩٩	١٣٥٣	
١٩٥٨/١٩٥٧	٢٢٦	٤٢٣٦٨	٩٦١٩	٥١٩٨٧	١٤١٩	
١٩٥٩/١٩٥٨	٢٤٢	٤٦١٣٤	١٠٤١٠	٥٦٥٤٤	١٦٢١	
١٩٦٠/١٩٥٩	٢٦٦	٥٣١٥٦	١١٥٦٢	٦٤٧١٨	١٨٢٨	
١٩٦١/١٩٦٠	٢٨١	٦٠٩٠٣	١٢٠٧٣	٧٢٩٧٦	٢٠٦٧	

٣

إحصائية بعدد طلاب ومدرسي مدارس ما فوق الابتدائي بفزان

لسنة ١٩٦٠ ـ ١٩٦١

المدرسة	عدد الطلاب	عدد المدرسين			مجموع المدرسين
		وطنيون	منتدبون	عقود	
سبها الثانوية	٢٧		١	١	٢
معهد سبها للمعلمين	١٠٠	٢	٣	٣	٨
سبها الاعدادية	١٥١	٣	١	٧	١١
هون الاعدادية	٦٣	١	٢	٢	٥
براك الاعدادية	٩٠	ـ	٢	٤	٦
مرزق الاعدادية	٤٣	١	ـ	٢	٣
المجموع	٤٧٤	٧	٩	١٩	٣٥

٤

جدول احصائي بعدد طلاب ومدرسي مدرسة طرابلس الثانوية

منذ تأسيسها حتى العام الدراسي ٦٠ ـ ٦١

السنة الدراسية	الطلاب	المدرسون
٤٨/٤٧	١٧٠	٨
٤٩/٤٨	١٨٦	١٤
٥٠/٤٩	٢٨٠	١٨
٥١/٥٠	٣١٢	٢١
٥٢/٥١	٣٨٢	٢٦
٥٣/٥٢	٤٧٣	٣٦
٥٤/٥٣	٦٢٣	٤٥
٥٥/٥٤	٨٩٢	٧٢
٥٦/٥٥	١٠٤٢	٦٣
٥٧/٥٦	١٠٩٨	٧٤
٥٨/٥٧	١١٥٣	٧٧
٥٩/٥٨	٤٥٤	٤٩
٦٠/٥٩	٣٨١	٢٢
٦١/٦٠	٤٢٥	٣٣

٥

جدول احصائي بتطور التعليم بمرحلة ما فوق الابتدائي في ولاية طرابلس

سنة ٥٢/٥١ حتى العام الدراسي ٦١/١٩٦٠

السنة الدراسية	الاعدادية		الثانوية		المعاهد الفنية		المجموع	
	طلاب	مدرسون	طلاب	مدرسون	طلاب	مدرسون	طلاب	مدرسون
٥٢/٥١	٣٩٣	٢٨	١٤٢	١١	٤٣٧	٤٦	٩٧٢	٨٥
٥٣/٥٢	٤٤٠	٣٥	١٩٠	١٥	٥٩٤	٥٥	١٢٢٤	١٠٥
٥٤/٥٣	٨٥٥	٥١	٢٣٩	٢٠	٨٤٩	٧٤	١٩٤٣	١٤٥
٥٥/٥٤	١٣٦٤	٩٥	٣٩٨	٤٠	١١٤٥	٩٢	٢٩٠٧	٢٢٧
٥٦/٥٥	١٩٨٥	١٠٤	٥٢٧	٤١	١٤١٠	١١٨	٣٩٢٢	٢٦٣
٥٧/٥٦	٢٣٣٤	١٦١	٧٦٥	٦٠	١٦١٧	١٣٤	٤٧١٦	٣٥٥
٥٨/٥٧	٢٩٣٩	١٨٦	١٠٦٥	٨٤	١٧١٠	١٦٣	٥٧١٤	٤٣٣
٥٩/٥٨	٣٦١١	٢٠٢	١٢٩١	١١٠	١٩٠٢	١٨٥	٦٨٠٤	٤٩٧
٦٠/٥٩	٤٢٠٥	٢٩٢	١٠٤٥	٨١	٢١٥٨	٢٣٧	٧٤٠٨	٦١٠
٦١/٦٠	٥٨٩٣	٣٢٠	١٢٥٢	٧٩	٢٥٢٦	٢١٠	٩٦٧١	٦٠٩

٦

إحصائية تبين نمو التعليم الاعدادي والثانوي في ولاية برقة منذ عام ٥١ ـ ١٩٥٢ حتى عام ٦٠/١٩٦١

العام الدراسي	عدد المدارس		عدد الطلاب		المجموع	المدرسون والمدرسات
	ثانوي	اعدادي	بنين	بنات		
٥٢/٥١	٢	ـ	٢٣٨	٢٢	٢٦٠	٢٠
٥٣/٥٢	٣	ـ	٣٥٤	١٦	٣٧٠	٣٣
٥٤/٥٣	٣	ـ	٤٥٣	٢٠	٤٧٣	٤٠
٥٥/٥٤	٣	ـ	٦١٤	٢٩	٦٤٣	٥٤
٥٦/٥٥	٤	٥	٧١٩	٤٥	٧٦٤	٦٨
٥٧/٥٦	٤	٦	١٤٩٥	٧٠	١٠٧٠	٨١
٥٨/٥٧	٤	٧	١٦٠٤	٩١	١٦٩٥	٩٠
٥٩/٥٨	٦	٨	٢٤٨٨	١٢٧	٢٦١٥	١١٧
٦٠/٥٩	٧	١٢	٣٠٧٠	٢٢٤	٣٢٩٤	٣٠٨
٦١/٦٠	٧	١٦	٣٥٤٥	٣٤٧	٣٨٩٢	٢٩٩

٧

تطور التعليم في معاهد المعلمين والمعلمات العامة في برقة منذ عام ٥١/١٩٥٢ حتى عام ٦٠/١٩٦١

العام الدراسي	عدد المعاهد	عدد الطلاب		المجموع	عدد المدرسين
		بنين	بنات		
٥٢/٥١	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ
٥٣/٥٢	٢	٢٤	٩	٣٣	٦
٥٤/٥٣	٢	٤٩	١٤	٦٣	٨
٥٥/٥٤	١	٧١	ـ	٧١	١١
٥٦/٥٥	٢	١٣٣	١١	١٤٤	١٢
٥٧/٥٦	٢	١٦٩	١٤	١٧٩	١٣
٥٨/٥٧	٢	٢١٩	٢٥	٢٤٤	٢٣
٥٩/٥٨	٢	٢٠٧	٣٥	٢٤٢	٢٧
٦٠/٥٩	٢	٢٠٥	٣٥	٢٤٠	٢٨
٦١/٦٠	٢	٢٠٤	٤٢	٢٤٦	٢٣

٨

تطور التعليم في مدرسة الصناعة والتجارة في برقة

منذ انشائها عام ١٩٥٣/٥٢ حتى عام ١٩٦٠/٥٩

العام الدراسي	المدارس	الطلاب	عدد المدرسين	ملحوظات
٥٣/٥٢	١	٧٥	٦	
٥٤/٥٣	١	٣٠	١٢	
٥٥/٥٤	١	٤٦	١٤	
٥٦/٥٥	١	٨٧	١٧	
٥٧/٥٦	١	٢٠٨	٢١	
٥٨/٥٧	١	٩٦	١٨	
٥٩/٥٨	١	٣٢	٩	إحصائية خاصة بالصناعة
٦٠/٥٩	١	٩٠	١٩	
٦٠/٥٩	١	٥٣	٤٩	احصائية خاصة بالتجارة
٦٠/٥٩	١	١١٨		صناعة ـ تجارة

٩

إحصائية توضح تطور تعليم البنات في ولاية فزان

منذ ١٩٥٤/١٩٥٥ حتى سنة ٦٠/١٩٦١

العام الدراسي	عدد المدارس	عدد الطالبات	عدد المدرسات
١٩٥٥/١٩٥٤	١	٤٥	٢
١٩٥٦/١٩٥٥	٤	١٩٣	٤
١٩٥٧/١٩٥٦	٤	٢٠٣	٧
١٩٥٨/١٩٥٧	٧	٥٧٢	١٨
١٩٥٩/١٩٥٨	١٠	٦٥٦	٢١
١٩٦٠/١٩٥٩	١٥	٧٦٦	٣٠
١٩٦١/١٩٦٠	١٢	٩١٥	٣٣

ملحوظة:

توجد (٢١١) طالبة يدرسن في مدارس البنين في العام الدراسي ١٩٦٠/١٩٦١م.

١٠

إحصائية توضح تطور التعليم في مدارس البنين في ولاية فزان

منذ سنة ١٩٥٢/١٩٥٣ حتى العام الدراسي ٦٠/٦١

السنة الدراسية	عدد المدارس	عدد الطلاب	عدد المدرسين
١٩٥٢/١٩٥٣	١٧	١٠٠١	٢٨
١٩٥٣/١٩٥٤	١٩	١٣٠٤	٢٩
١٩٥٤/١٩٥٥	٢٧	١٩٤١	٥٦
١٩٥٥/١٩٥٦	٣٨	٢٨٩١	٩٩
١٩٥٦/١٩٥٧	٤١	٣٥٢٠	١٢٢
١٩٥٧/١٩٥٨	٤٤	٤٣١٨	١٦٣
١٩٥٨/١٩٥٩	٤٧	٤٦٩٥	١٩٦
١٩٥٩/١٩٦٠	٥١	٥٣٥١	٢١٦
١٩٦٠/١٩٦١	٥١	٥٨٧٨	٢٣٣

١١

جدول احصائي بعدد الطلاب ومدرسي معهد سبها للمعلمين

منذ تأسيسه حتى العام الدراسي ٦٠ ـ ١٩٦١

السنة الدراسية	السنة الأولى	السنة الثانية	السنة الثالثة	السنة الرابعة	المجموع	عدد المدرسين
١٩٥٨/١٩٥٩	٢١	ـ	ـ	ـ	٢١	٢
١٩٥٩/١٩٦٠	٣١	١٦	ـ	ـ	٤٧	٤
١٩٦٠/١٩٦١	٥٥	٣٠	١٥	ـ	١٠٠	٨

١٢

جدول احصائي بعدد طالبات ومدرسات مدرسة طرابلس الثانوية للبنات

منذ تأسيسها حتى العام الدراسي ١٩٦٠/١٩٦١

السنة الدراسية	اولى اعدادي	ثانية اعدادي	ثالثة اعدادي	أولى ثانوي	ثانية ثانوي أدبي	ثانية ثانوي علمي	ثالثة ثانوي أدبي	ثالثة ثانوي علمي	المجموع	عدد المدرسات
١٩٥٧/١٩٥٦	٢٨	-	-	-	-	-	-	-	٢٨	٢
١٩٥٨/١٩٥٧	٣١	٢٢	-	-	-	-	-	-	٥٣	٤
١٩٥٩/١٩٥٨	٣٩	٣٩	-	٢٠	-	-	-	-	٩٨	٧
١٩٦٠/١٩٥٩	٦٤	٣٥	٣١	١١	-	١٨	-	-	١٥٩	١٤
١٩٦١/١٩٦٠	٧٨	٦٢	٣٧	٢٥	٦	٧	-	١٧	٢٣٢	٢٠

١٣

ولاية طرابلس الغرب

جدول احصائي بعدد المدارس الابتدائية والاعدادية والمهنية والثانوية والأماكن الموجودة بها منذ سنة ١٩٥٥ حتى سنة ١٩٦١

المقاطعات	المدارس الابتدائية							المدارس الاعدادية						
	سنة ٥٥	سنة ٥٦	سنة ٥٧	سنة ٥٨	سنة ٥٩	سنة ٦٠	سنة ٦١	سنة ٥٥	سنة ٥٦	سنة ٥٧	سنة ٥٨	سنة ٥٩	سنة ٦٠	سنة ٦١
طرابلس	٥٢	٥٤	٥٩	٥٩	٦١	٧١	٧٨	١	١	٣	٦	١٠	١٢	٢٠
الغربية	٤٣	٤٣	٤٦	٤٨	٥٤	٥٤	٦٠	١	١	٥	٧	١١	١٣	١٥
الشرقية	٤٨	٤٨	٥٥	٢٣	٢٥	٣٠	٣١	١	١	١	٢	٢	٣	٣
الشمالية	-	-	-	٢٥	٢٦	٣١	٣٤	-	-	-	٤	٤	٤	٤
الوسطى	٥٠	٥٧	٦٠	٧١	٧٧	٨٠	٨٦	١	١	٤	٦	٩	١٢	١٣
المجموع	١٩٣	٢٠٢	٢٢٠	٢٢٦	٢٤٣	٢٢٦	٢٨٩	٤	٤	١٣	٢٥	٣٦	٤٤	٥٥

١٤

المقاطعات	المدارس المهنية							المدارس الثانوية						
	سنة ٥٥	سنة ٥٦	سنة ٥٧	سنة ٥٨	سنة ٥٩	سنة ٦٠	سنة ٦١	سنة ٥٥	سنة ٥٦	سنة ٥٧	سنة ٥٨	سنة ٥٩	سنة ٦٠	سنة ٦١
طرابلس	٤	٥	٥	٦	٦	٦	٧	١	١	١	٢	٢	٢	٣
الغربية	-	-	-	-	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
الشرقية	-	-	-	-	-	-	-	١	١	١	١	١	١	١
الشمالية	-	-	-	-	١	١	١	-	-	-	-	١	١	١
الوسطى	-	-	-	-	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
لمجموع	٤	٥	٥	٦	٩	٩	١٠	٤	٤	٤	٥	٦	٦	٧

بعض المصادر المختارة

المصادر العربية

١ ـ ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد، **الكامل في التاريخ**، ٩م، حققه عبد الوهاب النجار، ادارة الطباعة المنيرية، القاهرة، ١٣٤٨ هـ ـ ١٣٥٧ هـ.

٢ـ الاجدابي، أبو اسحق ابراهيم بن اسماعيل، **الازمنة والانواء**، حققه الدكتور عزة حسن، نشرته وزارة الثقافة والارشاد القومي، ضمن سلسلة احياء التراث القديم، دمشق ١٩٦٤م.

٣ ـ ارسلان، الأمير شكيب، **الحلل السندسية في الاخبار والآثار الاندلسية**، ٣م، الجزء الأول والثاني نشرته المكتبة التجارية بفاس وتطوان، الجزء الثالث نشرته مطبعة عيسى البابي وشركاه، القاهرة، ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩م.

٤ ـ **حاضر العالم الاسلامي**، ٤م تأليف ستودارد تيودور لوثروب، ترجمة عجاج نويهض، علق عليه وكتب الحواشي الأمير شكيب ارسلان، الطبعة الثانية مطبعة البابي، القاهرة، ١٩٤٢.

٥ ـ الأشهب، محمد الطيب بن ادريس، **السنوسي الكبير**، مطبعة محمد عاطف، طرابلس الغرب، ١٩٥٦.

٦ ـ **برقة العربية أمس واليوم**، مطبعة الهواري، القاهرة، ١٩٤٧م.

٧ ـ الاصفهاني، العماد الكاتب، **جريدة القصر وجريدة أهل العصر**، قسم شعراء الشام، ٢م، حققه شكري فيصل، المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٥٥ ـ ١٩٥٩م، قسم شعراء مصر حققه أحمد أمين، شوقي ضيف، واحسان عباس، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥١ ـ ١٩٥٩م، قسم شعراء المغرب حققه محمد رضا الشبيبي، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، ١٩٦١م.

٨ ـ اكنسوس، أحمد بن، **الجيش العرمرم الخماسي في دولة مولانا علي السجلماسي**، ٢م، صححه عبد الكريم بن العربي، ١٣٢٦ هـ.

٩ ـ التجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد، **رحلة التجاني**، نشرها وقدم لها حسن حسني عبد الوهاب، المطبعة الرسمية، تونس، ١٩٦٠م.

١٠ ـ التونسي، خير الدين، **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، مكتبة الدولة، تونس، ١٢٨٤ هـ.

١١ـ الجربي، محمد أبو راس، **مؤنس الأحبة في اخبار جربة**، حققه محمد المرزوقي، المطبعة الرسمية، تونس، ١٩٦٠.

١٢ ـ الحبابي، محمد عزيز، **بؤس وضياء** ـ شعر، منشورات عويدات، بيروت ١٩٦٢م.

١٣ ـ حجي، محمد، **الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي**، المطبعة الوطنية بالرباط، ١٣٨٤ هـ/١٩٦٤م.

١٤ ـ الحداد، الشيخ طاهر، **امرأتنا في الشريعة والمجتمع**، المطبعة الفنية، تونس، ١٩٣٠.

١٥ ـ حداد، مالك، **رصيف الزهور**، رواية جزائرية، ترجمة أحمد نظير نيشوقي، دار الاتحاد، بيروت، لا. ت.

١٦ ـ الحشائشي، محمد بن عثمان، **رحلة إلى فزان وجغبوب وكفرة في جنوب برقة**، ميكروفيلم عن نسخة منسوخة على الآلة الكاتبة في دار الكتب المصرية كما رجعت إلى الترجمة الفرنسية المختصرة والمنشور باسم Au Pay des Sennussia

١٧ ـ الحميدي، أبو عبدالله محمد بن فتوح، **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس**، قام بتصحيحه محمد بن تاويت الطنجي، مكتبة نشر الثقافة الاسلامية، القاهرة، ١٩٥٢ م.

١٨ ـ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ٧م، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٥٩٦/١٩٥٩.

١٩ ـ ابن خلدون، أبو زكريا يحيى بن ابي بكر محمد بن محمد بن الحسن، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، ٢م، حققه الفرد بل، مطبعة الاخوين وشركائهما الشرقية في الجزائر، ١٣٣٨ هـ/١٩١٠م.

٢٠ ـ خريف البشير، **برق الليل**، الشركة القومية للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٦١ م.

٢١ ـ ابن الخوجه، محمد الحبيب، **الورغي الشاعر**، من سلسلة ادباء المغرب العربي، الشركة القومية للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٦١م.

٢٢ ـ ابن دحية، ابو الخطاب عمر بن الحسن، **المطرب من اشعار أهل المغرب**، حققه ابراهيم الابياري وحامد عبد المجيد، وأحمد بدوي، راجعه طه حسين، المطبعة الاميرية القاهرة، ١٩٥٤م.

٢٣ ـ ديب محمد، **ابن الفقير**، ترجمة جورج سالم، مراجعة حسيب الحلوي، وزارة الثقافة والارشاد القومي، مديرية التأليف والترجمة، دمشق، ١٩٦٢ م.

٢٤ ـ **الحريق**، ترجمة سامي الدروبي، مراجعة جميل صليبا، وزارة الثقافة والارشاد القومي، مكتبة اطلس، دمشق، ١٩٦١ م.

٢٥ ـ **الدار الكبيرة**، ترجمة سامي الدروبي، مراجعة عمر شخاشيرو، وزارة الثقافة والارشاد القومي، مكتبة اطلس دمشق، ١٩٤٠م.

٢٦ ـ **صيف افريقي**، ترجمة جورج سالم وعبد المسيح بربار، وزارة الثقافة والارشاد القومي، مكتبة اطلس، دمشق، لا. ت.

٢٧ ـ **من الذي يذكر البحر**، ترجمة فريد انطونيوس، مراجعة انطوان مقدسي، منشورات مكتبة أطلس، دمشق لا.ت.

٢٨ ـ **النول**، ترجمة سامي الدروبي، مراجعة بديع الكسم، وزارة الثقافة والارشاد القومي، مكتبة اطلس، دمشق ١٩٦١ م.

٢٩ ـ **الرائد التونسي**، تأسست في غرة محرم، ١٢٧٨ هـ/٢١ تموز ١٨٦٢م.

٣٠ ـ ابن رشيق، حسن، **ديوان ابن رشيق القيرواني**، جمعه ورتبه عبد الرحمن ياغي، دار الثقافة، بيروت، لا. ت.

٣١ ـ **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ٢م، حققها محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الثانية، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٥٥م.

٣٢ ـ **قراضة الذهب**، مطبعة النهضة، القاهرة، ١٩٢٦م.

٣٣ ـ ابن زاكور، أبو عبد الله محمد، **الروض الاريض في بديع التوشيح ومنتقى القريض**، نشر عبدالله كنون مختارات منه، بوسكار العرائش، ١٩٤١م.

٣٤ ـ **البستان الظريف في دولة أولاد مولانا علي الشريف**، فيلم مصور في مكتبة الجامعة الاميريكية في بيروت.

٣٥ ـ زيادة نقولا، **برقة: الدولة العربية الثامنة**، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٥٠م.

٣٦ ـ **محاضرات في تاريخ ليبيا**، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، ١٩٥٨م.

٣٧ ـ سعدالله، ابو القاسم، **رائد الشعر الجزائري: محمد العيد آل خليفة**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠م.

٣٨ ـ السوسي، محمد مختار، **سوس العالمة**، مطبعة فضالة بالمحمدية، المغرب، ١٩٦٠م.

٣٩ ـ الشبيبي، محمد رضا، **أدب المغاربة والاندلسيين**، مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٦١م.

٤٠ ـ الشنقيطي، أحمد بن الأمين، **كتاب الوسيط في تراجم ادباء شنقيط**، والكلام على تلك البلاد تحديداً وتخطيطاً وعاداتهم وأخلاقهم وما يتعلق بذلك، الطبعة الثانية بعناية فؤاد السيد، مطبعة الخانجي، القاهرة، ١٩٥٨م.

٤١ ـ ابو طالب، عبد الهادي، **وزير غرناطة لسان الدين محمد بن الخطيب**، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٥٠م.

٤٢ ـ الظاهري، عبد الباسط بن خليل بن شاهين، **الروض الباسم أو رحلة عبد الباسط بن خليل**، ترجمها للفرنسية روبرت بورنشفيغ، لاروس، باريس، ١٩٣٦، النص العربي ص ١٧ ـ ٦٨.

٤٣ ـ ابن عبد الحكم، ابو القاسم عبد الرحمن بن علي، **فتوح مصر وأخبارها**، حرره شارلز كتلر توري، ليدن، إبريل، ١٩٢٠م، وهنالك طبعة أخرى حققها عبد المنعم عامر، لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٩٦١م.

٤٤ ـ عفيفي، محمد الصادق، **رفيق: شاعر الوطنية الليبية**، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٩م.

٤٥ ـ بالاشتراك مع محمد بن تاويت، **الأدب المغربي**، بيروت، ١٩٦٠م.

٤٦ ـ كرو، ابو القاسم، محمد خير الدين التونسي، تونس ١٩٥٨م.

٤٧ ـ كنون عبدالله بن، **احاديث عن الأدب المغربي الحديث**، معهد الدراسات العربية العالية القاهرة، ١٩٦٤م.

٤٨ ـ **ذكريات مشاهير رجال المغرب**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٠م.

٤٩ ـ **النبوغ المغربي في الأدب العربي** ٣م، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٦١م.

٥٠ ـ ابن مراد، الشيخ محمد الصالح، **الحداد على امرأة الحداد**، المطبعة التونسية، تونس، ١٩٣١م.

٥١ ـ المراكشي، ابو محمد عبد الواحد بن علي، **المعجب في تلخيص اخبار المغرب**، حققه محمد سعيد العريان وحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٤٩م.

٥٢ ـ المصراتي، علي مصطفى، **الشراع الممزق**، مطابع دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٣م.

٥٣ ـ المصراتي، غومة ـ **فارس الصحراء**، مطابع الغندور بيروت، منشورات مكتبة الفرجاني، طرابلس الغرب، ١٩٦٠م.

٥٤ ـ المصراتي، **صحافة ليبيا في نصف قرن**، دار الكشاف، بيروت ١٩٦٠م.

٥٥ ـ مطران، خليل، **ديوان الخليل**٣م، عنيت بإخراجه لجتة تكريم خليل مطران، مطبعة دار الهلال، القاهرة، ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩م.

٥٦ ـ المسعدي، محمود، **السد ـ رواية**، شركة النشر لشمال افريقيا، تونس، ١٩٤٩م.

٥٧ ـ المقري، ابو العباس احمد بن محمد، **نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**، ١٠م حرره محمد محيي الدين عبد

الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٤٩م.

٥٨ ـ مقلد، السيد محمد يوسف، **شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون**، مكتبة الواحدة العربية، الدار البيضاء، ١٩٦٢م.

٥٩ ـ **موريتانيا الحديثة، غابرها وحاضرها، أو العرب البيض في موريتانيا السوداء، تاريخهم اصلهم عروبتهم وأحوالهم** دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٠م.

٦٠ ـ مؤنس ـ حسين، **فتح العرب للمغرب**، مكتبة الآداب بالجماميز، القاهرة، ١٩٤٠م.

٦١ ـ الناصري، ابو العباس أحمد بن خالد، **كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ٩م نشره جعفر الناصري ومحمد الناصري دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤/١٩٥٦.

٦٢ ـ ابن بني، مالك، **مستقبل الاسلام**، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار العروبة، القاهرة، ١٩٩٥م.

٦٣ ـ ابن نبي، **حديث في البناء الجديد**، جمعها وترجم لمؤلفها عمر كامل مسقاوي، المكتبة العصرية، صيدا. لا.ت.

٦٤ ـ الوفراني، محمد الصغير بن الحاج بن عبدالله، **نزهة الحادي بأخبار ملوك الحادي**، نشره هوداس، باريس ١٨٨٨م.

٦٥ ـ ياسين، كاتب، **الجثة المطوقة: الاجداد يزدادون ضرورة**، ترجمة ملك أبيض العيسى، مراجعة سليمان العيسى، دمشق، ١٩٦٢م.

المصادر الاجنبية

1- Berque, J., al- Yousi, *Problemes de la Culture Marocaine au XVII eme Siecle,* Paris, 1958.

2- Drapue, Georges, *Esquise d'histoire religieuse du Maroc*, confreries et Zaouias, Paris, Peyrouret, 1951.

3- Provençal, E. Levi. *Les Historiens des Chorfa*, Cavose-Paris. 1922.

الأهلية للنشر والتوزيع